دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

ابن الكتاني الغندلاوي
وابن عبد الكريم التميمي

تقديم للأستاذ محمد الفاسي

المازري الإمام المجتهد

للأستاذ محمد الشاذلي النيفر

ابن البناء المراكشي
كتابه: "تفسير الإسم من البسملة"

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

داب الصحبة شروطها حقوقها فوائدها

ضي أبي العباس ابن عرضون (992 هـ)

تقديم وتحقيق الدكتور عمر الجيدي

عدد 262 جمادى الأولى والثانية 1407 - يناير / فبراير 1987

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

التمهيد

لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

تأليف:

أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
بن عبد البر النمري القرطبي

(368 - 463) هـ

الجزء السابع عشر

☆

تحقيق:

محمد بوخبزة   سعيد أحمد أعراب

1406 هـ - 1986 م

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها، جلالة المغفور له محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة 1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 262

عالمان جليلان

ابن الكتّاني الفندلاوي وابن عبد الكريم التّميمي

العباسيان

للعلامة الأستاذ محمد العباسي

نشرت دعوة الحق في عددها (259) سنة 1407 ـ 1986 صفحة 26 مقالا للبحاثة المطلع الأستاذ محمد ابن شريفة حول كتاب «المستفاد لابن عبد الكريم التميمي» وحقق نسبته لهذا العالم، وقد كنت ألقيت محاضرة في الإذاعة المغربية منذ إحدى وأربعين سنة، ونشرت بعد ذلك في مجلة «الثقافة المغربية»، وبينت فيها خطأ نسبة هذا الكتاب إلى ابن الكتاني الفندلاوي، وأثبت بحجج دامغة هذه النسبة، وفيما يلي ترجمتا هذين العالمين حيث أوردت فيهما معلومات قيمة عنهما.

ابن الكتاني الفندلاوي

وممن نبغ في هذا العصر الموحدي الثاني عالم أصولي متكلم، تخرج على يده جلة علماء ذلك العصر، وهو أبو عبد الله محمد بن علي ابن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بابن الكتاني، من أهل فاس. كان يرحل إليه طلاب العلم من كل الأقطار المغربية والأندلسية، كما نرى ذلك في تراجمهم، ومن ذلك قول صاحب صلة الصلة في ترجمة أبي الحسن الشاري السبتي الذي سندرسه في وقته : «ورحل إلى مدينة فاس فلازم بها الأصولي الجليل الورع العالم أبا عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بابن الكتاني، وتفقه عنده في علم الكلام وأصول الفقه وغير ذلك[1].

ومنهم أيضا الشيخ الجليل الأصولي أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد[2] وهو من أهل فاس.

وأبو العباس الشريشي السلوي صاحب الرائية.

وأبو الحسن ابن القطان وغيرهم.

وقد ذكر منهم عددا وافرا ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة.

1) صلة الصلة لابن الزبير ص 150.

2) انظر جذوة الاقتباس ص 343.

وقد لقيه ابن عربي الحاتمي أيضا في رحلته إلى فاس، وذكره في الفتوحات، وقال عنه : إنه إمام من أئمة المسلمين في أصول الدين (انظر الجزء الرابع الباب 463).

وقد وصف ابن الكتاني كل من ذكره بأنه كان آخر أئمة المغرب في علوم الاعتقاد، وكان زاهدا في الدنيا معرضا عنها وعن أهلها، على سنن أهل الدين والفضل «كما قال ابن الزيات في التشوف[3].

وقا صاحب مفاخر البربر «ومن أعلام علماء البربر عبد الله بن محمد[4] بن علي الفندلاوي كان أوحد أئمة أهل المغرب فيما أخذ عن أبي عمرو الأصولي من علوم الاعتقاد»[5].

وقد اعتبره من مفاخر البرابرة، لأنه وإن كان من أهل فاس فإن أصله من قبيلة فندلاوة الزناتية، وكانت منازلهم بالقرب من فاس بقبيلة بني يازغة، وكانت لهم هناك قلعتان منيعتان إحداهما كان يقال لها : «قلعة بني يوسف» والأخرى «قلعة فندلاوة» وفي محلهما الآن القرية القريبة من فاس المسماة «المنزل». وكانت قلعة فندلاوة من أول ما فتحه المولى إدريس الأول سنة 173 هـ وبقيت قائمة إلى زمن يوسف بن تاشفين، فهدمها عند غزوه للشمال المغربي.

وقد انتسب كثير من المشاهير إلى هذه القبيلة أو القلعة الفندلاوية، سنذكر منهم بعد هذا العالم الرياضي الكبير، ابن الياسمين.

وكان ابن الكتاني هذا الذي نحن بصدده يقرض الشعر، وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي : «وكان متحققا بعلم الكلام، متقدما في معرفة أصول الفقه، ذا حظ صالح من علوم اللسان وقرض الشعر، وله رجز مشطور مزدوج في أصول الفقه مستبل[6]، ومن شعره هذان البيتان :

وما أبقى الهوى والشوق مني
سوى نفس تردد في خيال
خفيت عن المنية أن تراني
كأن الروح مني في مجال

واختلف المؤرخون في سنة وفاته ما بين سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وسنة ثمان وتسعين وخمسمائة[4].

وذكر صاحب القرطاس أن أمير المومنين شهد جنازته.

والذي يتبادر إلى الذهن أولا أن أمير المومنين هذا الذي حضر جنازته هو المنصور وتكون وفاته سنة خمس وتسعين أو قبلها وهي سنة وفاة المنصور.

وذلك لما نعلمه من اهتمام الخليفة الموحدي الكبير بالأولياء والصالحين واعتقاده فيهم كما صرح بذلك عبد الواحد المراكشي في المعجب، وكرر الإشارة إليه، ومن ذلك قوله : «ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة اثنتين وتسعين وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل الله فيها الأذفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره، كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير، وحملهم إليه فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : «هؤلاء الجند لا هؤلاء» ويشير إلى العسكر»[8].

وقال قبل هذا : «وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه»[9].

إلا أن ابن عبد الملك المراكشي يحكي لنا أن المنصور حاول ملاقاة ابن الكتاني وسعى في ذلك، ولم ينجح في مسعاه، وخرج من فاس آخر مرة قبل وفاته بدون أن يلقاه، وفصل الخبر عن هذه المحاولة مصدرا ذلك

---

3) عن نسختنا المخطوطة.
4) وهو غلط والصواب ما تقدم من أنه أبو عبد الله محمد بن علي.
5) مفاخر البربر ص : 71 وأبو عمرو هو عثمان بن عبد الله القيسي المعروف بالسلالجي (انظر الجذوة ص 289).
6) ص : 112 من مخطوط الرباط المصور.
7) فصاحب القرطاس جعلها سنة 93 وصاحب الجذوة سنة 95 وابن الآبار سنة 96 وصاحب التشوف وابن عبد الملك المراكشي سنة 97 وصاحب مفاخر البربر سنة 98.
8) المعجب ص 175 من طبعة سلا وانظر أيضا تمامه ص : 176.
9) المعجب أيضا ص 170 وتمامه إلى آخر ص : 172 وانظر أيضا ص : 173.

بقوله : «وكان المنصور من بني عبد المومن قد رغب أن يكون من طلبة مجلسه فما قدر عليه البتة».

وعليه فيترجح أن الذي حضر جنازته هو الخليفة الناصر وقد كان بفاس في سنة 597 هـ وأوائل سنة 598 هـ، ونحن نعلم أنه كان يقلد والده المنصور في جل أحواله، فلا غرابة أن يكون حضر جنازة هذا العالم الجليل ويكون تاريخ وفاته كما عند صاحب التشوف وعند ابن عبد الملك المراكشي وهما أقدم المصادر عن ابن الكتاني : 14 من ذي الحجة سنة 597 هـ.

وأما ما في جذوة الاقتباس لابن القاضي من أن أبا دبوس أمير الوقت حضر جنازته فهو مجردوهم وخلط، إذ أبو دبوس هذا آخر الخلفاء الموحدين وما بويع إلا نحو السبعين سنة بعد وفاة ابن الكتاني.

وكما وهم ابن القاضي في الخليفة الذي حضر جنازة ابن الكتاني، التبس عليه ابن الكتاني نفسه بعالم آخر من أهل هذا العصر نريد الآن أن نتعرض له، وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي من أهل فاس أيضا.

ابن عبد الكريم التميمي

ولد ابن عبد الكريم التميمي بفاس، وبدأ دراسته بها على علمائها، ثم توجه إلى سبتة وأخذ عن مشايخها، ثم تاقت نفسه إلى التزيد من المعارف خارج مسقط رأسه ووطنه، فقصد المشرق وأقام هنالك مدة طويلة نحو الست عشرة سنة، وأخذ عن أبي الصبر أيوب الفهري، وأبي القاسم الشاطبي وأبي الطاهر السلفي الذي كان يقيم بالأسكندرية ويرحل إليه من كل الأقطار الإسلامية للرواية عنه، لأنه كان أكبر علماء الحديث في وقته، وقد عمر طويلا، ولا تخلو فهرسة أو برنامج ألف في هذا العصر من ذكره، وكان هو الرابطة القوية بين المشرق والمغرب، إذ كان كل من يقصد الحج من العلماء يقف بالأسكندرية عند ذهابه للبقاع الشريفة أو رجوعه منها إن كان من أهل المغرب، ويشد إليه الرحلة من الحجاز بعد قضاء الفريضة إن كان من أهل العراق أو الشام أو غيرهما من البلاد المشرقية، فيتلاقى عنده أهل كل الأقطار الإسلامية.

وأخذ ابن عبد الكريم التميمي بالمشرق والمغرب عن عدد كبير من الشيوخ، ذكر أكثرهم ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة واستوعب أكثر من صفحتين في مجرد سرد أسمائهم.

وبعد هذه الرحلة الطويلة في طلب العلم رجع ابن عبد الكريم التميمي إلى فاس وأخذ في نشر العلم وتأليف الكتب القيمة التي لم يحفظ لنا مع الأسف إلا على أسمائها، وأشهر من أخذ عنه بفاس الصوفي الكبير محي الدين ابن عربي الحاتمي، وقد ذكره في كتابه الفتوحات المكية، وأخبر أنه كان إماما بمسجد «عين الخيل»، وكان يسمى إذاك «المسجد الأزهر» لكثرة من كان يلقي به العلم ويتلقاه من كبار الرجال، وهو مسجد عتيق لا يزال قائم الذات في المحل المسمى «عين الخيل» ويصعد إليه بدرج. وقد ذكر ابن عربي أيضا شيخه هذا في كتابه «روح القدس».

وممن أخذ عنه ابن فرتون صاحب الذيل على الصلة، وسنتكلم عنه في العصر الموحدي الثالث إن شاء الله.

وأما تآليف ابن عبد الكريم التميمي فأهمها على ما يظهر من موضوعه، وبما ينقله عنه ابن الآبار في التكملة، وابن القاضي في الجذوة، وهو كتاب : **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد.**

قال ابن عبد الملك المراكشي في «سفرين»، وقد كان هذا الكتاب موجودا إلى أوائل القرن الحادي عشر حيث نقل عنه ابن القاضي عدة تراجم، إلا أنه يعتقده لابن الكتاني الفندلاوي الذي تكلمنا عنه آنفا، ولما ترجم له في الجذوة نسبه له، وأما ابن عبد الكريم التميمي فإنه لم يترجم له مطلقا كما تنبه إلى ذلك صاحب سلوة الأنفاس وتعجب منه قائلا : «مع شهرته وجلالته وتقدمه. والإحاطة لا تمكن إلا للاه عز وجل»[10].

10) انظر سلوة الأنفاس ج 3 ص : 269.

ولا شك أن ابن القاضي كان يظنهما شخصا واحدا. وإنا لا نرتاب في نسبة المستفاد لابن عبد الكريم التميمي، حيث إن ابن عربي الحاتمي ذكر أنه قرأه عليه قائلا : «سمعنا عليه هذا الكتاب بقراءته أظنه سنة مات بفاس[11].

وكما نسبه له تلميذه ابن فرتون على ما في الجذوة نفسها ولم ينتبه له مؤلفها[12].

وقد رأينا أن ابن عبد الملك المراكشي ذكره له أيضا وهو الذي استوعب أخباره خصوصا ذكر أشياخه وتلامذته وتآليفه.

ويظهر من التراجم التي نقلها ابن القاضي وابن الأبار عن المستفاد أن ابن عبد الكريم لم يقتصر في هذا الكتاب على ذكر العباد كما ورد في اسم الكتاب، وإنما أثبت فيه كل من كان يتسم بالخير والفضل سواء من المنقطعين إلى العبادة والخلوة أو العلماء المدرسين وغيرهم.

ومن تآليف ابن عبد الكريم «**ثبته**» الذي ترجم فيه لكل شيوخه بالمغرب والمشرق وسماه : «**النجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثقة** » وقد ذكروا أنه اختصر منه مجلدا لطيفا.

ومن تآليفه التي هي من قبيل الأدب المحض حسب ما يظهر من اسمه : **رسالة البرهان في ذكر حنين النفوس إلى الأحبة والأوطان**. ولاشك أنه ألفه لما كان مقيما بالمشرق في غيبته الطويلة.

ومن مؤلفاته أيضا : **بستان العابدين وريحان العارفين في ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة**، وهذا تأليف خاص بأهل التصوف لاشك أنه جرده من كتابه الكبير : «المستفاد» وزاد عليه من لم يكن من أهل فاس ونواحيها.

ومن ذلك : «**اللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة**».

ومنها : «**التعزية في المصائب المرزية**» **والمنتقى في بهجة المجالس وزاد الحاج في مناسك الحج**[13].

وهذه ثمانية مؤلفات في مواضيع مهمة مختلفة زيادة على كتبه الحديثية والصوفية التي لم يصلنا منها ولا ورقة واحدة، وهذا أقصى ما يمكن أن يبلغ إليه الإهمال وعدم الاكتراث عفا الله عن سلف أمتنا.

وقد توفي ابن عبد الكريم التميمي رحمه الله بفاس سنة ثلاث أو أربع وستمائة، وكان الأليق أن نتكلم عنه بعد ابن الياسمين الذي توفي على رأس القرن، إلا أننا قدمناه ليتسق الكلام عليه مع ابن الكتاني الفندلاوي لما بينهما من الاتصال الذي أوجبه وهم ابن القاضي.

---

11) الفتوحات المكية (الباب الأخير منها وهو باب الوصايا).

12) انظر ترجمة أبي عبد الله البيري ص : 252. قال : وقال ابن فرتون ذكره شيخنا الحاج أبو عبد الله ابن قاسم بن عبد الرحمن ابن عبد الكريم التميمي في كتابه المسمى المستفاد في مناقب العباد الخ...

13) وقد ذكر له ابن عبد الملك المراكشي غير هذا أربعة كتب في التصوف وهي أدب المريد والسالك والطريق إلى الواحد المالك، والإنابة في ذكر طريق أهل الاستجابة في جزأين، والإيضاح عن طريق أهل الصلاح، وكشف أحوال المفتونين عن الدنيا بالدين، وثلاثة كتب في الحديث وهي : تحفة الطالب ومنية الراغب في الأحاديث النبوية العلية السنية، والأغذية مما جاء في الحديث، والأربعون حديثا.

حول كتاب بهجة الناظرين لابن عبد العظيم الزموري

للدكتور محمد بنشريفة

تشتمل المكتبة التاريخية في المغرب، على نوع من المؤلفات الأخبارية، يبدو أنه كان يلقى إقبالا في بعض البيئات. ويتمثل هذا النوع في مجموعة وافرة من كتب المناقب التي انتهى إلينا منها عدد كبير.

ولا يعرف بالضبط، متى ظهرت أول حلقة في هذه السلسلة الطويلة، من مؤلفات المناقب والكرامات، التي بدأت قليلة ثم كثرت في القرون المتأخرة كثرة تسترعي الأنظار، وتستثير الانتباه، فقد سرد فقيد التدوين المرحوم عبد السلام ابن سودة في «دليله» عشرات من هذه المؤلفات.

إن سبب كثرة هذه المؤلفات يرجع إلى أنه ـ كما يقرّر ذلك ليفي بروفنسال «ليس في أيّ بلد إسلامي ما يعدل المغرب الأقصى في عدد الأولياء والصلحاء والشرفاء والمتشرفين المحاطين بالتبجيل والاحترام في الأوساط الحضرية والقروية مهما اختلفت مستوياتهم الفكرية أو المادية، وتباينت مقوماتهم الروحية، وتداخلت أغصان انتسابهم إلى شجرة الشرف النبوية».

ومن ثم فإننا ـ يقول هذا المؤرخ أيضا ـ «قلّما نجد أسرة شريفة أو طائفة صوفية، وقلّما نسمع بشيخ اشتهر بالصلاح أو بالعلم، لم تسجل أخبارهم في كتاب من كتب التراجم العامة أو الخاصة».

ويمكن القول بأن هذا النوع من الكتابة التاريخية بدا بعد ظهور الربط والزوايا والصالحين والصوفيين منذ الفتنة البرغواطية، ثم فشا في العصور التالية لأسباب مختلفة وعوامل متعددة.

إن الموضوع الأول في كتب المناقب هو سير الصلحاء وتراجم الأولياء، مع التوسع في ذكر كراماتهم ومناقبهم، والتعرض لسرد أشياخهم، وعد أصحابهم وأتباعهم، ولكن هذه الكتب إن جانب هذا كله حافلة بالإشارات التاريخية العديدة المفيدة.

ومن أقدم هذه الكتب :

ـ التشوف، إلى رجال التصوف للتادلي أبي يعقوب يوسف المعروف بابن الزيات.

☆) عرض ألقي في المهرجان الأول لدكالة المنظم بالجديدة سنة 1980، أي أنه سابق تاريخيا على ما في العدد 256 من هذه المجلة والعدد 33 من مجلة البحث العلمي، وهو منقول عن نشرة عبالة الجديدة.

- المستفاد لابن الكتاني.

- دعامة اليقين، لأبي العباس العزفي.

- المعزى في أبي يعزى للصومعي التادلي.

- والسلسل العذب للحضرمي.

- وأنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني الذي ولي القضاء بدكالة.

- وإثمد العينين في مناقب الأخوين (الهزميريين) لابن تجلات.

- والمقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف للبادسي.

- وكتاب بهجة الناظرين.

وهو الذي أريد أن أعرف بمحتواه، من حيث إنه يؤرخ لرباط من ربط الصلاح والعلم والجهاد، ويعرف برجال من أهل الفضل والخير والولاية في بلاد دكالة، ألا وهو رباط عين الفطر، الذي كان له دور كبير في بث الإشعاع الروحي والفكري في دكالة طوال القرون المتقدمة من تاريخ المغرب، وذلك خلال دول مغراوة والمرابطين والموحدين والمرينيين.

إن كتاب «بهجة الناظرين» يعد في طليعة المصادر القليلة الباقية التي نجد فيها نبذاً تاريخية عن بعض مظاهر الحياة وملامحها العامة في دكالة خلال العصور الأولى من تاريخنا.

وإذا كانت بعض كتب المناقب التي أشرت إليها قد نشرت، فإن كتاب ابن عبد العظيم ظل إلى الآن قليل التناول، محدود التداول.

وقد يخيل ـ لمن يتصفحه أول مرة ـ أن أخباره من قبيل الأخبار الواهية، التي يتطرق إليها الشك، ويتلقاها القارئ بالتحفظ، ولكن إمعان النظر في المحتوى العام للكتاب، ومعارضته بما في المصادر الأخبارية والتاريخية المعروفة ينفي ذلك في الجملة.

ذلك أن بعض رواياته موجودة في كتاب التشوف، ومؤلفه من أهل العلم والضبط، كما أن بعض المؤرخين نقلوا عنه، ومنهم النّاصري مؤلف الاستقصا، الذي أخذ منه الخبر المتعلّق ببناء سور مدينة مراكش في عهد علي بن يوسف ابن تاشفين، وكذلك الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني الذي اعتمد عليه في مواضع من كتابيه : «أسفي وما إليه»، «وجواهر الكمال في تراجم الرجال».

والقاضي العباس بن إبراهيم في كتابه «الإعلام، لمن حل مراكش وأغمات من الأعلام».

ومع هذا فإن أخبار الكرامات العديدة التي يشتمل عليها هذا الكتاب قد حجبت ما سواها، ولعلها صرفت الأنظار عما فيه من فوائد تاريخية.

ويضاف الى ذلك كله أننا لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن مؤلفه ابن عبد العظيم ما خلا اسمه الكامل الوارد في بعض النسخ المخطوطة من بهجة الناظرين كما يلي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد العظيم الزموري.

وقد ذكر الأستاذ عبد السلام ابن سودة في دليله أنه كان حيا بعد التسعمائة (هجرية) موافق سنة 1400 (ميلادية).

ولم يذكر مصدره في ذلك. بينما ذهب الأستاذ فور الى القول بأنه كان معاصراً للسلطان أبي سعيد عثمان المريني (710 - 731 هـ) وهذا قول باطل، لأن ابن عبد العظيم يورد في كتابه ربما مؤرخاً بعام خمسين وثمانمائة.

ويبدو أن ابن عبد العظيم هذا من عائلة كان لها تعلق بالأمغاريين، إذ أن له جداً اسمه أيضاً أبو عبد الله محمد بن عبد العظيم ألف كتاباً أسماه :

الأخبار، في كرامات الشرفاء بني أمغار.

وابن عبد العظيم الحفيد أو الأصغر ينقل عن ابن عبد العظيم الجد أو الأكبر.

ويوجد في الخزانة العامة بالرباط تقييد في بعض شرفاء المغرب ينسب لعبد العظيم الزموري، وهو يبدأ بالحديث عن الأدارسة ثم الأمغاريين ولكن برواية مقتضبة مغايرة لما في بهجة الناظرين، ثم يعدد البيوتات المنتسبة إلى الشرف، ويبدو أنه تقييد منحول.

وذكر الأستاذ ابن سودة في دليله كتاباً آخر قال إن اسمه : نتيجة الناظر، في مناقب أهل عيد القطر.

وقال إن الفقيه الكانوني وقف عليه ونقل منه، والذي يبدو لي أن هذا هو بهجة الناظرين نفسه، تصحفت فيه بهجة إلى نتيجة، والناظرين إلى الناظر.

إننا نجد في كتب التراجم المغربية مثل درة الحجال وجذوة الاقتباس عدداً من الزموريين سجلت تراجمهم بسبب انتقالهم أو نشوئهم في فاس، ومثلهم في ذلك مثل أعلام عائلة ابن إبراهيم المشنزائيين، وجميعهم في الأصل ممن هاجروا من دكالة أو أجلوا عنها عندما ابتليت بالبرتغاليين.

ولم يكن ابن عبد العظيم الجد وابن عبد العظيم الحفيد كل من ألف في صلحاء عين القطر، فالأخير ينص في «بهجة الناظرين» على أن العلماء «لهم تصانيف عديدة في كراماتهم وشرف بيتهم» ويذكر منها :

1 ـ الوسائل والزلفى. لأبي عمران موسى الزناتي.

2 ـ مطالع الأنوار، في كرامات الأشياخ بني أمغار، لأبي علي عمر بن عيسى الهنائي.

3 ـ تحفة الأصفياء، في تعريف الأولياء. له أيضا.

4 ـ أنس العارفين، في بني أمغار الصالحين، لم يسم مؤلفه.

5 ـ مناقب البدلاء العشرة من بني أمغار، لم يسم مؤلفه أيضا.

كما أن ابن عسكر مؤلف دوحة الناشر ذكر أنه «ألف في مناقبهم ـ يعني الأمغاريين ـ صاحب التشوف والتجيبي ومحمد بن عياض وغيرهم».

وصاحب التشوف هو ابن الزيات المعروف، وقد ترجم لبعض الأمغاريين في كتابه التشوف، ولا يبعد مع ذلك أن يكون خصهم بتأليف مستقل كما فعل مع أبي العباس السبتي، فقد ساق أخباره في التشوف ثم أفرده بالتأليف. أما التجيبي فيصعب القطع بتعيين من هو، فهل يكون القاسم بن يوسف التجيبي السبتي المتوفى 730 هـ مؤلف مستفاد الرحلة والاغتراب، والبرنامج اللذين طبعا أخيراً ؟

وأما محمد بن عياض فلا نعرف هل المعني ولد القاضي محمد بن عياض المتوفى سنة 575 هـ أم حفيده محمد بن عياض المتوفى سنة 655 هـ.

وقد يكون الأخير هو المقصود ونحن وإن لم نجد في ترجمته ما يشير إلى ماذكره ابن عسكر فإننا لا نستبعده، وكذلك فقد كان محمد بن عياض الحفيد ذا نزعة صوفية بحكم أخذه عن أبي الصبر أيوب السبتي الذي نعرف عنايته بتتبع أخبار الصالحين في المغرب، ثم إن في بهجة الناظرين لابن عبد العظيم نصوصاً تشير الى صلات كانت بين الأمغاريين في تيط وبين البيتين الكبيرين في سبتة، بيتي العياضيين والعزفيين.

فهو يذكر أن القاضي عياضا أتحف أبا محمد عبد السلام بن أبي عبد الله أمغار بكتابه : الإعلام، بحدود قواعد الإسلام.

وأما العزفيون فسأشير إلى علاقاتهم بالأمغاريين أصحاب تيط فيما بعد.

إن هذه الكتب المؤلفة في الأمغاريين قد ضاعت - فيما يبدو - ولعلها كانت من محفوظاتهم أيام عزهم القديم في تيط ثم فقدت في ظروف الفتن والغزو البرتغالي وما تلاه من جلاء عن البلد، ولذلك فلم يبق منها إلا النقول التي أوردها ابن عبد العظيم في كتابه الذي سأتناوله بالتحليل الآن :

أريد أن أنبه في البداية إلى أن ابن عبد العظيم الزموري في كتابه : بهجة الناظرين. يركز على موضوعين وهما :

1) شرف الأمغاريين
2) وكراماتهم

وما سوى هذين الموضوعين فإنما يرد عرضا في أطواء الحديث عنهما.

أما شرفهم فقد اعترفت به ظهائر عديدة منذ قديم حتى ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي حصر فيه الأشراف بالمغرب. وقد أحصى الفقيه الكانوني المصادر التي صرحت بنسبهم وشرفهم، وانتقد ابن القاضي الذي طعن في نسبهم[1] وقال في آخر كلامه : «فمن أنكر شرفهم فكأنما أنكر الشمس في رابعة النهار».

وأما الكرامات فهي غرض التأليف وشرطه.

وسوف أترك الخوض في هذين الموضوعين، وأتناول النص من النواحي الآتية :

أ - الوثائق
ب - الأشعار
ج - الأعلام
د - الأخبار

☆ ☆ ☆

أ) الوثائق :

يحتوي الكتاب على مجموعة من الوثائق الرسمية، وهي تتمثل في عدد من الظهائر والرسائل والأوامر الملكية والرسوم العدلية، وكلها تتعلق بالأمغاريين أصحاب تيط، وتنتمي إلى الدول المتعاقبة في المغرب منذ دولة مغراوة حتى أواخر دولة بني مرين، ويبدو مؤلف الكتاب حريصاً على توثيقها وانتساخها من أصولها التي كانت في حوزة أصحابها.

وقد يناقش البعض في مدى صحة هذه الوثائق، ولكن تواريخها مضبوطة وأساليبها معروفة، بالإضافة إلى أنه جرت عادة ملوكنا منذ القديم في إصدار ظهائر التوقير والاحترام للشرفاء والمرابطين، وما يزال أهل هؤلاء يتوارثون هذه الظهائر ويحتفظون به إلى اليوم، وأنا أذكر هنا على سبيل المثال ذخيرة الظهائر التي توارثها آل الشيخ أبي محمد صالح في اسفي جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا، وكثير منها يرقى إلى العصر المريني. ولا نعرف هل ما زال بعض الأمغاريين يحتفظون بشيء من هذه الظهائر التي انتسخ منها ابن عبد العظيم أم لا.

إن أقدم وثيقة نجدها في هذا الكتاب ترقى إلى عهد بني يفرن وهي عبارة عن ظهير كريم بعث به الملك تميم بن زيري اليفرني إلى أبي جعفر إسحاق والدأبي عبد الله الأمغاري في شأن رفع الكلف والمطالب عنه وعن قرابته وجيرانه وأصهاره وخدامه وكل من تعلق به، واحترام حاشيته، لقد أشار المؤلف في كتابه مرتين إلى هذه الوثيقة. ذكر في إحداهما أنها مؤرخة بعام عشرة واربعمائة وأورد نصها في المرة الثانية وفي آخرها : كتب في ربيع الأول المبارك عام تسعة وأربع مائة.

ولابد أن في هذين التاريخين سقطاً لأن تميما بن زيري اليفرني كان أميرا فيما بين عام 424 هـ وعام 446 هـ.

---

1) يقول ابن القاضي في ترجمة عبد الخالق الأمغاري الصنهاجي : «من بني أمغار أصحاب تيط، وهو يزعم الشرف مع أن التادلي عرف ببعض سلفه وهو أبو عبد الله الأمغاري ولم يذكر لهم نسبا، وذكرهم غيره. وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة، ولقد شاهدت بمدينة مكناسة ثلمة عظيمة في الدين : أجلسوه على كرسي بجامعها الأعظم، وهو يتكلم في التصوف بزعمه، ويضل العامة بمذهبه الشنيع، أهلكها الله من طائفة مضرة بالسنة السمحة... وهو حي من أهل العصر وله نظم، ولم أذكره، بغضا في جانبه وطريقته وغيرة على أهل السنة أهل الله».

درة الحجال 3 : 167 ـ 168 والطائفة الأندلسية المذكورة تنتسب إلى محمد الأندلسي، وقد أثارت فتنة كبير في مراكش وغيرها في العهد السعدي، وردّ عليها بعض علماء ذلك العصر. راجع درة الحجال 2 : 36، 3 : 288 ودوحة الناشر : 109.

ومهما يكن الأمر فإن الكرامة التي حكاها صاحب القرطاس حول هذا الأمير تتناسب مع روح هذا الظهير ولفظه. وهذه الوثيقة تثير سؤالا وهو موقف الأمغاريين في تيط من برغواطة.

وفي الكتاب وثيقة واحدة ترجع إلى عهد المرابطين، وهي رسالة صادرة من حاضرة مراكش عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بتاريخ عقب ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة إلى أبي عبد الله محمد أمغار يعتقده في الأولياء ويسأله الدعاء.

وقد أخطأ تيراس وصاحبه حين ظن أن هذه الوثيقة موجهة إلى يوسف بن تاشفين واعتبرها لذلك مشكوكا في صحتها.

ويروي ابن عبد العظيم أن أبا عبد الخالق الأمغاري ترك لذريته ظهائر موحدية كثيرة في الإعفاء من المغارم والوظائف والكلف المخزنية، وقد أورد نص ظهير أمر به آخر ملوك دولة الموحدين إدريس بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المومن الملقب بأبي دبوس وهو موجه «إلى السادة الشرفاء الساكنين برباط عين الفطر كتب في شهر ربيع الآخر عام خمسة وستين وستمائة». ولا غبار على هذا التاريخ. كما أثبت نص رسالة بعث بها الناصر الموحدي ـ حسب قوله ـ إلى أبي عبد الخالق الأمغاري يلتمس منه الدعاء لما عزم على الجواز إلى الأندلس بقصد الجهاد، ولكن تاريخ هذه الرسالة وهو 625 لا يتوافق مع زمن الناصر.

وقد بلغت تيط أوج الشهرة والحظوة في عهد المرينيين الذين كانوا يشملون الأمغاريين كغيرهم من الشرفاء والمرابطين ـ بكثير من الرعاية والعناية كما يدل على ذلك أمران كريمان.

أولهما من يوسف بن يعقوب بن عبد الحق إلى الأمغاريين كي يختاروا ثلاثة رجال منهم يتوجهون مع الوفد الرسمي للحج برسم حمل كسوة البيت الكريم وفيه تنويه بالغ بهم. وانتداب الأشراف والمرابطين لوفد الحج كان معمولا به في الدولة المرينية، فابن الخطيب يخبرنا أن أحمد بن يوسف حفيد أبي محمد صالح قاد ركب الحجاز.

والأمر الثاني من أبي عنان فارس إلى عامله وخديمه محمد بن حسون كي يمنح أولاد أبي الحسن علي الأمغاري مائة دينار من الذهب العين الجارية لهم على قديم الزمن وحديثه في كل عام رعيا لسلفهم الصالح الشريف وعلو منصبهم في العلم والديانة والصلاح.

وهذا غير مستبعد من أبي عنان الذي كان له ـ كما كان لبني مرين عموما ـ محبة في أهل الخير والصلاح. ورحلته إلى سلا وتطارحه على وليها الأكبر ابن عاشر معروفة.

وأطول الوثائق التي يشتمل عليها الكتاب الرسمان اللذان صدر بهما كتابه لإثبات شرف الأمغاريين وكراماتهم، فقد كتبا بإطناب واضح وذيلا بعدد هائل من أسماء الشهود والمؤدين والموقعين.

والرسم الأول مؤرخ في عام ستة وتسعين وستمائة ويليه رسم بثبوت الأول في نفس التاريخ ثم شهادات بصحة المقابلة مؤرخة بعام 729 وعام 821 وعام 850 عن قضاة من أزمور وعين الفطر.

هذا وإن تحليل هذه الوثائق والوقوف عند الأعلام الواردين فيها يحتاج إلى دراسة خاصة.

☆ ☆ ☆

ب) الأشعار :

يشتمل كتاب بهجة الناظرين على نصوص شعرية عديدة وهي على ضربين : أشعار زهدية على نحو ما نجد في كتب التصوف والمناقب كالتي نقرأها في التشوف وهي غير منسوبة.

وأشعار في مدح أعلام تيط من الأمغاريين أو تهنئتهم أو تعزيتهم ببعض المناسبات أو التوسل بصلحائهم، وهي من الناحية الفنية من النظم العادي. ودلالتها على المكانة الاجتماعية واضحة.

لقد أصبح أهل التصوف مقصودين بالمديح ومن أشهر النماذج في هذا الباب قصيدة طويلة للإمام البوصيري مطلعها :

قفا بي على الجرعاء من جانب الغرب
ففيها حبيب لي يهيم بـه قلبي

وفيها يمدح الدكاليين قوم أبي محمد صالح فيقول في أثنائها :

ألم تر مدحي جاء فيهم محرّراً
وما فيه من ضرب لعيب ولا شطب

وما أنا من دكالة غير أنني
نسبت إليهم نسبة الصدقَ في الحبّ

كنسبة سلمانٍ لبيت نبيه
وما كان منهم في قبيل ولا شَعْب

جـزى الله خيراً ملّة أخرجتهم
إلى الناس إخراج الحبوب من اللب

والشعر الذي قيل في الأمغاريين دون هذا، فمن أبيات نسبت مرتين إلى الصوفي المعروف أبي العباس المرسي دفين الاسكندرية الذي زار تيط وعاش بين أهلها فقال يمدحهم :

بحمد الله مالكم حلال
وأنتم صالحون كما يقال

وعين الفطر قد شهدت بهذا
فلا يلفى لبيتكم مثال

وأنتم آل رسول الله حقاً
وآل رسول الله نعم الآل

وكان لأبي العباس العزفي جد العزفيين المعروفين بسبتة تعلق بالأولياء والصالحين ومن ثم نجده ينظم أبياتاً في صدر كتاب له إلى أبي الحسن علي حفيد أبي عبد الله أمغار منها :

وإني لألقاكم بصدق مودة
وشوق إذا لم ألقكم بعيان

وأدنو إليكم بالفؤاد محبة
إذا لم يكن في المثول تدان

في أبيات أخرى تدل على حسن نيته وصدق مودته لأهل هذا البيت الأمغاري، وله قطعة ثانية فيهم يفتتحها هكذا :

وددت بعين الفطر لو كنت ثاوياً
جوار بني أمغار في عز بيتهم

ونجد في الكتاب قصيدتين طويلتين لشاعر مغربي لم نتمكن من الوقوف على ترجمته اسمه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الكيي يمدح عموم الأمغاريين ويتوسل إلى الله بهم، مطلع الأولى :

بسادة عين القطر قدس روحهم
توسل إلى الرحمن في السر والجهر

ويبدو أنه من المتأخرين الذين أدركوا فترة الغزو البرتغالي سواحل دكالة، فهو يقول في هذه القصيدة :

ومن على الغرب القصي وأهله
بعافية تشفى القلوب من الذّعر

ورد الذي فيه من الفتن التي
أقرّت بأهليه إلى بلد الكفر

وثمة قصيدة طويلة لمن اسمه أبو عبد الله الفزازي ولعله الفنزاوي اللاوي مطلعها :

يا عين قطرهم قد زدت عمرانا
لا أعدم الله فيك الخير سكانا

وثمة قصائد أخرى في التوسل بالصلحاء الأمغاريين معظمها لناظمين غير مذكورين، وقصائد أخرى لبعض الطلبة الذين كانوا يقرأون على الشيخ أبي عبد الله أمغار، ولعلها بمناسبة الختمات التقليدية، أما أشعار المناسبات الأخرى فهي مبثوثة في الكتاب كله.

☆ ☆ ☆

ج) الأعلام.

في هذا الكتاب حشد كبير من أسماء وأعلام دكالة وغيرها في القديم.

كبني بطان الذين كانوا يتوارثون مشيخة صنهاجة وكانت لهم مصاهرة مع الأمغاريين، وقد نزل ابن الخطيب في تجواله بدكالة عند أحدهم وهو الوالي أبو محمد ابن بطان ممدّح الشعراء والزجالين، وهو الوارد ذكره في نونية الفقيه عمر الزجال المالقي :

ومزدوجات ينسبون نظامها

إلى ابن شجاع في مديح ابن بطان

وقد مدحه ابن الخطيب وأطنب في وصف جوده.

ومن أعلام دكالة بنو حسون الذين كان منهم الولاة والعمال على أزمور وغيرها وقد نزل عندهم ابن الخطيب ومدحهم بشعر يقول فيه :

إحسانكم يا بني يحيى بن حسون

أزرى على كل منثور وموزون

وأعلام هنائيون ينتسبون إلى بني هنا من أحواز أزمور، ومنهم محمد بن أبي القاسم الذي كان شيخنا واليا عليهم، وأعلام من المشنزائيين وبني عبد العظيم الزموريين وغيرهم، وأكبر نسبة من أعيان دكالة في القديم هم الموقعون على رسم شرف الأمغاريين الذي سبقت الإشارة إليه.

☆ ☆ ☆

د) الأخبار.

في بهجة الناظرين مجموعة طيبة من الأخبار التي لها فائدتها ودلالتها، فمن النصوص التي لها صلة بتاريخنا العام ذلك النص الذي نقله صاحب الاستقصا عن ابن عبد العظيم في بناء سور مدينة مراكش وهو «أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين لما عزم على إدارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير في ذلك، فمنهم من ثبطه ومنهم من ندبه إليه، وكان من جملة من ندبه القاضي أبو الوليد ابن رشد. ثم شاور أبا عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار صاحب عين القطر، فأشار ببنائه وبعث له من ماله الحلال وأمره أن يجعله في صندوق صائر البناء ويتولى الإنفاق في ذلك رجل فاضل، فقبل السلطان إشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء».

وفيه دلالة لا تخفى على المساهمة والمشاركة التي عرف بها المغاربة من قديم. وبالنسبة لابن رشد، وهو هنا الجد، فإننا نقف في فتاويه على استفتاء أمير المسلمين له في مثل ما ذكر..

ومن أهم الأخبار في الكتاب تلك التي يستفاد منها أطوار مدينة تيط منذ تأسيسها على يد الأمغاري الأول إسماعيل إلى عصر المرينيين، والمعلومات المتعلقة بالبلدان القريبة منها مثل أزمور ومازغان وفضالة وأنفا وايير وإسكاون، وقد استعان تيراس في دراسته الأثرية لرباط تيط بالمعلومات الواردة في كتاب ابن العظيم حول تطور العمارة بها وبناء المساجد والصوامع والأسوار وغيرها، ومنها ما مايزال ماثلا إلى الآن، وتجدر الإشارة إلى أن أهم شيء لفت نظر ابن الخطيب عندما زار تيط هو مسجدها الجامع ومنارته فقال : «ومسجدها تضيق عنه المدائن مناراً عالياً، وبقلادة الأحكام حاليا»..

وثمة خبر مطول يشير إلى منبرين صنعا في سبتة لفائدة تيط، وتفيد هذه الأخبار أن الأمغاريين كانوا ذوي تعمير وإصلاح بما بنوا من أسوار وحفروا من آبار وشيدوا من مساجد.

أما أخبار الحركة العلمية في تيط خصوصاً والإقليم عموما فتجد في الكتاب قدراً صالحاً منها، فقد تكررت الإشارة إلى إقراء المدونة في الفقه، وصحيح البخاري في الحديث، والتفسير والكلام، وثمة إشارة إلى نازلة كلامية

اختلف فيها فقهاء الإقليم فرفع أمرها إلى فاس مما يدل على أن تيط كانت مركزا ثقافيا مثلما كانت رباطا صوفيا.

ومن أطرف الأخبار في هذا الباب هذا الخبر الذي يدل دلالة بالغة على نفاق العلم والتأليف عند الأمغاريين .

«ثم إن العلماء رحمهم الله ورضي عنهم لم يزالوا قديما وحديثا يصنفون تصانيف في فنون العلم ويتحفون بها البيتة المذكورة التماسا لبركتهم ورغبة في دعائهم الصالح وحرصا في وضع الحكمة في أهلها عملا منهم بقوله ﷺ : لا تمنعوا العلم أهلـه فتظلموا، ولا تضيعوه في غير أهلـه فتأثموا».

ومن هؤلاء العلماء الذين أتحفوا شيوخ الزاوية بمؤلفاتهم القاضي عياض وأبو الطيب الصفاقصي وأبو بكر ابن العربي وابن زهر الحفيد وأبو عمران المزياتي وغيرهم.

وفي الأخير هناك إشارات لها دلالتها على الناحية الاقتصادية كالإشارة إلى الفلاحة وانتشار كروم العنب وولجات الخضر على ساحل البحر مما يفيد أن دكالة عرفت بكل ذلك منذ القديم، وثمة ما يدل على حركة الوسق إلى سبتة على وجه الخصوص.

وقد كان «اللسان الغربي» كما وردت العبارة في هذا الكتاب وفي غيره هو اللسان العام برغم الزحف الهلالي على هذه المنطقة منذ عصر الموحدين، ولكن التعريب الشامل في دكالة وقع بالتدريج إلى أن تمّ بصورة نهائية وفي الكتاب ألفاظ عديدة من هذا اللسان الغربي، ومنها : تيط نفطر أي العين الباردة أو عين الفطر حسب التعبير الذي شاع، وتانوت أبي يعقوب أي بئر أبي يعقوب، وتاسخرت من الكلمة العربية السخرة أو المغرم الباطل كما فسرت في الكتاب.

وأما أسماء الأماكن في الكتاب فمعظمها بهذا اللسان مثل بئر تيمن كيدورت، وكدية تِكْني وتاتوريت وغيرها. كما أن فيه ألفاظا مغربية ومصطلحات جغرافية مثل الحراز - حراز عين الفطر، والفحص - اصطلاح أندلسي عمم في المغرب والانصاف ودولة بمعنى حصة. واستوقفني فيه كلمة عريف بني فلان.

هذه جولة سريعة في هذا الكتاب الذي يعد أهم تراث تاريخي عن مركز كان من مراكز الإشعاع، وكان له دوره في تاريخنا ثم أصبح ذكرى يحييها أهل دكالة في موسم سنوي، ولكن بقايا الأمغاريين لم ينسوا ميراثهم الذي يتوارثونه كما يورث الناس المال، فكانت لهم زواياهم في تامصلوحت وسايس دكالة وأبزو ومولاي ابراهيم. وكان لهم دور بارز في تاريخ الحوز مثلما كان لسلفهم في دكالة.



تحديات الفكر الغربي للإسلام:

الحقيقة الإسلامية
والصراع بين الاستشراق القديم والحديث

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

نعطي في هذه العجالة صورة عن الدور الذي قام به مستشرق إيطالي معاصر لدحض شبهات الاستشراق القديم، انطلاقا من دراسة نقدية مقارنة لتاريخ الإسلام وتطور فكره الحضاري.

الأمير ليون كيطاني Leone Caetani (1869 ـ 1935م) مستشرق إيطالي بارز، واجه بشجاعة نادرة موجة الشك التي جرفت بأوربا خلال القرن التاسع عشر الماضي، كنتيجة للاتجاه المادي والعقلاني الجديد الذي تزعمه أمثال أوكَست كونط Auguste comte وداروين Darwin وبُوكل Buckle، فقد أسهم (كونط) في رسم الخطوط العريضة لفكرة إنعاش الإنسانية عن طريق دعم العلم وعقلنة الدراسات الاجتماعية والثقافية، بينما حاول (داروين) في أبحاثه الاجتماعية الدعوة لمنهجية تستهدف حل مختلف مشاكل وقضايا التاريخ، على ضوء نظرية التطور والارتقاء.

أما الشخصية الثالثة وهي (بوكل) فقد اقترحت في كتابها (تاريخ الحضارة في انجلترا) (لندن 1857) النظرية الجيوسياسية التي عملت على إقناع رجال الفكر بأن القوانين الأخلاقية ليست هي المنطلق الذي يتمخض عنه تطور الإنسان، بل إن نوعية المناخ والتربة والغذاء والظروف الطبيعية هي التي تحرك وتخلق كل تطور في شقيه الاجتماعي والفكري، وقد كان لهذا الكتاب أثر عميق على الحياة الفكرية في أوربا، إذ لم يكد يظهر للوجود عام 1857 حتى ترجم إلى أهم اللغات الأوربية في عدة طبعات متجددة.

وقد زعزع هذا التيار الداهم من الشك والإلحاد أسيسة فروع المعرفة في جميع هياكلها، فتضعضع بنيان المسيحية، وغارت عطاءاتها في لجج الريبة الغامرة، كاد الناس معها يظنون أن هيمنتها على العقول قد أمست في خبر كان، حتى إن المستشرق (كيطاني) نفسه رغم اعتداله لم يسعه إلا أن يشاطر عالم الفكر الأوربي آراءه العقلانية، وقد حكى عن نفسه أن إيمانه بالكنيسة ومعتقداتها قد تلقى صدمة بلغت درجة من العنف تغلغلت في عقلية الناضجين من رجالات الفكر والمعرفة؛ مما اضطر معه إلى اعتبار

المسيحية كما وصلت إلى أوربا ـ بمثابة بنية مشوهة لتعاليم المسيح عليه السلام، بل ذهب (كيطاني) إلى حد التنبؤ بميقات انهيار الكنيسة وتحرر الناس من قيودها، وقد عبر (كيطاني) عن آرائه هاته في كتابين اثنين هما :

1) (الكاثوليكية المعارضة للكهنوت والتمرد ضد البابوية الإيطالية) طبعة روما 1911م.

2) (الأزمة الخلقية اليوم : ديننا وعصرنة وديموقراطية).

وقد انطلق النقد بدون عنان إلى حد نكران وجود المسيح نفسه.

هنا عاد (كيطاني) إلى دراسة الإسلام، فنشر عام 1905م مائتين وخمسين نموذجا لصور إسلامية في الجزء الأول من موسوعته الضخمة (حوليات الإسلام). فانهال عليه من أصدقائه المستشرقين سيل من الخطابات التي نادت به كأعظم مؤرخ للإسلام في أوربا، وبلغ هذا التأثير كل جنبات دوائر الفكر في القارة الأوربية حداها إلى التهافت على دراسة لغة العرب وثقافتهم وعطاءات الإسلام فكراً وحضارة..

وكانت لكيطاني طريقة جديدة للكشف عما يرومه من حقائق وذلك من خلال دراسة نقدية متوازية للنصوص العربية والمراجع الأجنبية، فاستطاع منذ عام 1926 نشر المجلد العاشر من حولياته منهياً بذلك أبحاثه حول الإسلام؛ إلى أحداث سنة الأربعين من الهجرة، وهو تاريخ مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ .

وقد أفرد (كيطاني) المجلد الخامس من موسوعته لمعركة (اليرموك) بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب والبيزنطيين عام 15هـ 636م، غير أن هذا المستشرق الإيطالي الموفق، عرف كيف يستثمر مئات المذكرات التي ملأ بها مجدته أو جزازيته الضخمة fichier التي كانت لاتزال غمية إذ لم تنشر بعد محتفظا بها لتحرير مصنفاته الثلاثة الكبرى الآتية :

1) (تدوين الأحداث الإسلامية) ـ خمس مجلدات (روما ـ باريس) 1912 ـ 1918 (تسلسل الأحداث إلى عام 147هـ / 762م.

حيث أصبح الاستعمار التابع من الدول الأوربية يستهدف الكشف عن خبايا عالم الإسلام، وكذلك الأمم والشعوب الإفريقية والأسيوية، فانبرت مدرسة من الكتاب والعلماء شرعت في تجميع المعلومات والمستندات المختلفة بهذا الصدد فظهر أمثال (السير ريتشارد بورتون) Sir Richard Burton ووليام روبرتسون سميث William Robertson Smith وشارل دوغتي Charles Douhrty وسنوك هوركرونج Snouck Hurgronge وكثير آخرين، شجعوا للاتصال بالأراضي والأمم «المقدسة» التي ظلت ألفا من السنين قابعة وراء قلاع حصينة وأسوار منيعة ضد كل توسع غربي في آسيا وافريقيا.

وفي هذه الفترة كتب سبرنجير Sprenger (1813 ـ 1893) بالألمانية سيرة الرسول ﷺ في ثلاثة مجلدات بعنوان : (حياة وتعاليم محمد) (طبعة برلين 1961 ـ 1965) حيث سخر ما شاءت له السخرية بالأدب الشرقي، ولكنه أكد أن التعرف الكامل على مظاهر الحياة والأدب في آسيا في ظروف القرن التاسع عشر يعتبر مطمحاً أساسياً ورغبة ملحة في أوربا، وكانت الجيوش الاستعمارية تنطلق ظافرة يعززها مستشرقون أمثال مارغوليوث D.S Margoliouth (1858 ـ 1940) وألفريد كيوم Alfred Guillaum وبيرنار لويس Bernard Lewis وكليفلان دودج Clevland Dodge وأشباههم، فازدوجت هذه الانطلاقة بشعور من الفخر والخيلاء ومركب سمو تمخضا عن تطور العلم والتكنولوجيا بأوربا من جهة، وتدهور الأقطار الإسلامية من جهة أخرى، وقد اتسمت معظم الدراسات التاريخية حينذاك ـ عن قصد أو غير قصد ـ بسمات استفحلت مع الزمن ضد الإسلام.

ولم تكن هذه الحركة دائما نتيجة عوامل مغرضة، بل قد أدت إليها أحيانا بحوث ناقصة بتراء لم تستكمل مستنداتها، فتهافتت الأخطاء على عقول أصحابها بصورة التبست فيها خيوط الحقيقة، وقد نتج عن ذلك الخلط والتمويه سوء التأويل وتقليص حجم الرسالة المحمدية والنيل من قيمة ومدى إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية والثقافة العالمية.

أما المناقضة التي تكمن في هذا الاتجاه فهي أنه وُسِم كمسار «لنزاهة صارمة في صالح المعرفة».

وفي هذه الملابسات الوخيمة بدا (كيطاني) باحثا

2) (معلمة عربية (تاريخ الإسلام تراجم ومنجزات ومراكز) ـ مجلدان اثنان ـ تسلسل زمني إلى كلمة «عبد الله» (روما 1915م) (200.000 مذكرة لاتزال غميسة).

3) (دراسة تاريخ الشرق) (روما 1911 ـ 1914) مجلدان اثنان حول (انبعاث الإسلام على ضوء النظريات الجيواقتصادية الحديثة).

ومع ظهور الفاشية اضطر المؤرخ (كيطاني) وهو آنذاك عضو في البرلمان الإيطالي للهجرة إلى (كندا) حيث قضى في (فانكوفير) السنوات العشر الأخيرة من حياته قبل أن تنطفئ شعلته يوم 24 دجنبر 1935م وقد أوصى بخزانته الثرية للأكاديمية الوطنية في (لنسل)، وكان عضوا لها عندما أسس في رحابها عام 1924 المركز الإيطالي الكبير لدراسة الإسلام.

وقد أخذ (كيطاني) على نفسه طوال حياته أن لا يترك أية فرصة لشجب حملات القذف التي انطلقت ضد الإسلام منذ العصور الوسطى، وكانت تدخلاته من خلال محاضرات كالتي ألقاها عام 1910 حول شخصية محمد عليه السلام مبرزاً ما تنطوي عليه مسارات الطعون والافتراءات من آثار وخيمة كمنطلقات أثيمة شكلت السلاح الوحيد ضد الإسلام ورسول الإسلام.

وقد كان لردود الفعل هذه رجة في المجتمعات الأوربية حدت أمثال الكاتب الفرنسي الشهير (بيير مارتينو Pierre Martino إلى التنديد في كتابه (الشرق في الأدب الفرنسي خلال القرنين السابع والثامن عشر) (باريس 1906) بهذه الصولات الصاخبة التي أجج أوارها أولئك الذين خسروا الحرب ضد الأتراك، فعمدوا إلى أخذ الثأر عن طريق سلاح الأدب، وهو ما عرف بـ (الاقتصاص الأدبي للمسيحية)، وبلغ هذا الشعور حدا من الضراوة وصل إلى منتهاه بعد استيلاء آل عثمان في منتصف القرن الخامس عشر على عاصمة (بزانس) نفسها.

وبتقلبات الحدثان ومعاكسة الحظوظ لدى الشعوب الإسلامية منذ القرن الثامن عشر وانهيار هذه الشعوب أمام الموجة الاستعمارية الجارفة ـ اتخذ المشكل حجماً جديداً، غريبا يثير الدهشة والفضول، فبالرغم عن مشاطرته ـ دون وعي أو شعور ـ لأحكام مسبقة ولبعض وجهات نظر العصر الذي تخضخض فيه ـ فقد أخذ بلبه تحمس عارم لمفهوم الديموقراطية في الإسلام، ذلك المدرك التي وصفه في العبارات الآتية : «**إن الإسلام قد انتشر في المعمور حيث ظل ـ بصورة غريبة ـ وفيا لبعض المبادئ الأصيلة، فخلف مجتمعا خاليا من كل أرستقراطية لا نظريا فحسب بل عمليا أيضا ـ قد تشبع بروح من المساواة الديموقراطية وطابع من السمو الاجتماعي والاقتصادي ضمن طبقات من سلالة وحيدة، اختلفت فروعها وهي ظاهرة اجتماعية لم يسبق للعالم أن عرف مثيلا لها قبل الإسلام وليس هنالك ما يدعو إلى الشك في أن هذا النوع من الدين العملي إذا ما اعتنقه رسل الاشتراكية في هندامه المجرد عن كل طابع خارق للطبيعة ـ فسيكتب له نصر قار في سياقه دون تفاوت أو انحراف، وذلك بإقامة هيكل تكلله مبادئ مساواة حقيقية واقعية كالتي أقامها الإسلام في مساره الظافر**».

المازري الإمام المجتهد

للأستاذ محمد الشاذلي النيفر

استقطبت حياة الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري مدينة المهدية عاصمة الصنهاجيين، وهي في أخريات أيامها حيث ولد سنة (453 هـ)، في السنة التي تليها السنة الأخيرة من ولاية المعز الصنهاجي (406 ـ 454)، والدولة الصنهاجية حينذاك منقوصة الأطراف، ضعيفة أشد الضعف، حين زحف على إفريقية أعراب صعيد مصر من هلاليين وبني سليم ورياح وغيرهم، وحاصروه في المنصورية وخرج منها بعد حصار طويل إلى المهدية، فآخر أيامه أيام نكبة عليه وعلى الدولة، فأصبحت اسما يكاد يكون بلا مسمى، وأنكى فيها بعد نكاية الأعراب الزاحفين تطاول المتسورين على الدولة والمعتصمين بقلاعها، فأصبحت إفريقية موزعة بين ثائرين كملوك الطوائف.

وحين أفضت النوبة إلى ابن المعز تميم لم يتمتع بالملك، وإنما قضى أيامه في إخماد الفتن هنا وهناك، وبالطبع أن تكون الحال بعد وفاته حين تولاها من بعده، لم يجدوا فيها راحة، ولا عاشوا في ظلال السعادة، وبالطبع أن تكون المهدية في تلك الفترات تعيش النكبات، فالعاصمة التي استقطبت حياة المازري عاصرها على ما هي عليه، ومع ذلك نبغ فيها نبوغا فريدا، وسار ذكره شرقا وغربا، وكانت مجالس دروسه من أحفل المجالس لما نتج عنها من مؤلفات تلقاها عنه نبغاء تلاميذه.

ومنها : «المعلم» و«شرح التلقين»، وكلا الكتابين عرّف بالمازري تعريفا أشاد بذكره، وبلغه مرتبة الإمامة، فأصبح يعرف بالإمام المازري، وهي إمامة لم تخلع عليه وهو دونها، بل خلعت عليه وهو من أفرادها الأفذاذ، أي أنه مجتهد، وهذا ما دعا ابن دقيق العيد وناهيك به من أحد أكابر العلماء المجتهدين، وهو أبو الفتح محمد بن علي تقي الدين ابن دقيق العيد (ـ 702) إلى أن (يقول ما رأيت أعجب من هذا ـ يعني المازري ـ لأي شيء ما ادّعى الاجتهاد)[1].

يعني ابن دقيق العيد أنه بلغ درجة الاجتهاد ولم يدعه، فتعجب من ذلك، وحري به أن يتعجب لأن المازري رتبته ليست متقاصرة عن بعض المجتهدين بل تفوقهم.

وفي ظني أن أبا الفضل القاضي عياض بن موسى (ـ 544) ما خلع عليه أنه الإمام المازري إلا وهو يقصد أنه

1) الوافي بالوفيات ج 4 ص 151.

مجتهد، ويوضح بهذا قوله : «الإمام أبو عبد الله محمد بن علي... إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر»[2].

وسنوضح بعض نقاط من بحوثه التي طفح بها كتابه المعلم[3] لنظهر نموذجا منها دلالة على إمامته واجتهاده علاوة على غير ذلك مما امتاز به.

فحين يقول عياض في الغنية :

(ودرس أصول الفقه والدين وتقدم في ذلك فجاء سابقا لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوى لمذهبهم، وسمع الحديث وطالع معانيه واطّلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك، فكان أحد رجال الكمال في العلم في وقته، وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب في بلده، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه[4]).

يقصد أنه في تفوقه إمام ممتاز.

فإن هذا التعريف على وجازته من القاضي عياض لشيخه الإمام المازري لا بالإجازة فحسب وإنما بكتابه «المعلم» الذي اتخذه قدوة فأكمله بكتابه (إكمال المعلم، بفوائد مسلم) هو تعريف من أدق ما يعرف به، فقد عرف بنقاط النبوغ في المازري ما أصبح به مجتهدا لا بادعائه كما يفعله البعض، بل آثاره تنبئ ممن اجتهاده وتدع العارفين الغواصين مثل ابن دقيق العيد والقاضي عياض أن يعلنوا أنه بلغ درجة الاجتهاد.

وإن شاء الله بإخراج المعلم يعرف المطلعون عليه أنه مفتاح للاجتهاد بعد كتاب الموطا للإمام مالك[5] الذي هو المفتاح الأول لفتح باب الاجتهاد.

فحين يعرف به القاضي عياض في الغنية ذلك التعريف المحيط الدقيق في التعريف، فيقول (وسمع الحديث وطالع معانيه) إنه ليس من رجال الحديث فحسب بل هو في رجاله المطلعين على معانيه، ففي المعلم يبدو هذا المعنى الذي أشار إليه القاضي عياض.

وتدليلا على ذلك نأتي بفصل قيم له افتتح به كتاب البيوع ألم فيه بتدقيق وتحليل يبدو فيه نفس المازري المبسوط في معلمه وخاصة في مواطن افتراق العلماء، ونأتي به كله إذ تناول فيه ما اختلفت فيه الأنظار بتدقيق بالمام وتدليل يبدي سداد النظر، وما أبداه من بيان يكشف ما للإسلام من أسرار في أهم ما تقوم عليه الحياة بأجمعها وهي البيوع التي هي ركيزة أن الإنسان مدني بالطبع.

وأوضح احتياج الفرد إلى الفرد ابن خلدون في الباب الأول من الكتاب الأول مبينا أن الاجتماع الإنساني ضروري وهو الذي يعبر عنه الحكماء بقولهم :

الإنسان مدني بالطبع فلابد له من الاجتماع[6].

وأبدى الإمام المازري في ركيزة هذه الضرورة الإنسانية ما تفرق في أصول أحكامها من تقسيم المعاملات، وأفاض في البيع وما يتوقف عليه في هذه المقدمة العميقة في بحوثها.

قال الشيخ وفقه الله :

«الأحاديث الواقعة في البيوع، هاهنا كثيرة، ونحن نقدم فصلا حسنا يشتمل على عقد جيد، وتطلع منه على أسرار في الشرع، فاعلم أن العرب لبلاغتها وحكمتها وحرصها على تأدية المعاني إلى الأفهام بأدنى ضروب الكلام تخص كل معنى بعبارة، وإن كان مشاركا للآخر في أكثر وجوهه، فلما كانت الأملاك تنتقل على أيدي مالكيها بعوض (وبغير عوض سموا المنتقل بعوض بيعا، فحقيقة البيع نقل الملك بعوض) ولكن المعاوضة إن كانت على الرقاب خصوها بتسمية البيع، وإن كانت على المنافع خصوها بتسمية الإجارة، إلا أن تكون المنافع منافع الفروج،

---

2) الغنية ص 132.

3) وسيخرج الجزء الأول منه عن قريب بتحقيق كاتبه، والثاني بإثره إن شاء الله تعالى.

4) الغنية ص 132 - 133.

5) ولنا بحث في ذلك يخص الموطأ وأنه مفتاح باب الاجتهاد ألقي في القاهرة في السنة الماضية.

6) المقدمة ج 1 ص 67.

فخصوها أيضا بتسميتها نكاحا، وإذا علمت حقيقة البيع ومعاني هذه التسميات فاعلم أن البيع يفتقر إلى أربعة أركان :

أحدهما[7] متعاقدان أو من في معناهما، وقولنا من في معناهما[8] احتراز من أب عقد على ولديه أو وصي على يتيميه[9].

والثاني معقود به.

والثالث معقود عليه.

والرابع العقد في نفسه.

فأما المتعاقدان : فمن حقهما أن يكونا مطلقي اليد والاختيار، فقولنا يكونا مطلقي اليد احتراز[10] لمن يحجر عليه، وهم أربعة أصناف :

أحدهم[11] من يحجر عليه لحق نفسه، وهو السفيه ويدخل فيه المجنون والصغير والعاقل البالغ الذي لا يميز أمور دنياه.

والثاني : من يحجر عليه لحق غيره ممن يملك أعيان ما في يديه كالسيد مع عبده.

والثالث : من يحجر عليه[12] لمن يخاف أن يملك عين ما في يديه، كالمريض مع ورثته، وقد تلحق به الزوجة مع زوجها، والمرتد مع المسلمين.

والرابع : من يحجر عليه لحق من يملك ما في ذمته، كالمديان مع غرمائه، ولكن طريق الحجر يختلف[13] مع هؤلاء، ويستقصى كل[14] فصل في موضعه إن شاء الله.

فالسفيه يمنع من البيع رأسا، وكذلك العبد إذا شاء سيده، وكذلك المرتد والمديان إذا ضرب على أيديهما، والمريض والزوجة يمنعان إذا حابيا محاباة تزيد على ثلثهما، وعندنا اختلاف في السفيه إذا كان مهملا؛ فقيل تمضي بياعاته، وقيل ترد إن كان ظاهر السفه وتمضي إن كان خفيه[15]، وكان المحققون من شيوخنا يختارون الرد، لأن السفيه المحجور يرد بيعه اتفاقا، فكأن المحققين رأوا أن الرد من مقتضى السفه، فردوا أفعال المهمل، ورأى بعض أصحاب مالك الرد من مقتضى الحجر، فأجازوا أفعاله إذ لا حجر عليه، والأصح عند شيوخنا أنه من مقتضى السفه؛ لأن الحجر كان عن السفه ولم يكن السفه عن الحجر.

وإذا كان الحجر عن السفه ومن مقتضاه وجب أن يكون الرد في السفيه المحجور عليه لأجل السفه، لا لأجل الحجر، وكان شيخي رحمه الله يقول : فإن السفه علة في رد الأفعال، بدليل الاتفاق على رد أفعال الصغير والمجنون ومن بلغ سفيها ولم يبلغ الخمسة وعشرين[16] عاما، فإن الاتفاق على رد فعل هؤلاء إذا كانوا في الحجر، وإذا ثبت رشد السفيه وجب تسليم ماله إليه، فدلّ ذلك على إن العلة وجود السفه، والعلة حيث ما وجدت اقتضت حكمها، هذا المعنى الذي كان يشير إليه، وكذلك اختلف المذهب في المحجور عليه إذا رشد ولم يفك الحجر عنه، هل تمضي أفعاله، وهو عكس السفيه المهمل، والنظر عند شيخنا يقتضي جواز أفعاله لوجود علة الجواز وهي الرشد، وارتفاع علة الرد وهي السفه، وهكذا يجري الاختلاف في المرتد إذا باع قبل الحجر عليه قياسا على السفيه المهمل.

والرشد عندنا المطلوب هاهنا في تدبير الدنيا وإصلاحها، لا[17] في إصلاح الدين، وقال بعض أصحابنا بل الرشد إصلاحهما جميعا، والأول أولى إذا كان الفاسق ممسكا لماله منميا له لا يتلفه في المعاصي، ولا أعظم فسقا من الكافر، وفسقه لم يوجب رد بياعاته إذا تحاكم إلينا وقد باع على الصحة من مسلم، وقد حدّ ﷺ الزناة، وقطع السراق، وضرب شراب الخمر، ولم ينقل إلينا أنه ﷺ حجر عليهم، وهذا هو الأصح لهذا الذي قلناه ولغيره[18].

---

7) في جميع النسخ «أ» و«ب» و«ج» أحدهما وهو ما أثبتناه والصواب أحدها.

8) في «ب» أو من معناهما.

9) في «أ» ووصي عقد ليتيميه.

10) في أ و ب احترازا.

11) في ب أحدها.

12) في ب لمن يحجر عليه لحق غيره كمن.

13) في ب وج ولكن طرق الحجر تختلف.

14) في ب وج ونستقصي.

15) في ب وج إن كان خفيا.

16) في ب والعشرين.

17) الساقطة من أ.

18) ولغيره ساقط من ب.

وأما قولنا مطلق الاختيار فلأن المكره المقصور الاختيار لا يلزمه عقده، لأن الله سبحانه أباح إظهار كلمة الكفر للإكراه، فدل على أن الإكراه يصير المكره كغير القاصد، ومن لا قصد له لا يلزمه بيعه، وقد ألزمه المخالف طلاقه وعتقه، وهذا التعليل يرد قوله، ويرده أيضا قوله ﷺ «رفع عن أمتي خطؤها ونسيانها[19] وما استكرهوا عليه».

وأما السكران فإن الحدود تلزمه، وقد حكى بعض الناس الإجماع على أنه إذا قتل قتل، وقال بعض الناس إنما فارق المجنون في ذلك، لأنه متعد في شرب ما أزال عقله، ومكتسب لما أدى إلى ذلك، فكانت أفعاله كأفعال المكتسب القاصد، وقال بعضهم : فإن رفع التكليف عن المجنون رخصة وتخفيف، وهذا عاص بشربه، والعاصي لا يرخص له، وأما عقوده فإن كان طلاقا أو عتاقا فالمشهور عندنا لزوم ذلك، لأن ذلك من ناحية الحدود فألحق بها في الحكم، وقد رويت عندنا رواية شاذة في طلاقه أنه لا يلزم، قياسا على المجنون. وسلم بعض أصحابنا أنه لو صُبَّ في حلقه الخمر حتى ذهب عقله أن طلاقه لا يلزم حينئذ؛ لأنه غير متعد في الشرب، وأما بياعاته ففيها عندنا قولان :

جمهور أصحابنا على أنها لا تلزمه، لأنه بسكره يقصر ميزه[20] في معرفته بالمصالح عن السفيه، والسفيه لا يلزمه بيعه، وإن كان يقام الحد عليه كما يقام على السكران.

وذهب بعض أصحابنا إلى أنه تلزمه بياعاته كما تلزمه الحدود، وأما هباته فتجري على القولين في بياعاته، هذا حكم أحد الأركان، وهما المتعاقدان.

وأما المعقود به والمعقود عليه : فحكمهما واحد، وإنما تحسين التقسيم أدى إلى إفرادهما بالذكر، وإلا فكل معقود به معقود عليه، فيجب أن تعلم أن ما لا منفعة فيه أصلا لا يجوز العقد به ولا عليه، لأن ذلك يكون من أكل المال بالباطل، ولم يقصد باذل ما ينتفع به إلى الهبة فيجوز له، وهذا الذي لا منفعة فيه أصلا لا يصح ملكه إذا كان مما نهي الشرع عن تملكه؛ كالميتة والدم ولحم الخنزير، إلا أن الخمر إذا أجزنا تخليلها فقد سهِّل في إمساكها للتخليل بعض أصحابنا، وأما ما فيه منفعة مقصودة فلا يخلو من ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون سائر منافعه محرمة.

والثاني : أن تكون سائر منافعه محللة.

والثالث : أن يكون بعضها محللا وبعضها محرما.

فإن كانت سائر منافعه محرمة صار هو القسم الأول الذي لامنفعة فيه؛ كالخمر والميتة.

وإن كانت سائر منافعه محللة جاز بيعه إجماعا : كالثوب والعبد والعقار والثمار وغير ذلك من ضروب الأموال.

وإن كانت منافعه مختلفة فهذه المواضع المشكلة الأفهام، ومزلة الأقدام، وفيه ترى العلماء يضطربون، وأنا أكشف لك[21] عن سره إن شاء الله ليهون عليك اختلافهم فيه.

فاعلم أنه تقدم لك أصلان :

جواز البيع عند تحليل سائر المنافع.

وتحريمه عند تحريم جميعها.

وإذا اختلف عليك فانظر؛ فإن كان جل المنافع والمقصود منها محرما حتى صار المحلل من المنافع كالمطرح، فإن البيع ممنوع، وواضح إلحاق هذا بأحد الأصلين المتفق عليهما، لأن المطرح من المنافع كالعدم، وإذا كان كالعدم صار كأن الجميع محرم، وإن كان الأمر بعكس ذلك كان الحكم بعكسه، وهو أن يكون المقصود من المنافع وجلها مباحا والمحرم مطرحا في المقصود، فواضح إلحاق هذا بالأصل الثاني، وهو ما حل سائر منافعه، وأشكل من هذا القسم أن تكون فيه منفعة محرمة مقصودة مرادة وسائر منافعه سواها محلل مقصود، فإن هذا ينبغي أن يلحق بالقسم الممنوع، لأن كون هذه المنفعة المحرمة مقصودة تؤذن بأن لها حصة من الثمن، وأن العقد اشتمل

---

19) في ب الخطأ والنسيان.

20) في ب تمييزه.

21) أصلا ساقط من ب.

عليها كما اشتمل على سائر المنافع سواها، وهو عقد واحد على شيء واحد لا سبيل إلى تبعيضه، والتعاوض على المحرم منه (ممنوع، فمنع الكل لاستحالة التمييز، وأن الباقي من المنافع المباحة يصير ثمنه مجهولا)[22] لو قدر جواز انفراده بالتعاوض[23]، وربما وقع في هذا النوع مسائل تشكل على العالم فيلحظ المسألة بعين فكرته؛ فيرى المنفعة المحرمة ملتبسا أمرها، هل هي مقصودة أم لا ؟ ويرى ما سواها منافع مقصودة محللة، فيمتنع من التحريم لأجل كون المقصود من المنافع محللا، ولا ينشط لإطلاق الإباحة لأجل الإشكال في تلك المنفعة المحرمة، هل هي مقصودة أم لا ؟ فيقف هاهنا المتورع ويتساهل آخر، فيقول بالكراهة ولا يمنع ولا يحرم، ولكنه يكره لأجل الالتباس، فاحتفظ بهذا الأصل فإنه من مذهبات العلم، ومن قتله علما هان عليه جميع مسائل الخلاف الواردة في هذا الباب، وأفتى وهو على بصيرة في دين الله تعالى، ويكفيك من أمثلة هذا الباب على اتساعها وكثرتها ما وقع لأصحابنا من الاختلاف في بيع كلب الصيد، فإنه من لم يسمع فيه حديثا بالنهي عن بيعه، واستعمل هذا الأصل خرج له حكمه منه، فيقول في الكلب من المنافع كذا وكذا ويعدد سائر منافعه، ثم ينظر هل جميعها محرم ؟ فيمنع البيع، أو محلل فيجيز البيع، أو مختلفة فينظر هل المقصود المحرم أو المحلل ؟ ويجعل الحكم للغالب على ما بسطناه، أو تكون منفعة واحدة محرمة خاصة وهي مقصودة، فيمنع على ما بيناه، أو ملتبس كونها مقصودة، فيقف أو يكره على ما بيناه، والعرض على هذا الأصل هو سبب اضطراب أصحابنا فيه، وكذلك بيع النجاسات ليزبل بها النبات ما وقع فيه في المدونة وفي الموازية، ولابن القاسم ولأشهب على هذا الأصل يعرض، ومنه يعرف الحق فيه، وقد نبه ﷺ بأحسن عبارة وأقرب اختصار على هذا المعنى الذي بسطناه بقوله ﷺ في الخمر «إن الذي حرم شربها حرم بيعها»، ومن كلامه ﷺ هذا اقتضبنا هذا[24] الذي هو الأصل العظيم، وذلك أنه أشار إلى أن المنفعة المقصودة من الخمر هي الشرب، لا أكثر، فإذا حرمت حرمت المعاوضة، لأن المشتري منعه الشرع من الانتفاع بها، فإذا بذل ماله وهو مطيع للشرع في أن لا ينتفع بها، فقد سفه وضل رشده، وصار من أكل المال بالباطل، وهكذا أيضا نبّه على هذا في الحديث الآخر الذي (لعن فيه اليهود لما حرم عليهم الشحم فباعوه وأكلوا ثمنه)، لأن الشحم المقصود منه الأكل، فإذا حرم حرم الثمن، وهذا من وضوحه كاد يلحق[25] العقليات، ولهذا قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم/ الحديث.

وقد نبه ﷺ على القسم الآخر المشكل لأنه لما قيل له في شحم الميتة : يا رسول الله إنا نطلي بها السفن؛ فأورد ما دل على المنع من البيع ولم يعذرهم بذلك، ولا أباح البيع لاعتلالهم له بحاجتهم إليه في بعض المنافع، هذا على طريقة من يجيز استعمال ذلك في مثل هذه المواضع، فتكون بعض المنافع محللة، ولكن المقصود الذي هو الأكل محرم، فلم يرخص في البيع لذلك، ويلحق بهذا المعنى بياعات الغرر، لأنه قد لا يحصل المبيع فتصير المعاوضة على غير منتفع به، ويلحق بالقسم الأول الذي هو المعاوضة على ما لا منفعة فيه أصلا، وقد تقدم، ولكن ذلك لكون عدم المنفعة فيه تحقيقا، وهذا عدم المنفعة فيه تقديرا وتجويزا.

وأما العقد : فمن شرطه أن يخلص عن المنهيات كلها، وهي محصورة فيما تقدم، وفيما شذ منه مما يرجع إلى أصول أخر، كالنهي عن العقد عند صلاة الجمعة، إلى غير ذلك مما ننبه عليه إن شاء الله، عند وروده في أحاديث هذا الكتاب، ويستقصى[26] كل فصل في موضعه، إن شاء الله».

23) لك ساقط من أ.
24) ما بين المعقفين ساقط من ب.
25) في ب بالعوض وهو تحريف.
26) في ب اقتضينا بالياء المثناة من أسفل.
27) في ب كاد أن يلحق وهو نزر في كاد.
28) في ب ونستقصي.

من نوادر المخطوطات المغربية في التصوف :

"وصول العبد بالسمو..."

المنسوب لأبي يعقوب البادسي

للأستاذ سعيد أعراب

من رجالات التصوف بالمغرب في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي ـ أبو يعقوب البادسي.

والذي دعاني إلى الكتابة في الموضوع، شيئان :

أحدهما : قولة ابن خلدون : «إنه أكبر الأولياء وآخرهم بالمغرب»[1].

وثانيهما : أني عثرت على مخطوطة عند بعض الكتبيين تحمل عنوان : «وصول العبد بالسمو، إلى محل القدس العلو» ـ منسوبة إليه.

ولشد ما كانت دهشتي، وإن شئت قلت فرحتي ـ بهذا الكتاب ! فتلقيته بكلتا اليدين، وألقيت عليه نظرة، ثم وضعته في إحدى زوايا مكتبتي ـ حتى كدت أنساه !.

وفي إحدى جولاتي بمكتبة البادية ـ وقد ألح علي بعض الزملاء أن أعود إليها ـ وقد طال عهدي بها ـ وقع الكتاب في يدي مرة ثانية، فأحببت أن أقدمها إلى القراء الكرام ـ بعد التعريف بمؤلفه.

فمن أبو يعقوب ؟.

اسمه ونسبه :

هو يوسف بن محمد بن عبد الله بن علال بن منصور ابن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن تميم الزهيلي[2]، الشهير بابن الغماز[3].

والزهيلي نسبة إلى زهيلة : بطن من بطون قبيلة نفزة ـ كما يذكر ابن خلدون[4].

وابن الغماز لقب على أحد أجداده.

وزاد ابن القاضي في نسبه : **المغراوي**[5]، ولعله التبس عليه بأبي يعقوب ـ دفين مغراوة، وهو شخص ثان غير أبي يعقوب البادسي ـ كما نجد ذلك في وثائق البو يعقوبيين الشرفاء الذين استوطنوا تطوان وبعض جنات الريف[6].

وهناك أبو يعقوب ثالث ـ وهو بادسي أيضا، أصله من قصر كتامة (القصر الكبير) ـ بالهبط، استوطن بادس وبها توفي، ويعرف بابن الشقاف ـ وهو أكبر من صاحبنا، ترجمه صاحب المقصد الشريف[7].

وذهب بعض الباحثين إلى أن أصل أبي يعقوب ـ مترجمنا ـ من غرناطة، انتقل أسلافه إلى بادس لأغراض ذكرها[8]؛ وهو يتناقض مع ما أورده ابن خلدون من نسبته إلى زهيلة أحد بطون نفزة البربرية ـ كما أسلفنا آنفا.

على أن الأوربي - مؤلف مناقب أبي يعقوب - يذكر أن أسرة المترجم عريقة في القدم ببادس، لجأ إليها فقيه المالكية عبد الملك ابن حبيب في حدود أوائل القرن الثالث الهجري، فقامت على خدمته، وبالغت في إكرامه؛ قال :

«ولا يزال البيت الذي كان به سكناه قائما حتى الآن - يعني أواخر المائة الثامنة للهجرة - ولم يتغير منه إلا سقفه»[9].

وكان أبو يعقوب يقول : لقد نالتنا بركة دعاء هذا الشيخ - ولله الحمد -.

فلم ينقطع من بيتهم العلم والفضل - منذ ذلك التاريخ[10].

مولده وتعلمه :

ولد أبو يعقوب ببادس[11] يوم الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة عام أربعين وستمائة (640 هـ)، وبها نشأ وتعلم.

ومن شيوخه :

العالم الورع القاضي أبو الوليد إسماعيل بن أحمد الخزرجي والد مؤلف «المقصد الشريف»[12]، قرأ القرآن عليه وحفظه، وجوده بحرف نافع[13].

ودرس العربية والأدب واللغة على أبي قاسم الأندلسي[14]، ثم على الطنجي[15].

وقرأ الرسالة وتهذيب البرادعي على أبي زكرياء الجعوني[16]، وأبي إبراهيم الأعرج[17]، ورحل مع هذا الأخير إلى فاس - لإكمال تعليمه العالي، فنزل بمسجد سيدي إبراهيم الكائن بقصر البليدة بالغرفة التي بقبلي المسجد[18].

ومن شيوخه بفاس - قاضيها وإمام الفريضة بجامع القرويين : أبو جعفر أحمد بن الشيخ الفقيه أبي عبد الله المزدغي[19]، قرأ عليه موطأ مالك[20].

انقطاعه للخلوة والعبادة :

وبعد أن عاد أبو يعقوب من فاس - وقد حصل ما قدر له من العلم - تاقت نفسه إلى الخلوة والتحنث،فاعتزل بالرابطة التي على ساحل البحر - خارج مدينة بادس، وأخذ في المجاهدة والعبادة والانقطاع إلى الله[21] تعالى.

ومن شيوخ التصوف الذين أخذ عنهم في بداية أمره : أبو يحيى الشامي - وهو من تلاميذ أبي الحجاج يوسف الأقصوري[22]، فنزل على أبي يعقوب بالرابطة، وأقام على تربيته وتهذيبه - في جماعة من المريدين تواردوا على الرابطة من مختلف الجهات[23].

وكان أبو يعقوب - في خلوته - لا يرجع إلى المدينة، إلا يوم الجمعة للصلاة مع الناس وزيارة والديه[24].

أسرته :

والده : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علال الشهير بابن الغماز، لا نعرف عنه شيئا، وكل ما يقال : إن سلف أبي يعقوب، كانوا من أهل الفضل والصلاح[25]، وأمه كريمة يعقوب بن أبي بورتجين من الأسر البادسية[26].

وكان لأبي يعقوب أخ شقيق اسمه أحمد - وهو أصغر منه - وربما لم يخلف والده سواهما، وكان من الزهاد الورعين، المتبتلين الخائفين؛ تنازل لأخيه الأكبر أبي يعقوب عن نصيبه في ميراث أبيه، ثم رحل إلى المشرق، وحج تسع حجج، قضى أكثر حياته مجاورا بالحرم الشريف، وكان يحترف الخياطة، ومنها كان عيشه؛ وتوفي هناك، ترجمه صاحب المقصد وقال في حقه :

(السابق في حلبة العراب، المؤثر المجاورة والاغتراب، المبرز في انقطاعه عن الأقران والأتراب..)[27].

خرج أبو يعقوب إلى ميدان الحياة، فتزوج ابنة خالة له تدعى «زهرة»، وولد له منها ولد أسماه : «عبد الله» - على إسم جده[28].

ويحدثنا أبو يعقوب عن قصة زواجه فيقول :

«يعلم الله أني ما كنت أردت أن أتزوج حتى ألح علي والداي فقالا لي : إن لم تتزوج، فأنت مخالف لنا؛ فقلت - إن كان ولابد «وقد عزمتم» على تزويجي من ابنة خالتي بالبادية - فأنا أعلم أن أهل البادية، أقل دينا من أهل الحاضرة؛ لكن أمي كانت مصممة على ما أرادت،

فزوجتني من ابنة خالتي، فمكثت ثلاثة أعوام لا ألتفت إليها، ولا أبالي بها؛ وأنا مشغول بأورادي، وبعبادة ربي؛ ولما علمت أمي بذلك، كلمتني كلاما خفت منه»[29] !.

ومن حفائد أبي يعقوب : «أبو الحسن الخطيب»، أدرك جده أبا يعقوب، وكان يخرج معه إلى المقابر، وشاهد منه كرامات ـ وهو بعد ـ حدث[30] !.

ويذكر ابن خلدون من حفدة أبي يعقوب «أبا زكرياء يحيى»، ويصفه بصاحبنا.

ويبدو أنه كان على جانب من المعرفة، وربما لم يدرك جده أبا يعقوب، فهو يروي عنه بواسطة أبيه عبد الله الولد الأكبر لأبي يعقوب[31].

ولعله الذي عناه لسان الدين ابن الخطيب إذ يقول : (ورد علينا التعريف من حفدة ولي الله تعالى أبي يعقوب ـ رضي الله عنه، وأدام رعايتهم ـ بأن فلانا الثائر وصل إلى بادس هو وولده[32])...

وهذا يدل على أنهم كانوا على صلة بالسلطة الحاكمة آنذاك.

أبو يعقوب ومذهب أبي العباس السبتي :

كان أبو يعقوب على شبه مذهب أبي العباس السبتي، يرى : أن الوجود، ينفعل بالجود.

فإذا تعلق به شخص في غرض دنيوي، يقول له :

«تصدق على الفقراء والمحتاجين، تقض حوائجك».

وكان الناس يلجأون إليه في حوائجهم ـ على اختلاف طبقاتهم ـ ويستشفعون به لدى ذوي الجاه والسلطان؛ فيتصرف فيهم بهمته، فلا يكادون يردون عليه مرغبا، أو يرفضون له مطلبا.

احتشدت جماعة من التجار على رصيف مرفا بادس ـ يريدون السفر بتجارتهم إلى عدوة الأندلس، فلم يجدوا مركبا، وطال بهم الانتظار؛ فجاءت سفن حكومية تنقل الجنود والمتطوعة إلى ساحة القتال بالجزيرة الأندلسية، فطلب التجار من الشيخ أن يتوسط لهم لدى القائد حتى ينقلهم في جملة ما ينقل من مؤن وعتاد حربي؛ فكلمه في ذلك، فأبى؛ فاتجهت همته إليه، فلم يلبث أن جاءه الأمر من السلطان بنقل كل من كان هناك من التجار؛ فحمدوا للشيخ مسعاه، ورأوا ذلك من بركته، ونفوذه الروحي؛ وكم له في هذا الباب من مبرات، وما شوهد له من كرامات[33]... !

ولاعتقاد الناس في أبي يعقوب، كانت داره دار أمانة وودائع، وقعت فتنة ببادس عندما تغلب العرب عليها، فخرج الناس إلى البادية بأنفسهم وأولادهم، وتركوا أموالهم وأمتعتهم بدار الشيخ[34]، فكان يخرج ليلا يتفقدها ـ وهو يقول :

«اللهم احرسها بعينك التي لا تنام، واحفظها في كنفك الذي لا يضام..» !.

اهتمامه بما يجري في الأندلس :

كان أبو يعقوب كثير الاهتمام بما يجري في الأندلس من حروب بين المسلمين والنصارى، قال لزوجته زهرة يوما :

«يا زهرة، وقعت غزوة بالأندلس مثل فتوح الشام» ـ.

ويعني بذلك وقعة المنكب التي انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما ! وكانت أخبار هذه الجهات تصله من حين لآخر، لشدة اتصال بادس بها تجاريا؛ فالرحلات بين البلدين لا تكاد تنقطع بحرا، وكانت القرصنة الإسبانية تلعب دورها الخطير في هذا الميدان؛ وكان التجار يتيمنون بدعاء الشيخ في غدوهم ورواحهم، فلا يكاد يخرج قارب للتجارة إلا بإذنه واستشارته؛ وكان الشيخ يشجع الناس على الجهاد، ويحضهم على الموت في سبيل الله[35] !.

هاجم النصارى يوما مدينة بادس، فخرج الناس لقتالهم، وأبلوا البلاء الحسن، فردوهم على أعقابهم، وكان ممن استشهد في هذه الموقعة ـ قائد القصبة : «يوسف بن قياس»، فدفنه الشيخ بيده، وقال في تأبينه :

«إنه رجل مسعود»[36] !.

بين سبتة وبادس :

كانت الحركة دائبة بين بادس وسبتة - برا وبحرا، وكان رجال الفكر يتبادلون الزيارات من حين لآخر؛ ومن رجالات سبتة الذين توافدوا على بادس لزيارة أبي يعقوب والتبرك به، «أبو البركات ابن الحاج البلفيقي» - وهو من أهل المرية، استوطن سبتة مدة، وكان كما يقول ابن خلدون - :

«من شيوخ الفقه والحديث، ورجال الأدب والتصوف...»[37].

ولم يكن يستسيغ ماء بادس لملوحته، ويقول لبعض أصحاب أبي يعقوب - «ابغوا لي مويها حلوة»، فيقول له الشيخ : «لابد أن تشرب من مائنا»، فيأمرهم أن يستقوا له من البئر التي يشرب منها كل الناس[38].

وممن شد الرحال لزيارته : الأستاذ «أبو عبد الله محمد بن محمد الخضار السبتي»، قدم هو وتلميذه الفقيه «أبو البقاء يعيش بن سعيد»، فطلبا منه أن يضع خط يده على إجازة لهما، فتوقف مدة حتى هما بالإنصراف؛ فكتب لهما أسفل الصك :

«بشرى لحملة القرآن، برحمة من الله ورضوان، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما[39]».

ففرحا بذلك، وكان لذلك التوقيع صداه البعيد في الأوساط الثقافية، وفي المجتمعات والأندية[40].

رحلة أبي يعقوب إلى المشرق :

لم يكد يبلغ أبو يعقوب الخامسة والستين من عمره - حتى عقد العزم على أداء فريضة الحج، وأن يقوم بسياحة في أقطار المشرق - وخصوصا أرض الكنانة التي هي موطن الزهاد والعباد؛ وقد حط الرحال بها كثير من رجالات المغرب الذين كان لهم مقامهم في المعرفة والتصوف، أمثال : أبي محمد القنائي[41]، وأبي العباس البدوي[42]، وأبي الحسن الشاذلي[43]، وسواهم.

وكان خروج أبي يعقوب من بادس في محرم عام خمسة وسبعمائة (705 هـ)، وقد تواردت عليه وفود الطلبة والفقراء من البادية لتوديعه والسلام عليه؛ بينما رافقه في رحلته زمرة من أصحابه - وفيهم خديماه : أبو زكرياء الشاكري، وأبو الحسن ابن مغيث».

وكان طريقهم على الجزائر، فركبوا من مرفا بجاية، ويحدثنا أبو زكرياء الشاكري عن رحلة أبي يعقوب فيقول : ما ترك الشيخ شيئا من أوراده كلها : لا صلاة ولا صوما ولا قراءة قرآن، ولا شيئا مما كان يفعله - وهو مقيم، وما نزل في بلدة ولا قرية ولا مفازة، إلا ويهيئ الله من يخدمه ويقضي حوائجه، على أنه لم يكن يحتاج إلى شيء غير الماء والمأوى، قال أبو زكرياء : ولم أزل أحمل ركوة الشيخ منذ أن خرجنا، ومهما احتاج إلى وضوء، نزل عن ظهر البعير وتوضأ؛ وإذا سألني أحد أن يشرب من الركوة أعطيته، لكون الشيخ أمر بذلك؛ قال : ولم يزل صائما مدة سفره إلا أيام العيد ويوما بين مكة والمدينة كان أصاب الناس فيه حر شديد، ومات منهم نحو ألفين أو تزيد[44] !.

ونزل أبو يعقوب بمصر، والتقى هناك برجل من أهل الفضل والصلاح يعرف بالجمال، وكان يحمل إليه كل يوم غريفين؛ وكان أكثر صلاة أبي يعقوب بمسجد عمرو بن العاص، وكان أهل العلم والفضل يزورونه ويتبركون به؛ ويذكر أبو يعقوب أنه جاءه شيخ يستأذنه في القراءة عليه فأذن له، فقرأ عليه القرآن بالسبع والشواذ، وكان يتكلم في التفسير ومعاني القرآن، ويعترف أبو يعقوب أن الرجل كان يخوض في مسائل لا إلمام له هو بها، وأنه أراد بقراءته التبرك فقط[45] - والقوم شغوفون بالرواية عن المشايخ - وخصوصا الرُّحل منهم.

ولما دخل أبو يعقوب مكة المكرمة، انقطع للعبادة، وكان يقضي الليل كله في الطواف؛ قال خديمه أبو زكرياء : وما رأيته نام ليلا قط ! وكان يخرج بالنهار لزيارة المقابر، ويترحم على أخيه أحمد - دفين مقابر باب المعلا[46].

ثم عاد أبو يعقوب إلى مصر - ولم تطل إقامته بها، فركب من ميناء الأسكندرية متجها إلى المغرب، ولم يكد يصل إلى مرسى ابن غازى حتى تحطم المركب، وحاول

الركوب مرة أخرى فلم يوفق، ففهم عن الله، ثم عاد إلى مصر وحج ثانية[47].

شخصيته :

كان لأبي يعقوب شخصية قوية، ونفوذ روحي، يتجلى ذلك في إقبال الناس عليه، والتفافهم حوله؛ - وسواء في ذلك القوي والضعيف، والغني والفقير؛ وكان له نفوذ خاص على ذوي الجاه والسلطان، وكذلك كان شأنه في تغيير المنكر، وعند اشتداد الأزمات.

وقعت فتنة بين قبيلة بقيوة وبني يشغف، فكانوا إذا هموا بالقتال، دعاهم إلى الصلح، فلا يردون له قولا[48].

وكان أبو يعقوب مواظبا على قراءة القرآن وتفهم معانيه، شديد الاتباع للسنة؛ متقللا من الدنيا، مجتزئاً باليسير منها؛ لم يتول بناء ولا غرسا، ولا اكتسب شيئا، وكان عيشه من ميراث أبيه الذي ورثه عن أسلافه الصالحين[49].

وكان بشوشا يبسط وجهه ويده لكل من لقيه أو اجتمع به؛ كثير الحدب على الأرامل والأيتام والفقراء والمساكين : يتفقد أحوالهم، ويسعى في حاجاتهم، وكانت داره لا تكاد تخلو منهم - ولا سيما أهل البادية الذين كانت لهم صلة بزوجته «زهرة»؛ وكان كثير البرور بحملة القرآن، يترددون عليه في بيته ويسلك ألواحهم (يصلحها)، وكانت له عرصة يجلس فيها لتعليم كتاب الله[50].

ومن عادته أنه يخرج كل جمعة لزيارة المقابر ويترحم على أهلها - سواء من عرف منهم أو من لم يعرف؛ ويرى أن من حقهم علينا أن نزورهم وندعو لهم - وذلك إحسان منا إليهم - والله ذو الفضل العظيم[51].

وكان إذا دخل شهر رمضان لا يكلم أحدا، ويلتزم معتكفه طيلة الشهر؛ وهو في أوقاته كلها كأنه في غيبة عن الناس، لا يكاد يعرف من أمور دنياهم شيئا[52] !.

ومن أوراد أبي يعقوب أنه إذا صلى الصبح، لا يتكلم حتى يصلي صلاة الإشراق، وإذا صلى العصر، لا يتكلم حتى تغرب الشمس ويفطر - إن كان صائما؛ وإذا صلى المغرب، لا يزال في نوافله حتى يصلي العشاء؛ وإذا صلى العشاء الأخيرة، ركع وانصرف[53].

وكان الكتاب المفضل لديه - «إحياء علوم الدين» للغزالي، لا يكاد يفارقه، ويحض أصحابه على مطالعته؛ - وهي شنشنة نعرفها من أخزم، فقد كان أبو الحسن الشاذلي يقول : إني أشهد للإمام الغزالي بالصديقية العظمى[54] !.

ويروى عن بعض الصالحين أنه كان يقول : ما طالع أحد «كتاب الهداية»، وكتاب «منهاج العابدين»، وكتاب «إحياء علوم الدين»، إلا وظهر خيره، وفتح الله على قلبه : **«فإن لم يصبها وابل فطل»**.

وفاته :

توفي أبو يعقوب - عشية ليلة الثلاثاء حادي عشر ربيع الأخير عام أربعة وثلاثين وسبعمائة (734 هـ) عن سن تناهز التسعين[55].

آراء الناس فيه :

تتظافر آراء المؤرخين على إجلال قدر أبي يعقوب، والتنويه بشأنه؛ فقد قال فيه ابن خلدون : إنه كبير الأولياء وآخرهم بالمغرب - كما أسلفنا والولي : من تولى الله رعايته وحفظه، فلا يكله إلى غيره لحظة عين؛ قال تعالى : **﴿وهو يتولى الصالحين﴾** وقال سبحانه - : **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**.

وقال لسان الدين بن الخطيب في حقه - بعد أن ذكر مقامه في الولاية : «إنه الإمام الكبير، والعارف الشهير»[56].

وخصه أبو عبد الله الأوربي - قاضي فاس - بالتأليف، وذكر جملة من مناقبه - وقال فيه :

(هو قطب زمانه، وشيخ أوانه، الولي العارف، العامل المنقطع إلى الله..)[57].

ـ الكتاب المنسوب إليه

أما عن الكتاب المنسوب إليه، فهو رسالة صغيرة تحمل عنوان :

«وصول العبد بالسمو، إلى محل القدس العلو»

ولم نقف على من نسبها إليه، وكل ما لدينا هذه الوجادة التي جاءت على رأس الورقة الأولى من النسخة التي بين أيدينا ـ هكذا :

(بسم الله الرحمان الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، من كلام الولي الصالح سيدي أبي يعقوب البادسي..)[58].

وهي مبتورة الأخير، والموجود منها ثلاث عشرة ورقة من القطع الوسط، كتبت بخط مغربي دقيق، ناسخها غير معروف، أصابت الرطوبة بعض أوراقها فضاعت منها كلمات، والنسخة كثيرة التحريف.

وقد ضمنها مؤلفها مقدمة وسبعة مطالب، تتخلل كل مطلب ـ قصيدة شعرية؛ وهو أسلوب نجده عند التادلي في التشوف، وعبد الحق البادسي في المقصد الشريف.

المقدمة

افتتحها بقوله : الحمد لله الذي نزع وساوس القلوب، وكشف عنها حجبات الغيوب؛ وطهرها من الرذائل، وعزفها الكتاب المكتوب، وأزال عنها كل شيء محجوب؛ فأراها كل مرغوب، وأنطقها بالسر الموهوب، وشرفها بما شرف به كل محبوب، وأوصلها إلى المحل المطلوب، وكلمها بلا حد ولا أمد مضروب..».

وأشار إلى الغرض من تأليف الكتاب، والمباحث التي تناولها فيه، والعنوان الذي اختاره له.

(...) أما بعد.. فإني قد صنفت لكم رحلة قلبية، لا رحلة حسية؛ رحلة معنوية، لا رحلة إنسية، شريفة الوصف، جليلة الوقف؛ قريبة الإنجاز، جميلة الاهتزاز؛ عذبة الألفاظ، لتسهل على الحفاظ؛ مشرقة الإشراق، معطية مستورة الأذواق، ذكرت فيها اجتماع الآبا، وكيف مناكحتهم لببا[59]، وذكرت عشرة مقامات، ومشاهد الرسل والأنبياء أولي العلامات؛ ثم خمس قواعد، وكيف جعلتها مراصد؛ وأضفت إليها اثنين، ليحصل معنى الزوجين؛ وعلوما[60] وسؤالات، ورموزا[60] وإشارات.. وسميتها **«وصول العبد بالسمو، إلى المحل[61] القدس العلو»**.

المطلب الأول :

وتحدث في المطلب الأول عن النشأة الروحية للإنسان، والأطوار التي مرت بها في عالم الغيب :

(..لما نطقت المناهل من الأصلاب الزكية بالتناسل، حتى وصلت إلى صلب والد المعاني، لا والد الأواني؛ والد الأحوال، لا والد الأقوال؛ والد الاتصال، لا والد الانفصال؛ والد الأرواح، لا والد الأشباح؛ والد الأفهام، لا والد الأجسام؛ ـ أن يظهر وجودي، بتخطيط موجودي؛ قصد إلى أم الفكر، لا إلى أم العبر؛ إلى أم السكينة، لا إلى أم الطينة؛ إلى أم القربة، لا إلى أم التوبة، إلى أم المكنة، لا إلى أم المحنة؛ إلى أم الأنوار، لا إلى أم الأغيار؛ إلى أم الانتهاض، لا إلى أم الاقتضاض؛ إلى أم المحبة، لا إلى أم الشهوة؛ فرآها بعين الأنس، لا بعين الإنس؛ بعين القدس، لا بعين الحس؛ فتبين فيها صفاتها الجميلة، ومحاسنها الجليلة، رآها كاملة القد، صقيلة الخد؛ معتدلة الأنف، ثقيلة الردف.. فلما أبصرها الوالد بعين المحافظة، لا بعين الملاحظة؛ قامت فيه شهوة البلاغة، لا شهوة الفصاحة؛ شهوة الفهوم، لا شهوة العموم؛ شهوة المعارف، لا شهوة الزخارف؛ شهوة الأسرار، لا شهوة الأغيار؛ شهوة علوية، لا شهوة حسية؛ فمازجها تمازج الكرامة، لا تمازج الندامة؛ تمازج المكاشفة، لا تمازج المكاثفة؛ فخضعت له خضوع الترفع، لا خضوع التمنع؛ خضوع الانبساط، لا خضوع الاختلاط؛ خضوع المؤانسة، لا خضوع الملامسة؛ خضوع التخشع، لا خضوع التصنع؛ فجامعها مجامعة الملكوت، لا مجامعة الناسوت؛ مجامعة التشرف، لا مجامعة التوقف؛ مجامعة الأمر، لا مجامعة القهر؛ ـ راقما في صفحة لوحها المكرم، نقطة مداد حكمة المعظم؛ فكتب قلم الحبر، في لجة ذلك البحر؛ ـ سر

معاني الإبداع، وشرف إظهار الارتفاع؛ بيد المشيئة الوهبية، وأنامل الصنعة الديمومية؛ ـ تخطيط صورتي المعنوية، وأشكال ذاتي[62] الروحانية؛ وقيل في معناه :

نظرت بقلبي سر أمي ووالـــــــــــدي
فبـــان لسر العقـــل أني لـــواحـــد
فقلت لسر الفهم ـ والفهم ثـــــاقب
من الـوالـــد المبـــدي إلي شـواهـــدي
فقـــال : هـو الكـل الـــذي بظهـوره
بـــدا الكـل كـلا والظهـور بـزائـــد..

فتكونت في مستودع الأرواح، وتغذيت بغير غـذاء الأشباح؛ ـ إلى أن ولـدت سـويـا، وشـاع ذكري سيـا؛ فـاحتضنتني حـاضنـة الكفـالـة، وحرسني حـارس الوكـالـة؛ فشربت لبن العرفان، من ثدي الامتنان؛ فأشفق علي والـدي المكرم، واحتضنتني الوالـدة ذات الـوصف الأعظم؛ ففطمت بعـــل الإنعـام، وطعمت طعـــام الاحترام؛ وسقيت شراب الالتزام، بأكواس الاختتام...).

المطلب الثاني :

وخص المطلب الثاني للحديث عن المقامات العشرة التي على المريـد أن يسلكهـا، فحـاور أهـل كـل مقـام، ووصفهم بما هم عليه في ذلك المقام؛ ومهد لذلك بقوله :

(..فلمـا فهمت وعقلت، ونهيت وأمرت؛ وبلغت الأشـد الأقصى ـ بعـد مـا شـاهـدت أوامري، وأودع عنـدي جـل ذخائري؛ وعلمت فرائض المحافظة، وصليت صلاة المواصلة بمسجد المسامحة، ـ قرب إلي معراج المؤانسة؛ فلمـا رفعني إلى العلو، وأنزلني منزل السمو؛ أطلعني على المقام..).

وينتهي من هـذه المقـامـات، فيصعـد إلى غرف المسرات؛ ويشرف على جمـال الحضرة، فتعترض سبيلـه حجب وأستار، فإذا أزالها شاهـد حضرة الأنوار؛ وعنـد ذلـك يصلي صلاة الوصـال، في محراب الـدنو والاتصال؛ وينشـد بلسان الاعتزاز، لما لحقه من الطرب والاهتزاز :

أصلي ومن لي بـــالصـلاة بيـــاطني
وهـــل هي إلا وصلـــة الأمن للبعـــد
وهـــل هي إلا وصلـــة السر للـــــذي
يقرب من شـــــاء إلى حضرة السعـــد
إلى حضرة القـــدس المقـــدس بسطهـــا
بهـــا النـــو والنـــوار والمـــاء كـــالشهـــد
فنـــوديت اركب للسرور معـــــارج
وهـــل سرنـــا إلا لمعـــارج بـــالـــود...)

ويعبر عن نشوة الفرح عندمـا غمرتـه أنوار الإشراق، ويرتقى إلى مقام المشاهدة :

(..وعندما قدم[63] إلي ما قدم من الخطـاب، طـاشت القلوب والألباب، وطارت الأرواح شوقا إلى الملك الوهاب؛ وتجلت النفـوس بـالأسرار، وانجلت الغيـوم بـالأنـوار؛ وعلت الذوات الروحـانيـة، إلى مشـاهـدة حضرة الربوبيـة؛ فقلت : وأين العرش الذي له الانتهاء، فقيل لي : هو محل الابتـداء، لكن الابتـداء والابتهـاء سواء، إذا حصلت في كل الاستـواء؛ فخـذ على نفسـك، وتـأهب لخلوص سرك، واخرق الحجب والأستـار، وأجل البصر بـالأنوار؛ ولا تعول على هـذا البصر، فـلا يرى إلا البشر؛ ارجع إلى بصر المعنى، فعنـد الرؤيـة تنـاجي قـاب قـوسين أو أدنى؛ فقلت : ومن أين أصـل إلى قـاب قوسين، فقيل : إذا رفعت حجب الكـونين؛ وزلت من طريـق الأين[64]؛ وكنت أنـا لا أنت ـ بـلا إنيـة[65]، وغـابت الحجب والمعيـة، وارتفعت الأسرار بـلا معيـة؛ فقلت : وأين الأستار والحجب التي أرفع، قـال : هـذا أولهـا فلا تجزع؛ ـ وقد فهمتك منك وإليك، فخـذ مني كلامـا أظهرتـه إليـك؛ فنطقت به مـرورا، وبينته مـسطورا ـ.

(أبيات من الملحون) :

أهـــــديت لـــــك طريقـــــه
في أصلهـــــا حقيقـــــة
تنـــــل بهـــــا رقيقـــــه
في طيهـــــــــا شي
في طيهـــــا عـــــز أتســـــود
في ذوقهـــــا فهم الـــــوجـــــود
في سرهـــــا أنت الـــــوجـــــود
مـــــا في الـــــوجـــــود ـ غيرك ـ شي

أنت العَلَم الظـــــــــــــــــاهر
والبـــــــــــــاطن البـــــــــــاهر
سبيتهـــــــــــا يـــــــــــا ذاكر
مـــــــــــا الكـــــــــــلام إلا الخفي
في الظـــــــــاهر صـــــــورتـــــــك
مـــــــا في الـــــوجـــــود شبهتــــــــك
في الاعتـــــــدال لقـــــــامتـــــــك
إيـــــــاك تكن عن هـــــــذا عي
وإن نظرت خيرك
في البـــــــــــــاطن عبرك
ففيـــــــــك لليـــــــــك نظرك
إيـــــــــــــــــاك تر غيرك شي

المطلب الثالث :

وأشار في المطلب الثالث إلى الحجب التي تعترض سبيل السالك، وكما يقول الإمام الرازي : إن آخر مقامات السلوك، أول مقامات الوصول :

(..فرفعت كل حجاب تعرض قدامي، وأنا أنادي من أمامي؛ فرفعت حجاب التوبة، فلاح لي توحيد الإنابة؛ فرفعت حجاب الصمت، فلاح لي توحيد الخلوة بالثبت؛ فرفعت حجاب العزلة، فلاح لي توحيد التفضل كله؛ فرفعت حجاب المخالفة، فلاح لي توحيد المجاهدة؛ فرفعت حجاب عيوب الأفعال، فلاح لي توحيد الزهد في المال؛ فرفعت حجاب الورع، فلاح لي توحيد التقوى - ولا ترع؛ فرفعت حجاب العبودية، فلاح لي توحيد الصبر على البلية؛ فرفعت حجاب ترك الشهوات، فلاح لي توحيد التواضع - بالثبات؛ فرفعت حجاب الخوف، فلاح لي توحيد مراقبة الطرف؛ فرفعت حجاب التفكر، فلاح لي توحيد حكمة التدبر؛ فرفعت حجاب الذكر، فلاح لي توحيد الشكر؛ فرفعت حجاب الرجاء، فلاح لي (توحيد)[66] حسن ظن المرتجى، فرفعت حجاب الجود، فلاح لي توحيد السخاء المقصود؛ فرفعت حجاب الإيثار، فلاح لي توحيد حسن الخلق بالاشتهار؛ فرفعت حجاب التوكل، فلاح لي توحيد القناعة بترك الكل؛ فرفعت حجاب التفويض، فلاح لي توحيد التسليم العريض، فرفعت حجاب الثقة، فلاح لي توحيد رضا النعمة؛ فرفعت حجاب اليقين، فلاح لي توحيد الحق المبين؛ فرفعت حجاب علم اليقين، فلاح لي توحيد عين اليقين؛ فرفعت حجاب عين اليقين، فلاح لي توحيد المحبة بغير تلوين؛ فرفعت حجاب الشوق، فلاح لي توحيد الأنس بالرفق؛ فرفعت حجاب الصدق، فلاح لي توحيد إخلاص العتق؛ فرفعت حجاب الفهم، فلاح لي توحيد مقامات أولي الحلم، فرفعت حجاب الإشارات، فلاح لي توحيد الفراسات؛ فرفعت حجاب الكرامات، فلاح لي توحيد انقلاب الأعيان بما هو آت؛ فرفعت حجاب كشف الغيب، فلاح لي توحيد الطمأنينة بلا ريب؛ فرفعت حجاب الاستقامة، فلاح لي توحيد قربة الحلاوة؛ فرفعت حجاب التحلي[67]، فلاح لي توحيد التسلي؛ فرفعت حجاب التخلي، فلاح لي توحيد التجلي، فرفعت حجاب الذوق، فلاح لي توحيد الدوق[68]، فرفعت حجاب التوحيد، فلاح لي توحيد التأييد؛ فرفعت حجاب التفريد، فلاح لي توحيد التجريد؛ فرفعت حجاب الرقائق، فلاح لي توحيد الحقائق؛ فرفعت حجاب الوثائق، فلاح لي توحيد الدقائق؛ فرفعت حجاب المكالمة، فلاح لي توحيد المشاهدة؛ فرفعت حجاب العلو، فلاح لي توحيد الدنو؛ فرفعت حجاب المطالبة، فلاح لي توحيد المخاطبة؛ فرفعت حجاب المؤانسة، فلاح لي توحيد المجالسة؛ فرفعت حجاب الارتباط، فلاح لي توحيد الانبساط؛ فرفعت حجاب المهابة، فلاح لي توحيد المسألة.

بين يدي الحضرة الإلهية :

قال الواصل : فلما رفعت كل حجاب مضروب، ولاح لي توحيد كل شيء موهوب؛ نوديت عند ذلك : أيها المربوب، اقبل - هديت - فدنوت من المطلوب؛ فخاطبني دون كيفية، وقربني دون أنية..

المطلب الرابع :

وتحدث في المطلب الرابع عن مشاهد الأنبياء والرسل، ووقف طويلا عند بعض هذه المشاهد - وهي اثنان وعشرون مشهدا، على عدد الأنبياء والرسل الذين ذكرهم، وقد مهد لذلك بقوله :

(.. سيدي دلني عليك، ويلغني المأمول منك وإليك؛ فقال لي : أليس تقنع بما ألقيت إليك ؟ قلت : وكيف أقنع - والخير مجموع في يديك ؟ فقال لي : وما بقى لك من المقصود، وأنا قد بينت لك في حضرتي كل المقصود ؟ قلت كما وصلتني إلى حضرتك، اعطف علي بمشاهدتك؛ فقال لي : مشاهدتك صحية، ومعارفك نجيحة؛ وهل تدرى ما أمامك ؟ قلت : أنت المنزه مكانك؛ قال : نعم، قلت وصدقت، فحمدته حمدا على قدر ما عرفت؛ ثم قال لي : وهل تدري ما تعرض بيني وبينك ؟ قلت : وفي هذه الحضرة ما يفرق بيني وبينك ؟ فقال لي : تعرضت لك مشاهد الأبوار، المشرقة بالأنوار؛ قلت : وما هذه المشاهد ؟ قال : مشهد كل وارد قاصد، فقلت : ومن هم هؤلاء الوراد ؟ قال الأنبياء والرسل القصاد؛ قلت : وهل تذكر لي مشاهدهم ؟ قال : لولا ما أدري ما ذكرتهم.

فذكر اثنين وعشرين مشهدا - على عدد الأنبياء والرسل الذين ذكرهم؛ أولهم : آدم، وآخرهم : محمد - عليهم الصلاة والسلام؛ وقد جاء ترتيبهم هكذا :

مشهد آدم، - مشهد إدريس، - مشهد نوح، - مشهد صالح، - مشهد هود، - مشهد إبراهيم، - مشهد إسماعيل، - مشهد لوط، - مشهد داود، - مشهد طالوت، - مشهد سليمان، - مشهد يعقوب، - مشهد يوسف، - مشهد موسى الكليم، - مشهد هارون، - مشهد أيوب، - مشهد شعيب، - مشهد زكرياء، - مشهد يحيى، - مشهد عيسى، - مشهد الخضر، - مشهد محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويلاحظ أنه ذكر من بين الأنبياء - الخضر الذي حكى القرآن قصته مع موسى في سورة الكهف، وقد اختلفت آراء العلماء فيه : هل هو نبي، أو ولي، أو ملك.

والجمهور على أنه نبي - كما عند القرطبي في تفسيره[69]، والآية تشهد بذلك : «**وما فعلته عن أمري**»[70].

ولنعرض من بين هذه المشاهد - مشهد آدم - عليه السلام - كنموذج لأسلوب المؤلف في هذا الصدد :

(..تأهب للقدوم عليه، واقعد قعود أدب[71] بين يديه؛ قلت : إلى أي آدم تشير - وهل ثم آدم غير آدم التصوير ؟ قال : نعم، آدم المعاني، وآدم الأواني؛ فآدم المعاني : أبوك من جهة الأرواح، وآدم الأواني أبوك من جهة الأشباح؛ فإن كنت شبحا، لا يليق بك هذا المحل؛ وإن كنت روحا، فأقبل على شرف النزول؛ قلت : أنت أعلم بما أنا، قال : أبشر فلك القرب قد دنا؛ قلت : سمعتك تذكر آدم المعاني، وآدم الأواني؛ فبين لي آدم الأواني، وبين لي خلقة آدم المعاني؛ قال : أما آدم الأواني؛ فقد ذكرت خلقته من التراب، في نص الكتاب، وأما آدم المعاني فمخلوق من خالص اللباب؛ فاسمع - هديت - خلقته المعنوية، ولا تقف مع خلقته الظاهرية؛ الظاهرة للعيوب والفنا، والباطنة للسر والمعنى؛ بما سبق في العلم القديم، والحكم السليم؛ والإرادة الربانية، والحكمة الذاتية، والمشيئة الألوهية؛ والقدرة الفردانية، والعظمة البرهانية، والكلمة الجمعية؛ فقولي : كن، كلمة توكيد للفعل، وقولي : فيكون، كقولك : بسم الله وتفعل؛ فكونت آدم الأرواح، برز في قالب الأشباح : مشكاة الوجود، ذبالة السر الموجود، مصباح الأفلاك، مجلي الأحلاك[72]؛ درة الأسلاك، واسطة عقد الأملاك، نور الصباح، فجر الافتضاح دفتر الكرامة، مرقوم البلاغة؛ رسوم التنبيه، نقط التنويه، معاني الأحكام، مغاني الأفهام؛ أنشأت أعضاءه على الفوائد، هب عليها ريح العوائد؛ هاج منها كل متحرك وجامد، استيقظ منها كل نائم وراقد؛ سكب عليها مطر زائد، فعلت أشجاره كالقلائد، نمت بكل خير زائد، نبتت لا كأشجار التراب، التي تسقى بماء السراب، بل شربها ألذ من كل شراب؛ نبت شجرة كظلام العتاب، أعظمه كشدة الهجريين الأحباب، قامة شجرته تنمى إلى الانتساب؛ رأسه سماء العلى، عينه نور الانجلا؛ سمعه إصغاء

فواتح الأوامر، أنفه نسيم الذخائر؛ لسانه ينطق بكل مكتوم، فاه يتحرك بكل معلوم؛ قلبه يجول في الملكوت، فؤاده يشير لرمز : الحي الذي لا يموت !.

صدره خزانة الأسرار، تحتوي على جميع الأفكار، أيديه تشير للعطاء والمنع، والقبول والدفع؛ أقدامه تشير إلى الخفض والرفع، تحركه تحرك الأمر بالجمع؛ روحه إكسير هذه الوظائف، عقله تسخير هذه المعارف؛ ذهنه ثاقب، يشير للخطب والخاطب، طينته كالطيب الذكي، تفكره يجمع العلوي والسفلي، مقدمه يشرف على الانتهاء، مؤخره علامة الاكتفاء.. كملت صورته للتفهيم، وتروحنت بكلمة التتميم؛ وتبرزخت في أحضان التجسيم، وتشرفت بقول : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾؛ صورة جمانية للعقاب، وذات روحانية للأحباب؛ عتاب للجسم الفاني، محبوب للمحب المتداني، له أسرار ظاهرة، ليست تفهم إلا بالأسرار الباطنة..).

وهكذا يحكى قصة كل نبي أو رسول، ويشير إلى جوانب من حياته المادية والروحية، والحكمة في ذلك..

وجاء في خاتمة هذه الرحلة الملكوتية - وهي تشبه إلى حد بعيد - قصة الإسراء والمعراج - :

(..أنا لرسولك عبد عبد، فكيف إليك يا من لا تحد؛ قال : أبشر، فقد عرفتك ببعض مقاماتهم، وبينت لك مشاهدهم؛ فإن شئت أطلعتك على بعض أسرارهم، قلت : أريد أن تمن علي ببركة أنوارهم؛ ثم قال لي : وهل علمت كيف كانت أحوالهم؟ كيف شربوا من شراب ربهم ؟ قلت : والكل منه[73] شربوا ؟ قال : نعم على قدر ما قربوا؛ قوم شربوا ذلك، وقوم شربوا بين ذلك، وقوم شربوا أقل من ذلك، وقوم شموا روائح ذلك؛ قلت : بين لي كيف ذلك ؟ قال : بقصيد أجريته على لسانك؛ أتعرف خمري على الحقيقة، فما أحلاها لأهل الطريقة ! فابدأ بالقصيد من نفسك، واختمه في قولك، وقم على أقدام التذلل، منشدا بلسان التوسل، قال : فقمت نشوان فرحا أنشده :

شربت بكأس الوجد خمرا فأرواني
فهمنا[74] سكارى لا نثوب لإنسان..)

والقصيدة طويلة في نحو أربعين بيتا، تنتهي النسخة التي بين أيدينا بالبيت الواحد والثلاثين منها؛ ومر بنا أن القسم الأخير من الكتاب قد ضاع، وهو يتضمن :

- المطلب الخامس : خمس قواعد، جعلها مراصد...
- المطلب السادس : علوم وسؤالات.
- المطلب السابع : رموز وإشارات.

مصادره :

والمؤلف متأثر بابن عربي في فتوحاته وفصوصه، وحتى في رسمه وتبويبه؛ فمن أبواب «الفتوحات» :

- معرفة آبائنا العلويات، وأمهاتنا السفليات[75].
- معارف وسؤالات[76].
- حجب ومقامات[77].
- معرفة أسرار الأنبياء والرسل[78].

ومن الأبواب التي ختم بها ابن عربي كتابه «الفتوحات» - :.

- معرفة أسرار وحقائق[79]... وهو من أشرف أبواب الكتاب - كما يقول.

وإذا عدنا إلى كتاب الفصوص، نجده يدور حول حكم وكلمات الأنبياء والرسل السبعة والعشرين من آدم إلى محمد - عليهم السلام، وهو المنهج الذي سلكه صاحبنا في المطلب الرابع (مشاهد الأنبياء والرسل).

ولكنهما يختلفان في العرض، «ولكل وجهة هو موليها».

ونجد أبا يعقوب البادسي يتفق مع ابن عربي - في ظهور المهدي المنتظر، مما يؤكد أنه اطلع في رحلته إلى أقطار المشرق على «الفتوحات المكية»، وأفاد منها.

ولابد أنه قرأ كثيرا من كتاب «الاحياء» للغزالي وخصوصا الجزء الرابع الذي لخص منه مسائل.

كما نجد أثر كتاب «قوت القلوب»[80] ـ لأبي طالب مكي ـ على كتابات أبي يعقوب.

أسلوبـــه :

حاول المؤلف أن يوشي أسلوبه بأكثر فنون البديع، من سجع وتورية وجناس وطباق.. بيد أنه جاء أحيانا متكلفا : مرصوف الألفاظ، لا يكاد يؤدي المعنى المراد؛ وكذلك أكثر شعره، أقل ما يقال فيه : إنه شعر بارد، تنقصه حرارة العاطفة، والسمو الروحي الذي يمتاز به الشعر الصوفي.

وهناك ميزة تطبع أسلوبه يجب أن لا نغفلها ـ وهي هذه الثروة الهائلة من الاصطلاحات الصوفية، فهي تكوّن ـ في حد ذاتها ـ معجما كبيرا في هذا الصدد.

قيمة الكتـــاب :

أما قيمة الكتاب، فإننا لا نستطيع أن نقول الكلمة النهائية في ذلك حتى نطلع على القسم المفقود منه، وذلك رهن بذمة التاريخ !.

والذي نحمده للمؤلف، ابتعاده ـ جانبا ـ عن شطحات ابن عربي في الاتحاد ووحدة الوجود؛ وهو يلتقي مع أبي يزيد البسطامي في قولته : (قال لي الحق يا أبا يزيد، كل الخلق خلقي إلا أنت، أنت أنا وأنت)[81].

ويشايع ابن مشيش في مناجاته وسبحاته : (..وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، حتى لا أرى ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحس إلا بها..)[82].

وبعد : فأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة لأبي يعقوب، وأثرت انتباه الباحث إلى رسالة من نوادر مخطوطات المكتبة المغربية في التراث الصوفي، وعلى الله قصد السبيل.

الهوامش

1) انظر المقدمة ص : 577، والعبر 234/6. كلاهما لابن خلدون.
2) هكذا أورد نسبه الأوربي في مناقب أبي يعقوب (مخطوطة خاصة).
3) كذا عند صاحب المقصد الشريف ص 139.
4) انظر العبر 234/6.
5) انظر «ألف سنة من الوفيات» ـ نشر الدكتور محمد حجي ص 188.
6) ذكر طائفة منهم صاحب «حرب الريف التحريرية» 266/1 ـ 269.
7) انظر ص 94 ـ 97.
8) انظر حرب الريف التحريرية ص 149.
9) مخطوط مناقب أبي يعقوب.
10) المصدر نفسه.
11) مدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، تبعد بنحو 20 كلم من الحسيمة بحرا، أسسها بادس أمير لواتة عام (90 هـ) ـ كما في الترجمانة الكبرى ص 79، واندثرت في حدود أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.
وهم بعض الكتاب فذكروا أنها المدينة التي عناها ابن الخطيب في قصيدته السينية التي مطلعها :
عسى خطرة بالركب يا حادي العيس
على الهضبة الشماء من قصر باديس
وممن وقع في هذا الوهم : محققو أزهار الرياض ج 234/1 ـ ح رقم (2) وتابعهم على ذلك الدكتور إحسان عباس في تعليقاته على النفح ج 476/6 ح رقم (2)، وصاحب حرب الريف التحريرية 157/1 ـ 163، وكاتب مقال : «بادس المجاهدة» المنشور بمجلة «دعوة الحق» س 16 ع. ا ـ ص 100.
والصواب أنه يعني بذلك قصر باديس بن حبوس الصنهاجي أمير غرناطة (ت 465)، انظر الإحاطة 443/1، والنفح 196/1.
12) انظر ترجمته ص 131.
13) مناقب أبي يعقوب (مخطوطة خاصة).
14) ذكره الأوربي في مناقب أبي يعقوب ـ ولم نقف على ترجمته.
15) دفين المصلى ببادس، ذكره الأوربي، وترجمه صاحب المقصد الشريف ص 134.
16) من كبار علماء بادس، قضى بقرطبة أربعين سنة في البحث والدرس، ورجع بعلم جم؛ ذكره الأوربي في مناقب أبي يعقوب، وانظر ترجمته في المقصد الشريف ص : 125 ـ 126.
17) ترجمه البادسي في المقصد الشريف ص 110 ـ 112، وأحمد بابا في نيل الابتهاج ص 110، والكتاني في السلوة 144/3.
18) مناقب أبي يعقوب (مخطوطة خاصة).
19) ذكره الأوربي في مناقب أبي يعقوب، وترجم لوالده صاحب السلوة 38/2.

20) مناقب أبي يعقوب.

21) ولعل الأصل في العزلة والخلوة حديث عائشة : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حبب إليه الخلاء ـ وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ..

أخرجه البخاري في صحيحه. انظر شرح ابن أبي جمرة على مختصر البخاري 9/1 ـ 11، والتمهيد لأبي عمر ابن عبد البر 440/17 ـ 450.

22) انظر ترجمته في طبقات الشعراني 157/1 ـ 158، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني 291/2 ـ 292.

23) مناقب أبي يعقوب.

(24) + (25) + (26) + (27) + (28) + (29) + (30) = نفس المصدر.

31) المقدمة : 588، والتعريف بابن خلدون ـ تحقيق الأستاذ المرحوم محمد بن تاويت الطنجي ص 371 ـ 372.

32) انظر نفاضة الجراب ص 253.

33) مناقب أبي يعقوب.

34) نفس المصدر.

35) نفس المصدر.

36) نفس المصدر.

37) انظر التعريف بابن خلدون ـ تحقيق ابن تاويت الطنجي ص 61.

38) انظر مناقب أبي يعقوب (مخطوطة خاصة).

39) نفس المصدر.

40) نفس المصدر.

41) انظر مقالا عنه لكاتب هذه السطور بدعوة الحق س 10 ع 1 ص 104 وع 2 ص 117.

42) انظر في ترجمته طبقات الشعراني 148/1، والنجوم الزاهرة 258/7، وشذرات الذهب 345/5.

43) انظر طبقات الشعراني 4/2، وخطط مبارك 57/14، والرحلة العياشية 259/2.

44) مناقب أبي يعقوب.

(45) + (46) + (47) + (48) + (49) + (50) + (51) + (52) + (53) + (54) = نفس المصدر.

55) لقط الفرائد لابن القاضي ـ ألف سنة من الوفيات ص 188، ومناقب أبي يعقوب.

56) نفاضة الجراب ص 253.

57) مناقب أبي يعقوب (مخطوطة خاصة).

58) نسخة خاصة في ملك كاتب هذه السطور.

59) لبا : عقلا.

60) في الأصل (وعلوم، ورموز).

61) كذا في الأصل، ولعل الأنسب (محل) ـ بالتنكير.

62) في الأصل (ذات).

63) في الأصل (تقدم).

64) في الأصل (الأينة).

65) يشم من هذه العبارة رائحة الحلول والاتحاد، وربما تشير إلى قولة أبي يزيد البسطامي : (قال لي الحق : كل الخلق خلقي، إلا أنت، أنت أنا وأنت).

66) كلمة (توحيد) ساقطة في الأصل، والمعنى يقتضيها.

67) في الأصل (التجلي) ـ بالجيم، ولعل الأنسب ما أثبته.

68) الدوق ـ بالدال المهملة ـ الهزال أو الحمق، ولعله يعني بذلك أن يصيبه السقم ويغيب عن هذا الكون، لهيامه في محبة الله !.

69) انظر الجامع لأحكام القرآن ج 16/11 وقارنه مع ما لابن كثير في تفسيره 99/3.

70) الآية : 62 سورة الكهف.

71) في الأصل (أديب).

72) في الأصل (درر).

73) في الأصل (منهم).

74) في الأصل : «فهمت سكرانا لاناوي» ـ ولا يستقيم معه الوزن.

75) انظر ج 138/1.

76) انظر 39/2 ـ 118.

77) ج 139/2 ـ 380.

78) ج 149/1.

79) ج 326/4 ـ 444.

80) انظر ج 178/1 ـ 280، وج 2/2 ـ 83.

81) انظر عبد القادر أحمد عطا، دراسة عن روضة التعريف ص 36 ـ ملحق.

82) الصلاة المشيشية بشرح ابن عجيبة (مخطوطة خاصة).

ابن البنّاء المرّاكشي

وكتابه: "تعبير الإسم من البسملة"

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي، المعروف بابن البناء العددي، ولد بمراكش سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية، ونشأ بها، وتلقى العلم في أحضان شيوخها، وتربى تحت رعاية صلحائها، وأخذ جانبا كبيرا من التصوف على يد الفقيه العابد سيدي عبد الرحمن الهزميري[1]، ثم انتقل إلى مدينة فاس، فازدادت معرفته اتساعا، حيث مهدت له الظروف، الالتقاء بعلمائها وأمرائها، فتكاملت شخصيته، وبرزت براعته، سواء في علم الشريعة، أو في علم التفسير، أو في علم اللغة، أو في علم الحساب والفلك، وما يتعلق بهما، وظل على حبه للعلم، وتفانيه في الاشتغال به، إلى أن وافته منيته - رحمه الله - بمدينة مراكش سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

كانت له قوة في التحصيل ناتجة عن زهده في الملذات الفانية، وعن حبه للعلم النافع، فكان يقضي جل أوقاته بين علم يحصله، أو علم يلقنه، ولا يجد اللذة إلا في ذلك، لأن الاشتغال بالعلم يلهي الإنسان عن كثير من المفاسد، خصوصا إذا كانت النفس مهذبة، وكانت الروح طاهرة.

ولقد عمد إلى دراسة أصول العقيدة الإسلامية، وحاول أن يمزجها بروح صوفية، قادرة على استيعاب التصوف الإسلامي، وعلى ربطه بالآراء الفلسفية العامة، وعبر عن ذلك تعبيرا دقيقا في رسالته الموسومة بـ «**مراسم الطريقة في فهم الحقيقة**»[2].

وكانت شهرته الفائقة قد تجاوزت الحدود والآفاق فيما يتعلق بالعلوم الرياضية وعلوم الهيئة، ولقد أبان عن ذلك ابن خلدون في مقدمته؛ حيث ذكر أن كتب ابن البناء في العدد والحساب كان لها أثر كبير في تحقيق الإفادة من هذه العلوم[3]، بل إن ابن البناء قد اكتسب ملكة كبيرة جعلته يبرع في مختلف العلوم، فلقد ذكر المقّري في كتاب «أزهار الرياض» نقلا عن بعض المتأخرين ما يأتي :[4]

«وانتهت صناعة التأليف في علماء المغرب على صناعة المشرق لشيخ شيوخ العلماء في وقته : ابن البناء الأزدي المراكشي، في جميع تصانيفه أوجبه ذلك براءة نسبه من البداوة، وملكته في التصرف التي هي نتيجة تحصيله».

---

1) هو العالم الزاهد أبو عبد الرحمن الهزميري المتوفى بمدينة فاس عام 707 هجرية، كان مشهورا بالفضل والعلم، وكان له أثر كبير في توجيه ابن البناء علما وسلوكا.

2) نشرت هذه الرسالة بمجلة «هدي الإسلام» التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية، عدد 7 من المجلد 28 سنة 1984م، وتولى تحقيقها وإخراجها من أصلها الدكتور صلاح الدين الباهي، الأستاذ المتمرس بجامعة بغداد، والزائر في كلية الحقوق بالجامعة الأردنية، إلا أنه سماها بـ «مراسيم الطريقة»، فجعل المراسيم على وزن مفاعيل كمصابيح مع أنها في الأصل مراسم كمدارس، لأنها جمع مرسم لا جمع مرسوم.

3) انظر «المقدمة»، فقد أشار ابن خلدون إلى كتاب «رفع الحجاب في العلوم العددية» وإلى كتاب «المنهاج في علوم الهيئة».

4) الجزء الثاني صفحة 23.

وليس بدعا من القول أن نرى أمثال هذه التركيبات لابن البناء، وهو العالم الفذ الذي وهب نفسه لخدمة العلم طول حياته، لا يرى للكل معنى، ولا للمعرفة حدودا، يدرس ويناقش ويقارن ويوازن ويعمل ما في مستطاعه ليربط بين القواعد الموروثة وبين معطيات ذكائه، ليستخرج من المعلومات المتداولة شيئا جديدا يستمتع به القارئ، وينتفع به في آن واحد، فأنت حينما تقرأ له؛ تشعر أنك أمام عالم دقيق العبارة، موسوعي المعرفة، يجول في أنحاء الثقافة الإسلامية جولة الخبير الماهر، إلا أنه كان يختار للتعبير عن معانيه أوجز الكلام وأدقه، لأن الغاية التي كان يهدف إليها في كثير من كتبه هي استخدامها للربط بينه وبين طبقة خاصة، هي طبقة المثقفين الذين لهم سابق معرفة بالموضوعات التي كان يتحدث عنها، أما المبتدئون فلهم صنف آخر من المدرسين الذين يتولون تعليمهم وتوجيههم.

ولا ريب أن هذا الاعتبار سيجعل أسلوبه أحيانا غامضا، ولكنه كان يرى أن هذا الغموض نسبي، لأنه لا يشعر به إلا الذين لم يكونوا في مستوى من يكتب لهم، أما الذين اكتسبوا الملكات العلمية. فهم قادرون على فهمه وتتبع أبعاده، ولقد أفصح عن خطته في أبيات قال فيها :[5]

قصدت إلى الوجازة في كلامي
لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم أحقر[6] فهوما دون فهمي
ولكن خفت إزراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأني
وشأن البسط تعليم الصغار

والواقع أن ابن البناء إذا اعتز بكفايته العلمية فإن له الحق في ذلك، لأنه أخذ العلم من رجاله، ولم يكتف باجترار معلوماته، بل أضفى عليها من مواهبه الذاتية ما جعل تلك العلوم مفيدة ومنتجة. فلقد تولى شرحها وتحليلها في كتبه وفي دروسه العامة التي كان يلقيها في حلقات العلم بمدينة مراكش وبمدينة فاس.

وصفه ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة[7] فقال عنه : «كان فاضلا عاقلا نبيها. انتفع به جماعة في التعليم، وكان يشتغل من بعد صلاة الصبح إلى قرب الزوال مدة، إلى أن كان في سنة (669) فخرج إلى صلاة الجمعة، في يوم ريح وغبار، وتأذى بذلك، وأصابه يبس في دماغه».

وعندما تتحدث المصادر عن شيوخه نجدها تذكر أعلاما لهم اختصاصات متعددة.

فهو قد قرأ **القرآن** : بمراكش على أبي عبد الله ابن مبشر، وعلى الصالح الأحدب.

والعربية : على القاضي الشريف محمد بن علي بن يحيى، وعلى أبي اسحق بن عبد السلام الصنهاجي العطار.

والعروض والفرائض : على أبي بكر القلاوسي.

والحديث : على أبي عبد الله وأخيه ولدي محمد بن عبد الملك المعروف بابن الدهاق.

والفقه : على جماعة من العلماء منهم موسى الزناتي المراكشي، وأبو الحسن المغيلي.

وعلم السنن : عن قاضي الجماعة بفاس أبي الحجاج يوسف التجيبي المكناسي، وأبي يوسف يعقوب الجزولي، وأبي محمد القشتالي.

والطب : على الحكيم المعروف بالمريخ.

وعلم الحساب : على عبد الله المعروف بابن حجلة.

وعلم النجوم : علي أبي عبد الله ابن مخلوف السجلماسي[8].

وكما كان مخلصا في الأخذ كان مخلصا في العطاء، فلقد حرص على التعليم والإفادة، وكان من أشهر تلامذته :

---

5) الدرر الكامنة صفحة 297.
والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام للفقيه عباس بن ابراهيم الجزء الثاني صفحة 208.

6) في الأصل لم أحتقر.

7) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852 الجزء الأول صفحة 297 طبعة دار الكتب الحديثة.

8) نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا السوداني الطبعة الثانية صفحة 41.

أبو البركات ابن الحاج البلقيقي، وأبو جعفر بن صفوان، وعبد الرحمن اللجائي.

واللجائي هذا هو الذي وصفه وصفا دقيقا : أبان فيه عن سلوكه وعلمه وأخلاقه وكيفية معاملته للناس فقال :

«كان شيخنا وقورا، حسن السيرة قوي العقل، مهذبا فاضلا، حسن الهيئة، معتدل القد، أبيض، يلبس رفيع الثياب، ويأكل طيب المأكل، يديم السلام على من لقيه، ما تحدث معه أحد إلا انصرف عنه راضيا، محبوبا عند العلماء والصلحاء، حريصا على الإفادة بما عنده، قليل الكلام جدا لا يتكلم بهذر ولا بما يخرج عن مسائل العلم، وإذا تكلم في مجلس سكت لكلامه جميع من فيه، محققا في كلامه قليل الخطإ»[9].

ولا شك أن هذه الصفات الخلقية والخلقية التي أضفاها عليه تلميذه اللجائي لتدل دلالة قطعية على أنه كان مكتمل الشخصية، سواء في مظهره الاجتماعي، أو في مظهره العلمي، فهو وإن كان مشهورا بالزهد، فإن شهرته هاته كانت زهدا وسطا لا يبعده عن الجانب الجمالي في سلوكه. وفي تناول مطعمه وملبسه، ولا يبعده عن الواجب الاجتماعي الذي يدفعه إلى معاشرة الناس وإلى إفادتهم بما منحه الله.

وإن الطابع الجمالي الذي يحيط به في شكله الخارجي هو طابع أصيل متصل بأعماقه، ممتزج بمواهبه، مندمج معه في سلوكه، فهو كما كان يختار الملبس الرفيع والأكل الطيب، يختار الحديث البعيد عن الهذر، وينتقي لمجالسه كل ما يصلح للعلم، وما يرتبط به في شتى المجالات.

وإن هاته الأناقة لتبدو واضحة فيما يكتب وما يؤلف، فهو يعتمد على تنسيق أفكاره، وعلى تبويب أقسام كلامه، ويسير في خطته الكتابية على منهج خطه لنفسه، وأوضحه في مؤلفاته البلاغية التي ميز فيها بين أصل البيان، وبين صناعة البيان. ومن يدرس كتابه «الروض المريع، في صناعة البديع» فسيرى أنه يعيش مع كاتب منهجي، يحدد للمعاني أوضاعها، وللتعابير أوضاعها، ويمزج في ذلك بين الجانب التذوقي المعتمد على الأدب ورقته، وبين الجانب العقلي المعتمد على المنطق والحكمة، ولعل هذا التزاوج بينهما هو الذي جعل لكتبه ذلك الصيت القيم في حياته وبعد مماته، فلقد ورد عن ابن رشيد السبتي أنه قال :

«لم أر عالما بالمغرب إلا رجلين : ابن البناء العددي بمراكش، وابن الشاط بسبتة».

وهي قولة صادقة، وحكم مبني على نزاهة ودراسة ودراية.

وليس من اليسير أن نعد في هذه الترجمة الموجزة كل ما ألف، نظرا لكثرة الكتب، ولكثرة الموضوعات، فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية في المجلد الأول منها ما يأتي :

«وينسب لابن البناء أربعة وسبعون مؤلفا، يوجد منها في دور الكتب مجموعة من المصنفات في الرياضة والفلك».

نذكر منها على سبيل المثال :

- تفسير الإسم من البسملة.
- تفسير أنباء من البسملة.
- عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل.
- الاقتضاب والتقريب، للطالب اللبيب، في أصول الدين.
- منتهى السول في علم الأصول.
- شرح تنقيح القرافي.
- كليات في المنطق/مع شرحها.
- الروض المريع في صناعة البديع.
- مراسم الطريق في علم الحقيقة/وشرحه.
- مقدمة في إقليدس.
- منهاج الطالب في تعديل الكواكب.

(9) نفس المصدر صفحة 40.

- مقالة في علم الأسطرلاب.
- رسالة في إحصاء أعداد أسماء الله الحسنى.
- رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة المعجزة والكرامة والسحر.
- كتاب الجبر والمقابلة.
- كتاب رفع الحجاب.

ورغم اختلاف موضوعات هاته الكتب فإن أسلوبه فيها يكاد يكون متحدا، لأنه يعمد إلى الإيجاز والمقابلة والموازنة، ويعتمد على التقسيم والتبويب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ويهدف إلى ربط جل العلوم المساعدة بالهدف الأسمى الذي هو فهم كتاب الله، وفهم ما يتعلق به من أحكام وغايات.

ولقد عرفت الخزانة العربية الإسلامية، وكذلك الخزانة الأوربية نشر عدد من كتب ابن البناء وترجمتها، إلا أن أكثر ما اعتنى به المستشرقون والأوربيون كان مرجعه إلى ما كان متصلا بالحساب والفلك، ثم أصبحت الحاجة العلمية ماسة إلى نشر كتبه الأخرى، ليطلع المثقفون على مناهجه وعلى طرقه العلمية التي اتبعها فيما كتب. لذلك ارتأينا بعد الاطلاع على تفسير الاسم من البسملة في خزانة القرويين أن نقدمه للقراء ليكون ذلك مدعاة إلى التعرف على طريقة ابن البناء في التفسير والتأويل، فهو يوظف العلوم العربية والإسلامية توظيفا علميا يعين المتعلم على الاستفادة من القواعد الكلية التي ارتبط بها في دراساته العامة.

تفسير الاسم من بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب صغير الحجم ـ شأن كثير من كتب ابن البناء ـ فهو لا يتجاوز عشرين ورقة من مقياس 21 × 15، وهو موجود ضمن مجموع مسجل تحت عدد 1367.

إن المجموع الذي يحتوي عليه يتكون من ستة كتب، ثلاثة منها مكتوبة بخط موحد. وهي : **التفسير المذكور، وتفسير الباء من بسم الله الرحمن الرحيم لابن البناء أيضاً**، وكتاب **القوادح الجدلية للإمام أثير الدين المفضل بن عمر المفضل الأبهري**.

وكان الفراغ من نسخ هذه الكتب الثلاثة بمدينة تونس، في أواسط صفر من عام ستة وأربعين وسبعمائة، أي بعد وفاة ابن البناء بخمس وعشرين سنة.

ومما يبرز قيمة هذه النسخة، أنها نسخت عن نسخة بخط المؤلف رحمه الله، إلا أن اسم الناسخ غير موجود، ويظهر أنه كان على خبرة تامة باللغة العربية وما يتصل بها، رغم وجود بعض الأخطاء التي تسربت إلى الكتاب أثناء النسخ.

ومما تمتاز به وضوح خطها، وقلة ما ضاع منها، فهي وإن أصيبت بتسرب الأرضة إليها، فإن هذا التسرب لم يكن شديداً، وإنما اقتصر في غالب الأحيان، على أطراف الأوراق، فلم يفوت على القارئ إلا النزر اليسير.

وعن طريق هذا الكتاب أخذنا صورة من التفكير العلمي لدى ابن البناء فيما يتعلق بالتفسير والتأويل، فهو لم يكن ينهج نهجاً بعيداً عن النهج الذي كان يسير عليه المفسرون وأصحاب اللغة، لأن الدراسة القرآنية ليست من الأمور السهلة فهي تعتمد على المنقول من جهة، وعلى المعقول من جهة أخرى.

فأما ما يتعلق بالمنقول، وهو ما ورد من التفسير مبيناً في كتاب الله، أو في سنة رسول الله ﷺ، فيجب التقيد به والالتزام بمعناه دون أن يكون هناك مبرر للتأويل أو الاستنباط.

وأما الذي لم يرد فيه ذلك، فلأهل العلم الذين تمكنوا من قواعد اللغة، وأصول الفقه، وأصول الدين، واستوعبوا أصول المنطق، أن يحللوه وأن يشرحوه، وفق اجتهادهم من غير أن تكون نتائجهم مخلة بالأصول الدينية المعروفة بالبديهة.

وقد تحدث المؤلف قبل الشروع في شرح مقصوده عن الفرق بين التفسير والتأويل بقوله :ظ 1).

«اعلم أن النظر في القرآن من وجهين :

الأول : من حيث هو منقول، وهي من جهة التفسير وطريقة الرواية والنقل.

والثاني : من حيث هو معقول، وهي جهة التأويل وطريقة الدراية والعقل، قال الله تعالى : ﴿**إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾[10] فلابد من معرفة اللسان العربي في فهم القرآن العربي، فيعرف الطالب الكلمة وشرح لغتها وإعرابها، ثم ينتقل إلى معرفة المعاني ظاهراً وباطناً، فيوفي لكل منهما حقه، ولا يخل بشيء من ذلك، وإلا كان مخطئاً أو مقصرا، وقد وُضِعَ للمقصرين في اللسان قوانين النحويين لما اعوجت الألسنة، وللناقصي التعقل علم المعقولات، وللناقصي الإبانة والبلاغة علم الأدب، وللناقصي الفهم في أحكام الشرع علم الأصول، والله سبحانه يفهم من عنده ما شاء، ويزيد في الخلق ما يشاء».

ففي هذا المدخل الذي بدأ به الكتاب دليل على أن ابن البناء كان يلزم الذين يتجهون إلى تفسير كلام الله وتأويله، أن يتحلوا بالمعرفة الصالحة التي تيسر لهم القدرة على فهم ألفاظ القرآن ودلالتها من جهة، وعلى استيعاب القواعد العلمية المساعدة التي تخول لهم مجال الاجتهاد والاستنباط من جهة أخرى.

ولا يتسنى ذلك بالاقتصار على معرفة قواعد اللغة، وإنما يجب ربط هذه المعرفة بعلم المعقولات لئلا يقع خلل في التفكير، وبعلم أصول الدين ليلا يقع خلل في الإيمان، وبعلم أصول الفقه ليلا يقع خلل في التشريع.

وهذا أمر تدعو إليه ضرورة الإقدام على تفسير كتاب الله الذي يحتاج إلى معرفة خاصة بكثير مما يحيط به من ظروف وملابسات، بحيث لا يمكن لمن يقدم على ذلك أن يكون خالي الوفاض من معرفة أسباب النزول، ومن معرفة الناسخ والمنسوخ، ومن معرفة العام والخاص، والمطلق والمقيد، ومن الاطلاع على ما توصل إليه السابقون : ليجعل ذلك في مجال النظر. فيقبل منه ما لا يتنافى مع الإمكان العقلي والهدف الديني، ويرفض ما عداه.

ولقد اقتصر ابن البناء في أوجه النظر على عشرة أوجه، بيّنها فيما يأتي فقال : (ظ 1).

«فينظر في بسم بحسب ذلك من وجوه :

أ ـ كيف أداؤه في التلاوة، وهو من علم القراءات.

ب ـ ما يدل عليه لفظه، وهو من علم اللغة.

ج ـ وجه تركيبه للدلالة على معانيه بحسب التخاطب، وهو علم النحو.

د ـ معرفة الأساليب التي تستعمل في البيان عن الغرض المقصود منه، وهو من علم الفصاحة.

هـ ـ معرفة المعاني اللازمة في الفهم عن معاني أوضاعه في الكلام، وهو من علم البلاغة.

و ـ اعتبار معانيه بحسب حقيقة نفس الأمر، وهو من علم أصول الدين.

ز ـ اعتبار معانيه بحسب وضعها للتصريف بمقتضاها بحسب غرض الشرع، وهو من علم الفقه.

ح ـ وجه التصريف بمقتضى معناه في الوجود من الوجه المشروع، وهو من علم الفقه.

ط ـ من حيث التعبد لله والتوجه إليه بمقتضى معناه، وهو من علم القلب الملقب بالتصوف.

ي ـ وجه إعجازه ولزوم التسليم له، وهو من الحكمة».

ويظهر أن هذا التقييد منه، إنما هو ملحظ آخر غير الملحظ الذي بنى عليه المدخل، لأنه في المدخل ذكر أن علم التفسير يتعلق بالرواية، وأن علم التأويل يتعلق بالدراية، وهو هنا يرى أن علم التفسير يتعلق بالألفاظ، وأن علم التأويل يتعلق بالمعاني والجمل.

ولعل الملحظين معا متكاملان، وفقا لما ورد عن كثير من الذين اهتموا بالتفريق بين التأويل والتفسير، فالملحظ الأول شبيه بما قال به أبو نصر القشيري حيث ذكر أن التفسير مقصور على السماع والاتباع، وأما الاستنباط فهو الذي يتعلق بالتأويل.

وأما الملحظ الثاني فهو شبيه بما قال به الراغب الأصفهاني حيث ذكر أن التفسير أعم من التأويل، وأنه يستعمل كثيرا في الألفاظ ومفرداتها، وأما التأويل فهو في المعاني والجمل. وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية.

10) الزخرف ـ الآية الثالثة.

وعلى كل حال، فإن الأوجه التي صرف فيها المعرفة حول كلمة الإسم قد حصرها في الأوجه العشرة السابقة.

ونحن لو تتبعنا هذه الأوجه لوجدنا النظر فيها واضحاً في بعض الأحيان، وغامضا غموضا كثيرا في أحيان أخرى، نظرا لارتباط بعض التحليلات بمصطلحات علمية لا يفهم المضمون العام إلا بفهمها هي بالذات، بحيث يتعذر فهم الحقيقة بغير فهم المقصود من هاته المصطلحات.

وحيث إن طبيعة تحليلنا تقتضي عدم الغموض، فإننا سنحاول على قدر الإمكان الإفصاح عن مقاصد ابن البناء، إما بتفسير المبهم، وإما بالاقتصار على الواضح البيّن الذي لا يحدث أي ارتياب.

فهو في الوجه الأول المتعلق بالقراءات تصور الوقف على آخر الاسم، ليذكر أنه يكون بالروم وبالسكون، وهو تصور كان في الإمكان الاستغناء عنه.

وأما الوجه الثاني وهو المتعلق باللغة، فقد تحدث فيه عن اشتقاق هذه المادة مع اختلاف ترتيب حروفها، وأشار إلى كثير من معانيها المتقاربة سواء فيما يتصل بالعلو، أو فيما يتصل بالبسط، أو فيما يتصل بالضم والحصر.

وذكر أن الإسم حين إطلاقه يستمد معناه من السمو، ومن الوسم، وأن عدم اعتبار ذلك فيه كان هو السبب في وجود الخلاف بين العلماء في حقيقة الاسم، وهل هو الصيغة أو مدلولها.

ولهذ قال : (ظ 3) «والذي تحقق عندي في ذلك هو أن العبارة تسمية، والمدلول عليه بها مسمى، والتسمية عن وسم يسمه الله في ذوات الخلق يسمون بها إلى المسمى بها، والإسم مركب من هذين المعنيين على ما بينته في وجه النحو، فيصدق على كل شيء، فيطلق تارة ويُرَاد به المسّى كما قال تعالى[11] : ﴿**وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة**﴾ ويطلق تارة ويراد به التسمية كما قال تعالى : ﴿**أنبئوني بأسماء هؤلاء**﴾[12] وذلك أن الاسم هو المقصود بالتسمية من حيث مقصودها، لا من حيث هو هو وهو المسمى بالتسمية من حيث سمي بها، لا من حيث هو هو.

وفي الوجه الثالث وهو وجه النحو، أفصح إفصاحاً كاملاً عما ذكر، لأنه لم يقصد بالنحو ما يتعلق بالإعراب فقط، وإنما دخل فيه ما يتعلق بالاشتقاق. وما يرتبط ببنية الكلمة في أحوالها الأصلية والمستعملة، ورأى أن الذين يتحدثون عن الاسم يختلفون في وضعه الصرفي الذي ينسجم مع اشتقاقه من السمو، ولاحظ أن حذف الأخير وتسكين الأول، لم يكن مرتكزا على إعلال مضبوط، ولكنه منساق مع الوضع الصرفي الذي يجعل الكلمة واضحة الأصول بتصغيرها وبجمعها، فالاسم يصغر على سمي، ويجمع على أسماء، إلا أن هذا الانسجام الصرفي يتعارض مع الذين يرون أن الاسم مشتق من السمة أي العلامة. لأن صاحبه يعرف به وليس يسمو به، وهذا العمل إذا كان يعضده المعنى فإنه لا يعضده التصريف، فإنه لم يوجد من اللغويين من صغره على وسيم، أو من جمعه على أوسام».

ولما رأى ابن البناء هذا التضارب بين المعنى القريب وبين الصيغة الصرفية، أراد أن يربط بين المعاني وأن يجعلها مشتركة وأن يوجه الجانب التصريفي فيما يتعلق بالتصغير والجمع إلى مادة السمو، وأن يوجهه من حيث الإعلال إلى المادتين معا، لكن باعتبار كون الإعلال خارجا عن القواعد المعهودة، نظرا لكون الاسم في حد ذاته فرداً لا نظير له، لأنه أول موضوع الكلمات. ويظهر ذلك واضحاً في قوله الآتي : (ظ5).

«والذي تحقق عندي في ذلك هو أن الاسم اعتبر فيه الوصفان جميعا، السمة بحسب الوجود الظاهر، والسمو بحسب الإدراك والفهم، فمن غلب عليه اعتبار الإدراك وجهة اللفظ جعل أصله السمو، ومن غلب عليه اعتبار الوجود وجهة المعنى جعل أصله الوسم، والوسم يسمو بالسامي إلى المسمى

11) البقرة ـ الآية 31.

12) من نفس السورة والآية.

فيصير الوسم سمواً، فركب الوسم والسمو جميعا بأن حذف أول الأول، وآخر الآخر، إذ كان آخر الأول ليس فيه واو، وأول الآخر ليس فيه واو، فبقي سم، وزيد من أوله ألف وصل تنبيهاً على الأصالة لأن الألف أصل الحروف وأولها، كما هذه الكلمة أصل الكلمات وأولها، فعل ذلك فيه على غير قياس، لأنه أول موضوع الكلمات، فهو فرد لا نظير له في ذلك، وهو مفصول الطرفين، موصول الابتداء بأول الحروف لمطابقة لفظه معنى وصفه، فإذا صغر أو كسر رجع إلى أصله الذي صار إليه قبل التركيب وهو السمو. وأصل هذا الأصل الوسم، وبذلك يسقط السؤال على قول من قال أصل الاسم وسم كما تقدم».

ولعل المتأمل فيما ذكره ابن البناء يرى أن الجانب اللغوي والجانب النحوي قد مزجهما مزجا بالجانب الديني، لأن اعتبار كون الاسم أول الكلمات إنما هو اعتبار ينسجم مع أن كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الوجه الرابع المتعلق بالفصاحة، فرأى في الاسم أساليب شتى من البديع ذكرها ومثل لها وهي : المناسبة، وعلو الرتبة، والحذف، والطباق، والإيجاز، والاختصار، والتضمين والاستعارة، والفصل والوصل.

كان في استدلالاته موجزاً، إلا أنه كان يبدو عليه أثر التعسف والتكلف أحياناً فيما أتى به، وكان يمزج في هذه الأمثلة والاستدلالات بين الجانب الموضوعي والجانب الصوفي، ولا بأس أن ننقل ما ذكره في المناسبة، فهي التي أكثر فيها الكلام وعدد الوجوه حيث قال (وج 8) :

«والمناسبة نسبة دلالة الاسم على مسماه في الربط، كدلالة النقطة على الباء في الخط، ويستغني المسمى عن الاسم بذاته في الخط، كما تستغني الباء عن النقطة في اللفظ.

ونسبة الاسم في أنه أول الكلمات، كنسبة الألف التي في أوله في أنها أول الحروف، فهو أول الكلمات وأوله أول الحروف.

ونسبة الاسم في السمو به إلى المسمى، كنسبة علمنا في السمو به إلى نفس الأمر».

وبهذه الأوجه الأربعة أنهى ما يتعلق بالموضوعات التي أدمجها في مفهوم التفسير، وانتقل بعدها إلى الأوجه الستة الباقية التي أدمجها في مفهوم التأويل.

ويتخلص الحديث عنها فيما يأتي :

أولا : وجه البلاغة وهو الخامس في الترتيب.

إن المؤلف لم يكن واضحاً هنا في عباراته بحيث امتزج في شرحه الجانب البلاغي بالجانب الرمزي وبالجانب الصوفي، وحاول أن يحصر القالب الخاص للصيغة اللفظية بأنواعها الشكلية تعريفا وتنكيرا وإفرادا وإضافة وتصريحا وإشارة، وربط كل صيغة بمعنى لا تدري في الغالب كيف وصل إليه.

والدليل على ذلك قوله مثلا : (و 9) :

«ومن الأسماء ما لفظه المفاضلة وهما اثنان أحدهما مضاف من حيث عرف نفسه من الأولوية في مفهوم الحقية، نحو أسرع الحاسبين وخير الرازقين، والثاني غير مضاف من حيث عرف نفسه من عظم صفته في كمالها نحو الأعلى.

ومن الأسماء ما لفظه لفظ الموصول وهو ثلاثة.

أحدها الذي وهو من حيث عرف نفسه من حيطة نسبة الحاضر والظاهر للغائب والباطن، بحسب البابين في المواطن، نحو : **الذي خلق فسوى.**

والموصول الثاني من هو من حيث عرف نفسه من حيطة الأكوان، من باب العرفان، بآثار هيئة الوضع نحو : **أفمن يخلق.**

والموصول الثالث ما، وهو من حيث عرف نفسه من حيطة الإيمان من باب الأكوان، بآثار صورة الطبع نحو : **ما أعبد.**

وهكذا نجده فيما بعد يتحدث عما هو من الأسماء مجمل العرفان، وعما لفظه بحرف جر، وعما لفظه مضاف ومضاف إليه، وعما لفظه الجمع، وعما هو ضمير، وعما هو ظاهر.

وفي كل شيء يتجه إلى الربط بحيثية قد يتعذر فهمها على القارئين، نظرا لما فيها من رموز وإشارات صوفية لا يتجاوب معها إلا من كان غير غريب عن إيحاءاتها ومقاصدها.

ثانيا، وجه أصول الدين وهو السادس في الترتيب.

وهو في هذا الباب تحدث عن جزئيات دقيقة، منها ما هو متداول في أصول الدين، ومنها ما هو هادف إلى إثبات رأي بعينه يتلاءم مع الاتجاه السني فيما يتصل بالذات والصفات، رغم كون ابن البناء كان في عداد الذين درسوا المنطق، ودرسوا بعض الاتجاهات العلمية المتصلة بالفلسفة وما يتعلق بها، وأهم ما تحدث عنه هنا نقطتان :

الأولى : تتعلق بمفهوم الخبر وتقييد معناه بالقرينة الشرعية.

الثانية : تتعلق بإبراز العلاقة الرابطة بين الذات والصفات.

فبالنسبة إلى النقطة الأولى المتعلقة بالخبر، والمعروفة عند المناطقة أيضا بالقضية، نجده قد سار على مذهب الأصوليين والمناطقة الذين لا يعتبرون مجال الصدق والكذب مطلقاً، لأنهم يقيدونه بالقرائن الشرعية وبالقرائن البديهية.

ومثال القرائن الشرعية في الصدق أخبار الله تعالى، وأخبار ملائكته وكتبه ورسله.

ومثال القرائن البديهية في ما يشبه قولك : الواحد نصف الإثنين.

وأما مثال القرائن الشرعية في الكذب؛ فكأخبار مسيلمة الكذاب، فإننا نقطع بكذبها لقرائن شرعية.

وأما مثال القرائن البديهية في الكذب فكقولك : الواحد أكبر من الاثنين، فإننا نقطع بكذبه لبداهته ولظهور عدم ملاءمته للواقع.

يقول الأخضري :

ما احتمل الصدق لذاته جرى
بينهم قضية وخبرا

ويعني بذلك ما احتمل الكذب لدلالة السياق عليه.

وعلى أساس هذه القواعد المتداولة قال ابن البناء : (ظ 10).

«قيل في الخبر إنه الذي يحتمل الصدق والكذب، وبسم الله خبر، وهو لا يحتمل، بل هو صدق، فيلزم أنه ليس بخبر وهو خبر، فهذا جمع بين نقيضين وهو محال. وجوابه أن الخبر من جهة أصل وضعه إنما هو للصدق لأنه بذلك أنشئ للاستعمال، والكذب عارض الاستعمال، وبسم خبر بحسب التأصيل، فلا يدخله الكذب، وكذلك أخبار الله تعالى كلها، وأخبار ملائكته وكتبه ورسله، لا يحتمل الكذب لحقها في نفس الأمر الذي منه تلقاؤها ومنا تلقيها، فإن قدر تلقيها من تلقاء أنفسنا احتملت من جهة تلقاء الباطل، والله يهدي الحق وهو يهدي السبيل».

وأما بالنسبة إلى النقطة الثانية المتعلقة بالذات والصفات فإنه يرى أن الأسماء التي هي تسميات إنما هي بسبب الصفات، أما الذات فلا يدل عليها باسم منها أصلا.

وهذا موضوع شائك في فلسفة العقيدة تحدث عنه علماء الكلام، وتحدث عنه الصوفية، وتحدث عنه الفلاسفة، كل من جهة نظره. ولما تطرق إليه ابن تيمية في كتبه نسب الذين يقولون باستقلال الذات عن الصفات إلى الإلحاد، وهم الجهمية والقرامطة، كما عارض أولئك الذين قالوا بأن الله وجود مطلق دون أن يربطوا بين ذاته وصفاته كالقونوي وابن سبعين»[13].

والغالب أن هذه الموضوعات كان لها في عصر ابن البناء أثر في التيار الفكري إلا أنه كان يريد البت فيها بأسلوب علمي يبرز قيمة الربط بين الذات والصفات في تكوين النظرة التوحيدية عند المسلم ويقول في هذا الباب (و 11).

«والأسماء التي هي تسميات إنما هي بسبب الصفات، أما الذات فلا يدل عليها باسم منها أصلا. والصفات للرب ثابتة أبداً تومن بها من وجه كونه فاعلا بحسب ما حلّ في أينها من اللزوم بدلالة الأفعال الاضطرارية ونفوض علمها إليه، وننزهه عن مفهومها في الخلق».

إن هذا التنزيه أساسي في تكوين العقيدة، وهو الذي دفع ابن البناء في كثير من المناسبات إلى أن يربط بين أساس في التدريج، وشرط في الوصول، ولقد بلغ به

13) فتاوي ابن تيمية ج 17، ص. 105.

الإيمان وبين توقيف اللغة، لأنها إيحاء من الله وإبلاغ عن طريق أسمائه إلى الوجود، ولهذا قال في آخر هذا الباب (ظ 11) :

«ومن الصفات تكون الذات، لا تمنع من الدلالة عليها بالتسميات، أي شيء كان الاسم، فلذلك يدل الاسم المرتجل. فأسماء المسميات مأخوذة من صفة المسمى، فإن كانت الصفة لها وجود فهو سلطان في تلك التسمية، وإن لم يكن لها وجود كانت التسمية بغير سلطان. فالحيوان من الحياة، والحياة اسم مرتجل للصفة، والصفة معنى لم يمنع من الدلالة عليها بالمرتجل الدال على خصوصها.

وسبب ذلك، البيان للغير، ولابد من توقيف وتعليم في مبدإ اللغة وذلك لله وحده، ولا شركة بين الله وخلقه في صفة وجودية البتة، وإنما الشركة متوهمة في أمور ليست موجودة، وهي حال في نفوسنا نومن به، منها أنه على ما هو عليه لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه».

وبهذه الجزئية ختم الحديث عن هذا الباب.

ثالث : وجه أصول الفقه وهو السابع في الترتيب.

ان المهتمين بالدراسات الفقهية يعلمون أن المراد من الفقه القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة.

ولا يمكن البلوغ إلى ذلك إلا بمعرفة الدلالة بأنواعها بتصرف في اللفظ تصرفاً يتلاءم مع المقاصد، سواء كانت تلك الدلالة مُرتبطة بالملفوظ أو بالمعقول أو بالمفهوم.

وعلى حسب ربط اللفظ بالوضع الحقيقي أو بالوضع المجازي أو العرفي تتكون المعاني، ولهذا كانت قواعد الاستنباط مرتبطة بمفهوم الدلالة وهذا هو السبب الذي يدفع الأصوليين إلى الحديث عن هذا المفهوم، وعن علاقته بالدلالة الوضعية بأنواعها سواء كانت مطابقة أو تضمنا أو التزاماً.

يقول الأخضري في متن السلم :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمنا وما لزم
فهو التزام إن بعقل التزم

وذلك سيراً على أن الدلالة الوضعية مرتبطة بكل هذه الأنواع. وهناك من يرى أن الوضعية خاصة بالمطابقة وأما الأخريان فعقليتان.

وقد اشار ابن البناء إلى هذا الخلاف وقال أثناء الحديث عن ذلك : (و 12).

«والاسم هو حقيقة لغوية في أنه المسمى بالتسمية، وهو أيضاً حقيقة عرفية في أن التسمية باللفظ، ومحمولة يكون حسب المفهوم في الخطاب.

والاسم يدل بالمطابقة على كمال المسمى، وبالتضمن على جزء المسمى، وبالالتزام على لازم المسمى.

واختلف في هذه الدلالات الثلاث فقيل : إنها كلها وضعية، وقيل المطابقة وحدها وضعية، والباقيات عقليات، وقيل : المطابقة والتضمن بالوضع، والالتزام بالعقل، والحق أن اللفظ موضوع للمطابقة ولكل ما لابد منه في الفهم، فيكون له دلالة بمنطوقه، ودلالة بمفهومه، ودلالة بمعقوله، وذلك كله واقع في المفهوم، فهو مراد في التفهم بحسب نفس الأمر، وإنما تكون دلالة الالتزام والتضمن عقلية عند استعمال اللفظ بالمطابقة في هذه حقيقة، وتكون وضعية عند استعمال اللفظ في غير مسماه أو لازمه، لأن كمال مسماه في المجاز، هو جزء مسماه أو لازمه في الحقيقة، ويجوز في هذه أن يكون اللزوم غير ذاتي، ولا يجوز في الأولى الفضلية».

ومعنى هذا أن المجاز في حد ذاته لم يتوصل إليه إلا بالوضع الأول، بحيث لا يفهم الجزء إلا بمعرفة الكل، ولا يفهم اللازم إلا بوجود الملزوم، وحيث إن الوضع مرتبط بالكل ومرتبط بالملزوم المذكور فإنه يتسرب من الحقيقة إلى المجاز.

ولقد أشار ابن البناء إلى نقطة أخرى دقيقة تتعلق بمفهوم مخاطبات الناس فيما بينهم وتساءل : هل مفهوم اللازم لهم كما في خطاب الشرع، سواء كان جليا أو خفيا أو ليس بلازم ؟

قال (و 13) والذي هو فصل القول في ذلك، أن المخاطبة إن كانت إخباراً بما هو شرع فلها مفهوم اللازم، جليا كان أو خفيا، من جهة ما فيها من الشرعية المحكية، لا من جهة الحكاية عنها، وإن كانت إخبارا عن أحوال أنفسهم فمن جهة ما هم متشرعون يلزمهم الجلي، ولا يلزمهم الخفي، إن غلب على الظن قصورهم عنه».

وتعرض في هذا الباب لشيء آخر يتعلق بدلالة الإسم، فتساءل عن هاته الدلالة؛ هل هي صفة اللفظ، وهو كونه بحيث إذا أطلق فهم السامع منه كمال المسمى، أو جزءه، أو لازمه. أم هي صفة السامع، وهو فهمه من اللفظ كمال المسمى أو جزءه أو لازمه ؟

إن اختلافاً بين الأصوليين وقع في ذلك، وتخلص من جميع الفريقين على قول شهاب الدين القرافي أن دلالة اللفظ هي إفهام السامع. وفهم السامع مطاوعة، فالإفهام صفة اللفظ، والفهم أثره، وهو صفة السامع.

ونقطة أخرى تعرض لها في هذا الباب نجدها مفسرة لدى علماء الأصول وعند علماء اللغة، وهي تتعلق بالألفاظ هل هي موضوعة بإزاء الصور الذهنية؛ أي بإزاء الصورة التي يتصورها الواضع في ذهنه، أو بإزاء الماهيات الخارجية.

وقد أجاب السيوطي في كتابه المزهر (ج 1 ص 42) عن هاته النقطة فقال : «ذهب الشيخ أبو الحسن الشيرازي إلى الثاني، وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن».

وكلام السيوطي في هذا الموضوع أكثر وضوحا وتجليا من كلام ابن البناء، لأنه عززه بأمثلة داخل كتابه، أما ابن البناء فإنه لم يأت بأمثلة كافية.

قال ابن البناء في هاته النقطة (و 12) :

«الاسم اختلف العلماء فيه، هل وضع بإزاء المعاني خارج النفس، أو بإزاء المعاني داخل الذهن، والظاهر أن أسماء الأشخاص بإزاء الخارج، وأسماء الأجناس بإزاء الداخل، لأن الأشخاص جزئيات خارج الذهن، والأجناس كليات داخل الذهن، ولابد فيما وضع بإزاء الخارج من تحققه في الأذهان، وفيما وضع بإزاء الأذهان من تحققه بحسب الأكوان، والخطاب بالكليات مشروط بتحققها في الأعيان، وفي حصول الجزئي حصول الكلي».

وعلى كل حال فإن فهم هذه المصطلحات يقتضي الإلمام بعلم المنطق وعلم الأصول، مع معرفة ما في هذين العلمين من التداخل في بعض المصطلحات أحيانا، أو من التضارب أحيانا أخرى.

هذا مع العلم بأن الدلالات لا تتساوى في استنباط الأحكام، فدلالة المنطوق أقواها، ودلالات المفهوم تختلف باختلاف الإدراكات وبحسب القرائن الخارجية. ولهذا كانت مثارا لكثير من الخلافات بين الأصوليين حسب ما توحيه تلك الدلالة. فهناك من يعتد بها، وهناك من يرى أن الأحكام التي تأتي موافقة للمفهوم، لم تكن ناتجة عن المقابلة بين المفهوم، والمنطوق، وإنما أتت لورود أحكام خارجية تنسجم مع القصد المفهوم. ولهذا قال الشيخ محمد الخضري رحمه الله في كتابه أصول الفقه (ص 157) «وعدم الاحتجاج بالمفهوم هو المذهب المختار لقوة أدلته، وعدم ما يدل على القول به، فلا يكون في الكلام حكم شرعي في المسكوت عنه، وإنما هو على الأصل، فإذا كان الحكم منفيا عنه كان مستفادا من بقائه على الأصل أو من دليل شرعي، وإذا وجد دليل آخر يثبت في المفهوم حكما يوافق المنطوق لم يكن معارضا للدليل الأول، لأنه لم يفد حكما في المفهوم».

ولعل ما قدمناه في هذا الباب يعتبر تفسيرا تقريبيا لما أورده ابن البناء في هذا الوجه.

رابعا ـ وجه الفقه وهو الثامن في الترتيب.

ربط المؤلف في هذا الوجه كلامه بنقط ثلاث :

النقطة الأولى : تتعلق بتسمية الله هل يجوز أن تكون بغير ما سمى به نفسه.

النقطة الثانية : تتعلق بالحلف بالاسم وما يتعلق به من كفارة.

النقطة الثالثة : تتعلق بالأهداف الشرعية المتصلة بذكر اسم الله في جميع الأعمال.

وهو في كل هذه الموضوعات قوي الإيجاز، دقيق العبارة، يحرص أتم الحرص على ربطها ببعض الأحكام الفقهية المعهودة لدى المطلعين على التشريع الإسلامي.

وفي النقطة الأولى قال (ظ 14) :

«اختلف العلماء هل يجوز تسمية الله تعالى بغير ما سمى به نفسه في كتابه. أو سماه به رسوله ﷺ، فذهب بعضهم إلى جوازه؛ إذا كان معناه مما يجوز إطلاقه في حق الله تعالى».

إن هذه النقطة تتصل أتم الاتصال بعلاقة التقديس الذي يمنحه المسلم لأسماء الله الحسنى، ولقد خصص لها الغزالي باباً من أبواب كتابه : «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

ونقل ابن البناء فيه رأي أبي بكر ابن العربي الذي لا يرى في ذلك مانعاً، ما لم يتعارض مع حكم شرعي، لأن المشكلة لا تكمن في صيغة الاسم، وإنما تكمن في معناه، فإذا كان الاسم الموضوع لا يخل بعظمة الله وتقديسه فلا ضير في استعماله. وقد فرق الغزالي بين مقصود الاسم ومقصود الصفة، وكأنه لاحظ أن ما يقصده ابن العربي إنما يتعلق بالصفات لا بالأسماء، وهو كلام معقول مقبول.

ولعل الدافع إلى قبوله هو ما أقره كثير من علماء الإسلام، في أن أسماء الله الحسنى لا تنحصر في التسعة والتسعين، إذ ورد عن رسول الله ﷺ بعض الأسماء التي لم ترد بنفس الألفاظ المعهودة فيما عرف، وورود ذلك لا يتنافى قول رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» لأن خصوصية الأسماء لا تنفي ما عداها.

ومما استدل به الغزالي على ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال (ص 91) : «ما أصاب أحدا همّ ولا حزن، فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه، وأبدل مكانه فرجاً».

قال الغزالي : قوله استأثرت به في علم الغيب عندك» يدل على أن الأسماء غير محصورة فيما وردت به الروايات المشهورة.

وبعد الانتهاء من هاته النقطة انتقل إلى النقطة الثانية المتعلقة بالحلف بالاسم، وهل المراد به المسمى أو المراد به اللفظ، بحيث إذا كان المسمى هو المقصود وحيث الكفارة عند الحنث، أما إذا كان اللفظ هو المقصود فلا حنث، ويكون الحلف باللفظ محرماً.

ونحن نظن أن هذا الخلاف لا معنى له، لأنه لا يتصور أن يحلف أحد بالاسم دون أن يكون قصده المسمى، وإلا كان عابثاً، وحينئذ يرتبط القصد به، وتكون اليمين شرعية، وتجب الكفارة على من حنث فيها.

وأما النقطة الثالثة فهي توحي بأن كل عمل لا يرتبط باسم الله يعتبر ضلالاً، لأن إيمان الإنسان بوجود ربه وبرحمته تجعله لا ينفصل عنه أبدا، ولهذا قال (ظ 15).

«وعمل الإنسان[14] بسم الله لا يبقى معه للشيطان شرك، فيصل العبد ما وصل الله ويقطع ما قطع الله، ويتعرف موقع الاسم من العبادة والطاعة على سبيل الأمر والنهي، ويأخذ نفسه بما يتبين لها من ذلك، ويعمل على طريق الأدب في موافقة الأمر والنهي على مقتضى الشريعة وبيان السنة، من غير خروج إلى بدعة، ليعمل على بصيرة من أمره، وعلى بينة من ربه...

خامسا : وجه التصوف وهو التاسع في الترتيب

وهنا نلاحظ أنه جعل للتأمل أثرا كبيرا في السمو بالإنسان إلى المعرفة، لأن صدق الطوية وطهارة الباطن

14) في الأصل : «وعمل الشيطان»، والظاهر أنه خطأ من الناسخ.

التواصل في المعرفة إلى أن يجعل كل المشتقات مأخوذة من أسماء الله الحسنى، فليست اللغة هي التي توصل إلى المعرفة بالأسماء، وإنما الأسماء هي التي تعلقت بها جميع المعاني، واستدل على ذلك بقول الرسول ﷺ عن ربه أنه يقول «هي الرحم وأنا الرحمن اشتققت لها اسما من اسمي / الحديث.

قال ابن البناء بعد ذكر الحديث القدسي : «فهكذا جميع الموجودات مشتقة من الأسماء، لا الأسماء مشتقة من الموجودات، فافهم فإن هذا موضع يعكسه الوهم، ألا ترى أن اسم السلم يرجع إلى اسمه السلام، فإنك تعمل بطاعته، وتسلم ذلك له حتى يعطيك في وقت آخر ما هو خير من ذلك على السلامة من العيوب والفقر والعدم. وهو الذي جعل ذلك كذلك...» (ظ 17).

ولعل هذا التواصل اللغوي الصوفي الممتزج، هو الذي دفع المؤلف إلى أن يجعل الحروف المعبرة عن معاني الأسماء تستمد ضياءها من نور الله، فهو الذي يضع فيها نور الهداية لتعبر عن أسمائه الحسنى، ولتفسر معانيها، ولتوضح أبعادها، فليست المعرفة اجتهادية، وإنما هي لَدُنية إلهامية. ولهذا قال : (و 19) «فمعاني أسمائه مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، والوقوف على الأسماء إنما هو الإقرار والإيمان عن نور الحق الذي عنه يكون الإيمان، وهناك شهود النفس ومحل الروع والتأييد بالروح، والعبد يستضيء عقله بما يشرق عليه وتستقي به الحواس، فيرى العبد في المحسوسات آثار الأسماء دالة على مدبرها، ويرى الواردات عليه واردة من الحق حتماً، فإن كانت من باب الأمر بواجب أو مندوب أو تعريف بجلال أو جمال، أحدثت عنده علوماً، وإن كانت من باب المحظور أو المكروه أو الاشتباه، وقف والتجأ وابتهل، وأورثه حاله المخاف من الاستدراج ولما يبادر حتى يأتيه الفرج واعتقد أن للّه أن يفعل ما يشاء».

سادساً وجه الحكمة والإعجاز وهو العاشر والأخير في الترتيب.

وهو هنا يرى أن الله تبارك وتعالى هدى الناس إلى معرفة أسمائه، وإلى فهم كتابه، بما أودع فيهم من نور المعرفة، وما يسر لهم من عيون البصائر التي تَترقى بقدر ما قسم لها، ولهذا ليس لأحد أن يدعي أنه اطلع على الخبايا باجتهاده وبكسبه، وإنما الله هو الذي يسمع من يشاء ويفهم ما أراد.

وبعد الانتهاء بهذا الباب ختم كتابه بهذا الدعاء فقال :

«اللهم بحق اسمك العظيم الأعظم، وأسمائك الحسنى كلها، أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين، واجعلنا يوم الحشر من الفائزين، ولا تدخلنا النار مع القوم الظالمين، وطيبنا بذكرك، وأعنا على حمدك وشكرك، إنك على كل شيء قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير».



دراسات في الأدب المغربي : (24)

السّلطان أبو عنان المريني

للأستاذ عبد الكريم التواتي

شهد المد الحضاري لعهد بني مرين، وخاصة ما يتعلق منه بالجانب الفكري والثقافة العامة زَخَمَة ودسومة هائلتين، تجلتا في هذا العدد الضخم والمتزايد من أنواع المعرفة، وفي هذه الكثرة الكاثرة من رواد مختلف ميادينها، ثم في الطفرات التي حققتها البحوث العلمية، والتي تجاوزت مرحلة الاجترار والفرز والتعليق إلى مرحلة التقعيد والتخصص الموسوعي والدراسات الاكلينيكية المتعمقة إن صح التعبير.

وان إلقاء نظرة عابرة على فهارس أعلام الفكر والثقافة لهذا العصر، سواء منهم المهتمين بالأدب : شعراً ونثراً، أو بالتشريع : أصولاً وفقهاً وكلاماً وفلسفة، أو علوماً ورياضيات : حساباً وهندسة وهيئة وتعديلاً وطباً وتعشيباً، لتجعل الناظر يندهش لهذه الألوان من الثقافة المتعددة الأبعاد والمعطيات، والمتنوعة المشارب والآفاق.

وكان مما ساعد على تحقيق تلك الطفرات، قطعاً، وبالأضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً - شعورُ قمة هذه الدولة، لا بجدوى وفعالية الثقافة في توجيه الأحداث وبلورة الاتجاهات الشعبية فحسب، وإنما أيضاً إيمان هذه القمة بأن رسالتها الدينية، والتي من أجلها قامت ما كانت لتتم اذا لم تقتعد العلم، وتساند الفكر، وتهيئ الجو الملائم والمناسب لرجالاتها حتى يجدوا الدوافع المغرية والمثيرة لمباشرة تسجيل معاناتهم، ويجدوا الظروف المشجعة على الانكباب على الدرس والتقصي المفضيين إلى إيجابي ومثمر النتائج.

فكان أن اندفعت هذه الدولة، لا لتأييد الحركات العلمية فحسب، وإنما أيضاً للإسهام فيها بحثاً وتنقيباً، وللمشاركة فيها إنتاجاً وتوجيهاً وانتقاداً.

وإذا كانت الميادين السياسية والعسكرية بوجه خاص قد استأثرت باهتمامات سلاطين هذه الدولة الأولين، تركيزاً لوضع الدولة، وتثبيتاً لوضعها القانوني، الشيء الذي حال دون إثبات اهتمام مّا لديهم بمجالات الفكر والثقافة عامة، والأدب والشعر خاصة، فإن الذين جاءوا من بعدهم ركزوا وجودهم على قيام تعادلية بين الاهتمامات السياسية العسكرية من جهة، وبين الاهتمامات الأدبية والثقافية من جهة أخرى، وعلى أساس وضعهما معاً في خطين متوازيين امتداداً وتقديراً، أفقياً وعمودياً.

على أن منطلق الدولة المرينية الذي كان دينيا صرفا، شأن منطلقات جميع الدول التي تعاقبت على توجيه الأحداث، في هذا البلد تقريباً منذ الفتح الإسلامي إلى دولة العلويين الحالية، جعلها توثق صلاتها الفكرية بالعلوم

العربية والإسلامية خاصة، وثقافتهما انطلاقاً من التشبث بالعرقية العربية التي أشرنا إليها قبل. هذا التشبث الذي أبدوه بما رووه له من أشعار، مثل قول القائل – فيما أورده ابن الأحمر في كتابه (روضة النسرين) –

أيها السائل عن أحسابنا
قيس عيلان بنو العز الأول
وبنو بر بن قيس من به
تضرب الأمثال في كل أهل
إن نسبنا، فبنو بر الندى
طارد الأزمة نحار الإبل
من تردى سالف المجد علىّ
وبروداً فاكتسى منها حلل
إن قيساً يعتزي برٌ له
ولبر يعتزى كل بطل
حسبك البربر قومي إنهم
ملكوا الأرض بأطراف الأسل
وببيض نضرب الهام بها
هام من كان عن الحق نكل

وتأكيداً لهذا الزعم أنشدوا للسيدة (تماضر بنت قيس الأبيات الآتية، التي هي كتحديد لهوى الاسم العلم المذكور في الأبيات قبله.

والسيدة تماضر، في أبياتها هذه تبكي ارتحال واغتراب شخصانية ذلك الإسم العلم الذي ألحق به النسابون بني مرين، وأعني به (بر بن قيس).

قالت تماضر وتبكي هذا الأخ الغائب :

لتبك كل باكية أخاها
كما أبكي على بر بن قيس
ترحل عن عشيرته فأضحى
ودون لقائه انضاء عيس

وتخيلا منها للبلاد التي يمكن أن يكون بها مقيماً – وتقصد بها المغرب عند من استشهدوا بكلماتها،قالت في أبيات بها تلميح سافر لما أصاب لسان أخيها من لكنة غير عربية،مما قد تشم منها رائحة الوضع والانتحال، وفي قافية وروي جديدين مما قد يفهم أن الواضع متعدد.

وشطت ببرداره عن بلادنا
وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية
وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأني وبرا لم نغر بجيادنا
بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما
فلا يَبْعُد وبر على بعد داره
وإن مال برّ بالحجاز فربما

وانطلاقا من هذه العرقية، وفي نطاقها، ساهم مثقفو البيت المالك المرينيون في الحركة الأدبية لعصرهم، وسجلت لهم آثار شعرية لا تخلو من إشراقات.

وفي كلمة سابقة أوردنا بعض ما عثرنا عليه من أشعار أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المنصور صاحب الموشحات الرائقة التي منها ـ كما نفح الطيب ج 2 ص 22... مطلع.

(مطلع)

في نغمة العود والسلافة
والروض والنهر والنديم
أطل من لا مني خلافة
فظل في نصحه مليم

دور

دعني على منهج التصابي
ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المنى عتابي
فلست أصغي إلى عتاب
لا ترجُ ردى إلى صوابي
والكأس تفترُ عن حباب
والغصن يبدي لنا انعطافه
إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه
واختال في برده الرقيم

كما أوردنا هناك بعض أشعار أخيه أبي علي والسلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن،

وأبي فارس عبد العزيز، وأبي سعيد عثمان بن يعقوب المنصور، وأخيه أبي مالك.

وفي فصلنا هذا سنحاول إلقاء أضواء غير معتمة على شخصية السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن وآثاره الأدبية بوصفه أحد شوامخ هذه الدولة؛ بما شيده من دور العلم ومدارسه وزواياه وبما تبناه من الحركة العلمية لعهده، وما نظمه من مجالس العلم والمناظرات والمحاضرات.

وفي هذا المجال نحب بادئ بدء أن نشير إلى أن شخصية أبي عنان ـ رغم ما أحيط بها من هالات الإكبار والتمجيد، وبخصوص تجلي صاحبها في ميادين العلم والفكر، ـ لم تحظ من معاصريه بما حظي به أبوه أبو الحسن مثلا، حين وضع في مناقب هذا الأب ابن مرزوق كتابه (المسند) كما لم يتصد أحد حتى الآن ـ فيما نعلم ـ لتخصيص دراسة مستفيضة دقيقة عنه وعن عصره، تتناول مختلف جوانب شخصية المتعددة النشاطات، وكل ما حظى به إنما هو شذرات هنا وهناك، وجذاذات من أخباره العسكرية والسياسية، وإشارات إلى اهتماماته الأدبية، مفرقة بين مختلف الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية التي كان يحيا فيها، أو تلك التي قبلها أو بعدها مباشرة، ثم كل ذلك بمجرد التعليق السطحي أو السرد المجرد، الشيء الذي لا يجعل مهمة كتابة شيء مدقق عنه سهلة، أو متأتية بيسر. ومن أهم المراجع التي اعتمدناها في هذا الفصل وفي بحثنا عن الرجل وما نورده من آثاره، نفح الطيب للمقري، وروضة النسرين لابن الأحمر، ورقم الحلل في نظم الدول للسان الدين بن الخطيب، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري أيضا والجذوة لابن القاضي، وأخيرا الاستقصاء للناصري السلوي.

على أنه من الملاحظ ـ ابتداء ـ أن كل الذين تناولوا أبا عنان من أصحاب تلك المراجع هذه، ركزوا بحوثهم على سرد أو تحليل الجوانب العسكرية والسياسية من حياته، وبالأخص ما تعلق بمدى تفاقم النزاع بينه وبين أبيه أبي الحسن حول الاستيلاء على العرش، حتى إذا تناولوه علميا وأدبيا اكتفوا بإطلاق أمثال هذه العبارات التي حلاه بها ابن الأحمر في نثر الجمان حين قال : (كان فقيها يناظر العلماء، عارفا بالمنطق، وأصول الدين، وله حظ صالح من علمي العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن، عارفا بناسخه ومنسوخه، حافظا للحديث، عارفا برجاله، فصيح القلم كاتبا بليغا، حسن التوقيع شاعرا).

وقد نقل ـ بالحرف تقريبا ـ هذه التحلية كل من ابن القاضي في الجذوة، والناصري في الاستقصا، أما ابن الخطيب في رقم الحلل فقد حلاه بهذه العبارة : (العالم العلم...) وأما في الإحاطة فقد قال عنه : (1 ـ وهو يذكر التجاء أبي القاسم محمد بن يحيى البرجي ـ :... وتوسل إلى ملكها مجدد الرسم، ومقام أولي الشهرة، وعامر دست الشعر والكتابة أمير المسلمين أبي عنان) نفح الطيب ج ج 2 ص 173... ثم يشير أولئك المعلقون في اقتضاب وعبارات عامة مجملة إلى اعتنائه بإنشاء مدارس العلم وزواياه واستجلاب العلماء إلى حضرته. وفي هذا الموضوع يقول ابن الخطيب (... بنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام). ويقول المقري في أزهار الرياض : (...ولما كان غرض أبي عنان كبير ملوك بني مرين من بناء مدرسته المتوكلية بفاس، وكان بعيد الصيت في علو الهمة، قال : انظروا من يقرئ بها الفقه، فوقع الاختيار على الشيخ الصرصري).

وفي مدرسة أو زاوية أبي عنان المتوكلية هذه يقول ابن جزي :

هـذا محل الفضل والإيثار
والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى
فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد
لابن السبيل، وكل ركب سار
آثار مولانا الخليفة فارس
أكرم بها في المجد من آثار
لازال منصور اللواء مظفرا
ماضي العزائم سامي المقدار

بنيت على يـد عبـدهم وخـديم بـ
ـا بهم العلي : محمـد بن جـدار
في عـام أربعـة وخمسين انقضت
من بعـد سبـع مئين في الأعصـار

ثم إذا كانت هذه النعوت لا يمكن لوحدها أن تقوم دليلا على علمه وتضلّعه، فإن الحادثة التالية التي أوردها المقري عن بعض المناوشات التي كانت تجري في مجالسه قد تقوم دليلا على علو كعب الرجل في ميدان نقد الحديث دراية على الأقل، قال المقري : (...رأيت بخط أبي داوود الأندلسي، ثم التلمساني ما نصه : وجدت بخط الرملي ما نصه : حدثنا الشيخ ابن عرفة رضي الله تعالى عنه عن الشيخ القباب الفاسي عن الآبلي قال : أورد السلطان أبو عنان على فقهائه الجلّة في قول عائشة رضي الله عنها في حديث مسلم (...فتوفي رسول الله، وكان مما يقرأ : خمس رضعات يحرمن الحديث... قال أبو عنان : ويلزم على هذا الخلف في خبرها، أو عدم حفظ القرآن وكلاهما محال ؟ قال الآبلي. فكت الحاضرون جميعهم...).

ثم أورد المقري جواب أبي سعيد بن لب عن إشكال أبي عنان الذي أوضح فيه بأن القضية تتعلق بما نسخ من القرآن، وأن النسخ ـ لعله ـ لم يبلغ عائشة في هذه القضية، ثم أضاف بأن الزعم بأن القرآن على قسمين ـ أي كما هو جواب الآبلي ـ : 1) متحدى به، وهو المعجز، 2) وغير متحدى به، والأول محفوظ، بخلاف الثاني، بدليل هذا الحديث هو في محل المنع، ولا يقبل، لأن التقسيم أصلا يحتاج إلى دليل ولا يوجد.

ويقول ابن الخطيب القسنطيني ـ مذيلا لكلام الآبلي وابن لب ـ : (إن سوءال أبي عنان ورد أساسا في أسئلة مجموعة منسوبة إلى أبي عنان، وأن المسألة اعتيد فيها الكلام في كتاب (مرتقى الوصول إلى بناء الفروع على الأصول) للسيد أبي عبد الله الشريف السبتي. وكأن هذا التذييل من القسنطيني يعني أن ليس أبو عنان هو الذي أورد الإشكال لأول الأمر وإنما سبقه إليه غيره، وأن أبا عنان بدوره أراد أن يعرف رأي علماء عصره فيه، ولكنه على كل حال، فهو من جهتنا يدل على أن الرجل كان مهتما بالدرس والاطلاع.

على أنه من الطريف جدا ـ وفي مجال اهتمامات أبي عنان الثقافية ـ الإشارة إلى أن اهتمامات هذا الرجل بمفهوم الثقافة العام، لم يكن ينصب فحسب على الجوهر أو المحتويات والمضامين، ولكن كان ينصب كذلك ـ وبنفس الحرارة والإصرار ـ على صور وأشكال تلك الثقافة، ويتقصى بالخصوص حركات رجالها الأكثر اتصالا به، ويتعرف على مدى اهتمام هؤلاء الرجال بتنمية حصيلتهم العلمية، وعلى ما إذا كانوا عمليا يتساوقون وما يتجدد من بحوث، ويستكشف من آراء ذات الفعالية والجدوى، أو ما إذا كانوا على العكس من ذلك يقتنعون بأن ينطووا على أنفسهم دون أن يفتحوا نوافذ على العوالم الخارجية وينكفئوا على ذواتهم المنغلقة يجترون سالب النظريات ويتقوقعون داخلها في طوباوية فجة مبتسرة.

ثم إذ هو يراقب علماء حاشيته وفقهاء شعبه، لا يكتفي بمجرد إبداء الاستحسان للمحسن دون مكافأة، أو بمجرد التنبيه للمقصر دون توجيه هادف، وإنما يثيب المحسن خير الثواب وأجزله، ويذكي همة المقصر أو المتهاون ويشجعه على بذل المزيد من الجهد والتضحيات، للمحافظة على المستوى المطلوب لدى أقرانه ولداته. وللتدليل على ذلك نورد القصتين الطريفتين التاليتين.

الأولى : اختير الشيخ الصرصري ـ كما أشرنا قبل ـ للتدريس بالمدرسة العنانية المتوكلية كأستاذ لكرسي الفقه، ولما نصب وباشر مهمته، واتسع صيته، حتى لقد بدا منه ما قد يشعر بأنه أخذ العجب من نفسه، وذلك حين رفض ـ وهو في مكانته تلك ـ أن يتلقى العلم من غيره أو يأخذ الرواية عن سواه، وجه إليه أبو عنان من يسأله في مسائل من كتاب (التهذيب) الذي كان يدرسه بطريقة تفهم أنه انفرد بإتقان هذه المسائل وحفظها، وأصدر أبو عنان أوامره لمن وكلت إليه مهمة السوءال أن يحقق ذلك ويتقنه من صدره بدون الاستعانة بالمصادر والمراجع ودون الاعتماد

على غير حفظه. - وهنا بيت القصيد كما يقولون - قال المقري فتصدى لمهمة توجيه السؤال إلى الصرصري كل من أبي عيسى موسى بن الإمام، والشريف عبد الله شارح الجمل، فطالباه بتحقيق ما أورده من المسائل عن ظهر قلب على المشهور من حفظه، فانقطع انقطاعا فاحشا، ولما أضجره ذلك نزل عن كرسيه وانصرف في غاية القبض... ولما اشتهر ذلك عنه وجه إليه أبو عنان، فلما مثل بين يديه أنسه وسكنه، ثم قال له : أنا أمرت بذلك، كي تعلم ما عندك من العلم، وما عند الناس، وتعلم أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد، فلا يجب أن تتكل على حفظك، وتقتصر على ما حصل عندك، ولا يمنعنك ما أنت فيه من التصدي عن ملاقاة من يرد من العلماء، والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك في رتبتك عندنا إن شاء الله. تلك هي القصة الأولى.

أما الثانية : فهي تلك التي أوردها ابن القاضي صاحب الجذوة، وقد جاء فيها : (صعد أبو عنان صومعة القرويين ليعتبر المدينة وترتيبها، فوقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك، وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام) والرجل - يعني أبا عنان - بالإضافة إلى ذلك يومن بقيمة الحق والذود عنه والصراحة في القول ويقدر صاحبهما، روى ابن الخطيب قال :

(حدث في أحد مجالس أبي عنان بفاس حيث كنت حاضرا أن أجرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما اعتقدت في إطراء ذلك الرجل وما عرفته من فضله، وأنكر علي بعض الحاضرين، ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي عنه، وقلت : أيدكم الله، تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير، وهو الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير، فيكون أشد للحسرة، وأوكد للفضيحة، قال ابن الخطيب - فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه، وخجل المعترض (أزهار الرياض ج 1 ص 287).

ومن باب تقديره الأكفاء من الرجال، ما ذكروه عنه من التقدير الخاص الذي كان يبديه للمنقطعين للعبادة حقيقة، وللتنسك الصادق، وقد تلى هذا التقدير في موقفه الرائع من أبي العباس أحمد بن عاشر الأندلسي دفين سلا، حين رفض هذا السماح لأبي عنان بزيارته رغم المحاولات التي قام بها أبو عنان في هذا المضار مرتين، قالوا، فما أحس أبو عنان امتعاضا من تمنع ابن عاشر ولا رأى في رفضه عبثا ولكنه تقبل منه رسالته الوعظية بحفاوة وإكبار.

وضمن اهتماماته بأشكال وصور الثقافة يمكن إدراج ما حلّى به دواته ومحبرته الخاصة من نقوش كانت عبارة عن أبيات شعرية من نظم أبي العباس السبتي وقد جاء فيها :

أنـــــا دواة فـــــارس
أبي عنـــــان المعتمـــــد
حلفت من يكتب بي
بـــالـــواحـــد الفرد الصمـــد
أن لا يمـــــد مـــــدة
في قطـــــع رزق لأحـــــد

أما اهتمامه بالطقوس الدينية فأدلته أكثر من أن تحصى، ومن ألطفها النادرة الآتية :

أمره بتنصيب صار خشبي بأعلى صومعة القرويين إثر زيارته لهذه الصومعة كما قد أشرنا من قبل، ينشر عليه علم في أوقات الصلوات النهارية، وتنصيب فانوس (فنار) به سراج مزهر يوقد أثناء أوقات الصلوات الليلية.

قال - وهو يملي تعليماته فيما يخص هذا التنصيب معللا عمله - ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء.

وفي هذه المأثرة الكريمة التي ما تزال جميع مساجد المغرب الجامعة تلتزمها يقول بعضهم :

نـــور بـــه علم الإيمـــان مرتفـــع
للمهتـــدين بـــه للحـــق إرشـــاد
يـــأتون من كـــل صـــوب نحـــوه فلهم
لـــديـــه للرشـــد إصـــدار وإيراد

وأبو عنان المتوكل على الله هو فارس بن أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني،

شهدت عيناه النور بالمدينة البيضاء فاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 729 هـ وأمه أم ولد رومية تدعى (شمس الضحى).

وقد اقترنت خطواته الأولى على هذه الأرض، وهو يتقولب ويتبرعم، ويتقبل الحياة العامة بالاستقامة الخلقية والإقبال على حفظ القرآن ومزيد الدرس والتحصيل مما جعله محط إعجاب قومه وعشيرته محبوبا من الجميع أثيرا عند والده، متميزا على سائر إخوته، لفضله وعلمه وصيانته وعفافه واستظهاره القرآن كما يقول صاحب الاستقصاء.

وقد أغرت كل هذه الارهاصات المبشرة بالخير والفلاح أباه الشغوف بالعبقرية وجعلته يقرر دون تردد إسناد ولاية عهده لهذا الابن المبارك الطليعة الميمون النقيبة، وهكذا أخذ له البيعة الشعبية العامة بولاية العهد في سن مبكرة نسبيا يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول سنة 749 هـ ثم سارت العلاقات بين الأب وابنه رخاء، واقترنت كل أعمال أبي عنان ولي العهد أثناء تحمله مهامه السياسية الجديدة بما زاد من إعجاب والده به، شجاعة نادرة، كرم حاتمي ـ شغف بالعلم والعلماء، واعتناء بكل شؤون الدولة وسائر اهتماماتها الكبرى.

وقد شجع كل ذلك أبا الحسن على أن يضع كل مقاليد الدولة ـ تقريبا ـ بين يدي أبي عنان ساعة قرر مغادرة المغرب في اتجاه تونس للعمل على استعادة وحدة المغرب العربي الكبير إلى ما كانت عليه تلك الوحدة أيام المرابطين والموحدين.

وبدا والأب يباشر آخر الترتيبات لإنهاء مخططه لمعركة تونس ـ أن كل شيء سائر على ما يرام وحسب الخطة المدروسة بإحكام، ولكن الرياح جرت بما لم تشته السفن ولم تمهل الأقدار أبا الحسن لإنجاز مشروعاته الوحدوية، إذ لم يكد ينتهي من الحروب الطاحنة التي اضطر لخوض غمارها ضد فلول الموحدين المعتصمين بتونس، ويأخذ في تنظيم وجوده بما يكفل الاستقرار للعهد الجديد، حتى فوجئ بوباء الطاعون يتفشى في كل أرجاء القطر التونسي، ويحدث هذا في وقت بدا فيه أن اتخاذ الأهبة لإطالة مكثه هناك شيء ممكن لاستتباب الأمن نهائيا ولركون الناس إلى استمراء معطيات الوحدة وما تزخر به من نعم الاتحاد، كما تجلى انقياد الناس للحتمية التاريخية التي فرضت وتفرض نفسها ـ وما تزال ـ على سكان هذا الجزء من العالم، والتي تؤكد أن وحدة حقيقية كاملة بين أقطار الشمال الإفريقي ـ بما فيها ليبيا وموريطانيا وربما مصر كفيلة بنشر ألوية السلام بين هذه الربوع، وبصيانة وحفظ التوازن الدولي في هذه المنطقة.

وانتشر الوباء الفظيع، وتناقل الناس أنباء بصورة مشوهة ومبالغ فيها وربما أضافوا إلى الحقيقة كثيرا مما صوره لهم خيالهم المجنح، إذ في مثل هذه الظروف يتزيد الناس في الأخبار ويبالغون فيها ولا يتحرزون أو يميزون بين الصادق والكاذب أو المدسوس لغرض ما، ووسائل الموصلات لم تكن سهلة ولا متيسّرة بالدرجة التي تجعل الناس يتثبتون مما يسمعون أو يفرقون بين الصحيح منه والزائف وساعدت هذه العوامل الجهمة الكالحة التي زاد من جهامتها تضارب الأنباء عن مصير أبي الحسن نفسه، ساعدت على مضاعفة حذر ولي العهد من كل شيء ومن كل أحد كما ضخمت مهامه كمسؤول أول في الدولة عن كل شؤونها وقضاياها، الجليل منها وغير الجليل، وبالأكثر حينما أشيع في سبتة صورة رسمية أن أبا الحسن كان من بين ضحايا ذلك الوباء.

فكان أبو عنان إزاء هذه الأنباء الفاجعة المتضاربة مضطرا لأن يتخذ القرار الحاسم الذي تمليه الأحداث وكان لابد من اتخاذه ولو لوضع حد للأراجيف وقطع الطريق على الطامعين والمصطادين في الماء العكر.

ووجود حكم مركزي قوي في مثل تلك الظروف الحرجة التي كانت تجتازها هذه الأوضاع في أقطار المغرب العربي ضرورة لازمة وراهنة، فإقامة أبي الحسن بتونس لم تكن إلا على أسنة الحراب و(ابن يتفراجين) صنيعة ويد الموحدين هناك، والذي عاد من مصر حيث كان التجأ غداة انتقال الحكم من الموحدين إلى المرينيين، ما يزال يتحين الفرص ويتربص الدوائر بأبي الحسن

ووجوده كلية بتونس، وهو ينتظر سنوح فرصة الانقضاض عليها أو استعادة حكم الموحدين الذي لن يكون إلا ستارا ومرقاة لإقامة إمارة أو سلطنة انفصالية له هناك، وبنو عبد الواد بالجزائر وتلمسان، والذين كانوا طيلة الدولة المرينية يحاولون الانفصال عن الحكومة المركزية بفاس لتكوين وإقامة دولة مستقلة لهم ذروا قرونهم وتنمروا ضد الوجود المريني مستغلين الفوضى والاضطراب، وأبناء أبي الحسن أنفسهم لم يكونوا باستثناء أبي عنان - سوى ألهية في أيدي الوزراء وذوي النفوذ من الحاشية...

وأمام هذه المضاعفات والمتناقضات ما كان لأبي عنان - أن يتقاعس عن أخذ زمام المبادرة لإعلان نفسه سلطانا شرعيا لدولة بني مرين، وهذا ما فعله وكان محقا ومصيبا.

لكن إذا كان يبدو طبيعيا ما اتخذه أبو عنان من قرار، ولو إلى ما قبل التأكد من وجود أبيه على قيد الحياة على الأقل، باعتبار أن الرجل كان مبايعا بولايته العهد قانونيا بالإضافة إلى أنه كان يباشر مسؤوليات الحكم ويتصرف فيه شؤون الدولة عمليا، فإن تطور الأحداث الناتج عن ظهور السلطان أبي الحسن حيا يرزق، بعد أن طوحت به الأمواج - كما سبق أن أشرنا - إلى ساحل من السواحل المغربية وحينا بفضل تمسكه بلوح خشبي أو لسبب آخر، دون بقية أفراد حاشيته الوافرة العدد، التي كانت تضم - فيما قيل - ما لا يقل عن أربعمائة عالم من الأفذاذ والفطاحل، لقيت حتفها جميعا عندما غرق أسطول أبي الحسن المؤلف من مئات القطع إثر عاصفة عاتية في الأمواج أقول إن تطور الأحداث ذاك وضع صاحبنا أبا عنان في وضع حرج ودقيق للغاية وإن لم يكن له منه مناص ولا محيد، فهو قد أعلن نفسه ملكا على البلاد، في ظروف أعطت عمله مشروعية وقانونا لا غبار عليهما، ولا يدفيهما لغير الأقدار، وهذا الإعلان يقتضي - ولاشك - إحداث تغيرات جذرية في كل من طريقة تناول القضايا المطروحة ومن تحديد الاختيارات، كما يقتضي ذلك أيضا إعادة النظر في كثير من المواقف وغير قليل من الاستراتيجيات، وضرورة سن طرق وقوانين جديدة تتلاءم والظروف المستحدثة، ثم إن كل تقصير وتراجع من أبي عنان عما اتخذه من قرارات ومواقف إلى الخلف بعد ما أعلن نفسه سلطانا ما كان ليفسر إلا أنه ضعف وخور، وما كان ليؤدى إلا إلى ما لا ينفق وواقع المغرب المريني، بل قد يؤدي إلى انتكاسات خطيرة أقلها حدوث تصدع في صنائع الدولة وحاشية السلطان.

إلا أنه ومع كل ما تمحلناه من أعذار لأبي عنان، فإن ما حدث من مواجهة وتحد سافرين بينه وبين أبيه، وبالنسبة لما كان بيهما من تواجد وتعاطف تجاوز حد «الإعجاب، ما كان ليستاغ أخلاقيا، مع ما حمله عمليا من تعريض وجود الدولة للتضعضع وتعريض استقرارها للتقلقل، وتعريض الوحدة الوطنية نفسها للتصدع والانهيار، إذ يجب أن لا ننسى أن هذه المواجهة بين الأب وابنه كانت أول إسفين يصيب الوجود المريني بالشك.

ثم نحن لا نشك في أن كلا من الرجلين الأب وابنه أحسا شدة الحرج من مواجهة بعضهما البعض ولما خطورة عملهما وهما يواجهان مصيرهما الحربي المحتوم، ولكن عندما تستعرنا الأهواء البشرية وتتحكم الأنانية ينحجب التعقل، وتنزوي الروية وتنطلق أبالسة الرعونة من عقالاتها، ثم يفلت الزمام من أيدي الجميع، وهذا ما حدث بين الأب وابنه حين قررا معا المواجهة، إذ لم يستسغ أبو الحسن ما أبداه أبو عنان ابنه من تحد ورفض الخضوع له، وزاد في حنقه رفضه قبول الأمر الواقع فركب رأسه - كما يقولون - ولم يجد الابن من جهته بدا - وأمام ذلك الواقع الذي شرحنا بعض مظاهره لم يأت في رأينا إذا برفضه التنازل لابنه والعودة إلى مكانه كولي للعهد - من المضي في طريقه وعدم التخلي عن الحكم لمن حاربته الأقدار وأدبرت من الدنيا أيامه، لأنه رأى أن هذا التنازل - ولو في نظره على الأقل - لن يكون معناه إلا إتاحة الفرصة لأعداء الدولة، لا في تونس والجزائر فحسب، وإنما في تلمسان وفي هنتاتة بالجنوب المغربي لمباشرة انتقاضاتهم الانفصالية ومدها بالوقود.

وإزاء هذه التقديرات، ولغيرها مما خفي عنا نحن، التي لها من الوجاهة الحظ الأوفر قرر أبو عنان أن يخوض ضد أبيه معركة مصيرية بالنسبة لوجودهما معا.

وإذا لم يكن في وسعنا أن نخلي هذه المعركة المصيرية من جانب أبي عنان من عناصر الغرض الشخصي، فإنها من جهة أخرى، تستجيب لغير قليل من الصواب وتتجاوب مع كثير من مصلحة الوطن العليا.

وحدثت المواجهة ـ وكان أمر الله قدرا مقدورا ـ ثم تمت فيها الغلبة للابن على أبيه أو للحاضر والمستقبل على الماضي، وانخذل عن أبي الحسن أنصاره الهنتاتيون وأيدت الأقدار أبا عنان وسعد الطالع وإقبال الأيام، وتم له الأمر نهائيا حين استشهد أبوه، الذي كان آية الآيات في الإيمان بالله والوطن ووحدته ووحدة المغرب العربي الكبير، ولله في خلقه شؤون...

والآن لنلق نظرة على آثار أبي عنان الأدبية وموقف هذه الآثار أمام كل التيارات التي تعاورت حياته :

آثار الإنسان مرآة نفسيته، وانعكاسات عقليته، والنفسية والعقلية بدون شك جماع الرسوبات والمؤثرات التي كيفت البيئة والمناخ اللذين عاشتا في كنفهما وترعرعتا في أحضانهما.

ومن ثمة فليس من الممكن بل ولا من المستطاع أن تطلب من الناس ما لم يعيشوه ويحسوه ويدركوه، إلا أن تحملهم مهما أوتيت من قوة ـ على التفصي من معطيات مجتمعهم، وما شحنت به هذه المعطيات من رسوبات مختلف العصور، أو علق بها وواكبها من آثار الآن المعيش... هذه واحدة :

ثم من المقطوع به أن لكل ظرف اهتماماته وقضاياه الخاصة، كما أن لأهله والعائشين فيه اختياراتهم واتجاهاتهم.

وهذه ثانية :

ثم من المؤكد أن الشؤون سواهما إن لم تأت في الدرجة الثانوية، فلن تكون قطعا في المقدمة، حتى ولو حققت من الحضارة والمدنية ما يثير الإعجاب، ويبعث على الدهشة والاستغراب، ذلك لأن غير الشؤون السياسية والاقتصادية بما فيها القضايا الفكرية الطوباوية المجردة ـ تحتل دائما من حيث الواقع الإنساني ـ مرتبة ما بعد الطعام، وبعد مرتبة ما ييسره ويوفره ويحقق ضمانه.

وهذه ثالثة :

وإذا كانت العرقية والوارثة لهما من التأثيرات على تكييف الإنسان وصبغه ومواقفه الخاصة والعامة من المجتمع وقضاياه، ما لا مجال لإنكاره...

وهما بالتالي يؤثران عليه من حيث انتهاجه هذا السلوك دون ذاك، واعتناقه هذا المعتقد دون الآخر، فإن الواقع المعيش يؤثر بدون ـ وربما بصورة أبرز وأوضح وأكثر كثافة وعمقا على آثار الإنسان الفكرية والثقافية قوة وضعفا، عمقا وضحالة، كثرة وقلة، وعلى كل ما يتصل بالذاتية تعهدتها أو الآنا والآداب والثقافة المجردة عامة، فإنهما لا يخرجان عن كونهما معاناة شخصية، وخاصة لذاتية المثقف أو الأديب...

ومن هنا، وتقديرا لكل الاعتبارات الآنفة الذكر ـ نستطيع أن نؤكد، أنه إذا كان انحدار أبي عنان من تلك الأم الرومية، كان يمكن أن يكسبه حساسية مرهفة وأن من غير المستحيل أن تكون الأم قد تعهدته بالصقل والرعاية، تقديرا للمهام الخطيرة التي كانت تنتظر ابنها ولي العهد، والتي يبرز في مقدمة عناصر نجاحها التمكن من ناصية البيان العربي عن طريق الإسهام في أبرز مجالات تلك الناصية أعني العلوم الدينية والعربية والشعر والأدب عامة، ولو لمجرد تثبيت عروبته المتقلقلة رغم كل ما كتبه ابن خلدون عن أصول وأورمة البربر ورغم كل ما تمحله الذين اختلقوا لها الأسانيد، فإن المواجهة والتحدي اللذين أرغم عليهما أبو عنان ضد أبيه بصفة خاصة، وأن مختلف الحروب التي كان عليه أن يخوضها للتهدئة واستتباب الأمن في الداخل، وللحفاظ على وحدة المغرب العربي في المغربيين الأوسط والأدنى بصفة عامة ما كانت لتمر دون تخلف آثارها العميقة المحزنة في نظر أبي عنان للحياة كلها وللناس كلهم بل ولكل شيء يتصل بالحياة والناس، ودون أن تحول كثيرا من اتجاهاته التي كونها قبل أن يتحمل

مسؤولية الدولة بانفران هذه المسؤولية التي تعني في كل الظروف الاهتمام أولا وقبل كل شيء بالشؤون العامة...

وبالدرجة التي تجعل الاهتمام بسواها من قضايا الفكر المجردة، - وفي مقدمتها الشعر والأدب - تأخذ المرتبة الثانية من اهتماماته، وهذا ما قد يوضح لنا ضحالة آثار أبي عنان إذا قيست بما وصفت به من قوة وكثافة وعمق، وما وصف به هو من علم واسع، ودراية عميقة وإدراك فائق.

ثم للتدليل على خطورة الحروب التي أدت إلى تقلقل الأوضاع الداخلية لدولة أبي عنان، وانعدام الاستقرار الذي لابد من بعضه لقيام حركة أدبية نشيطة، نحب أن نشير قبل إيراد الطفيف مما عثرنا عليه من آثاره الأدبية - إلى حروبه الثلاثة الآتية، التي استنزفت قوته، وإن لم تهزمه، واستحوذت على كل تفكيره بما لم يدع له مجالا ووقتا كافيا لمعاناة موضعية مركزة لسواها من الشؤون.

أولا حربه مع الإيالة الزيانية : التي كانت تتخذ من تلمسان عاصمة إمارتها وقاعدة دستها، وكانت إمرتها لعهد أبي عنان بيد أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني الزناتي.

وحين تم لأبي عنان الأمر بالمغرب واطمأن إلى أبد من أمن وهدوء، وخاصة بعد دفن شلو أبيه بمقبرة شالة وبجوار قبر أمه التي كانت توفيت قبل ذلك، ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة (750 هـ)، فكر في استعادة بنفوذ بني مرين على المغربيين الأوسط والأدنى. وإذ كانت تلمسان المعبر البري الوحيد لذينك الإقليمين فقد قرر أن يضم أولا تلمسان حيث كان أسس - كما أشرنا قبل - بنو عبد الواد إمارة لهم شبه مستقلة وتنفيذا لمخططه هذا نادي أوائل سنة (753 هـ) بالعطاء، وأزاح العلل وعسكر ساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان، قال في بغية الرواد، تعليلا لمهاجمة أبي عنان أبناء عبد الواد. (أن الامر كان بين أبي عنان وبين ملك تلمسان أبي سعيد على ما ينبغي إلى أن كتب أبو عنان لأبي سعيد متشفعا في مغراوة الذين كانوا محاصرين من طرفه، فرد شفاعته فحنق على بني عبد الواد واستفز الناس لغزو تلمسان).

وتلاحم الجيشان ببسيط أنكاد آخر ربيع الثاني من نفس السنة ودارت الدائرة على التلمسانيين الذين كانوا بقيادة كل من أبي سعيد وأخيه ومن وزيره أبي ثابت، واعتقل الإخوان وقتلا صبرا بإشارة الفقهاء وأرباب الفتيا الذين أدانوهما بالحرابة التي تقول فيها آية المائدة : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) الآية (وهكذا استضاف - حسب تغيير رقم الحلل في نظم الدول ص : 76) ايالة الزناتية إلى الملك المريني على ما كانت عليه أيام أبيه.

وللحين هدم أسوارها كي لا تكون محل منعة على قبيلة ولا دار ملك لعدوه.

وكانت الشدة والصرامة اللتان أخذ بهما حكام تلمسان مع الاستماتة العظيمة في منازلتهم مما حمل حكام بقية المقاطعات في المغرب الأوسط : بجاية، والزواوة، وبسكرة، والزاب، على طلب أمانته. وهكذا أرسلت بجاية وفدا عنها إليه برئاسة أميرها أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء ابن أبي بكر الحفصي، فأكرم وفادته، ولكنه نحاه عن هذه المقاطعة، تجنبا لإثارة أي انتقاض وولاه على مكناسة الزيتون وعين بدله كعامل على بجاية عمر بن علي الوطاسي الذي اغتيل فيما بعد بتدبير من منصور بن إبراهيم بن الحاج أحد مشايخ المدينة وبتواطؤ حاجبه أبي عبد الله الحفصي ومولاه فارح.

وأرسل أهل بسكرة والزاب عاملهم ابن مزني...

ومن الطريف أن نذكر هنا أنه كان يوجد بصحبة هذا الوفد الزابي المؤرخ الاجتماعي الكبير عبد الرحمن بن خلدون، ويقول ابن خلدون عن هذه الحادثة (...وكنت يومئذ في جملتهم فجلس السلطان للوفد، وعرض ما جنب إليه (أي دفع) من الجياد والهدايا، وكلف يوما مشهودا... وانقلبت - يقول ابن خلدون - مع الحاجب بعد إسناد الجائزة والخلع والحملان من السلطان، والوعد بتجديد ما إلى قومي ببلدي من الإقطاعيات.

(الاستقصاء ج 3 : ص : 186)

ثانيا : الحرب التي شنها على قسنطينة، ممهدا بذلك لدخول أسطوله إلى تونس، وقد انتصر في هذه الحرب أيضا، وبواسطة هذا الانتصار تمكن من استعادة تونس، وتملكها فضبطها ثقاته، وذلك ـ كما يقول ابن الخطيب في رقم الحلل ـ في شهر رمضان من عام ثمانية وخمسين وسبعمائة هـ.

واستمرت دعوته فيها إلى ذي القعدة من نفس العام، ولولا تفرق كلمة قواده وما اكتشفه من تواطؤ بعضهم على تدبير مؤامرة لاغتياله مما اضطر معه للعودة سريعا إلى المغرب لتمكن من بسط نفوذه التام والنهائي على تونس.

ثالثا : حربه ضد أخيه أبي الفضل الذي كان انقض على السلطة المركزية مستعينا بشانجه ملك الإسبان بعد أن كان التجأ إلى أبي عبد الله السكسيوي صاحب الجبل المنسوب إليه بالسوس.

وفي هذه الحرب أيضا حقق انتصارا مبينا، وبالأخص حين اعتقل عبد الله بن الرزدالي أحد شيوخ بني عبد الواد أبا الفضل الذي خنق بسجنه بفاس سنة : 755 هـ.

رابعا : بالإضافة إلى تلك الحروب كانت تنشب هنا وهناك ثورات تختلف حدة وفتورا، ومن أخطرها تلك التي تولى كبرها وزيره وصاحب شوراه عيسى بن الحسين بن علي بن أبي الطلاق أحد شيوخ بني مرين، هذه الحرب التي نشبت سنة : (756 هـ) بجبل طارق، إلا أن حزم أبي عنان وتيقظه قضى عليها في المهد بأن قعص مثيرها برمح، وقطع ابنه أبا يحيى من وسطه، حتى أنه ظل ثلاثة أيام يتخبط ويتشحط في دمه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وهذه الأحداث وغيرها مما لم نر ضرورة إيراده، أثرت في نفسية أبي عنان وأكسبته بالضرورة خصائص متمايزة اتسمت بالمظاهر الآتية :

في الميدان العسكري : بما اشتهر عنه من شجاعة وإقدام، حتى قيل أنه كان يقوم مقام جند، في الحرب وفي ميدان الحكم، ومعالجة الشؤون العامة، تميزت بما يمكن أن نطلق عليه تناقض العظماء : أي ما اشتهر عن بعضهم ـ في أحيان من لين وتسامح يتجاوز الحد وإلى الدرجة التي يمكن أن يوصف بأنه ضعف، وفي أحايين أخرى من شدة وقساوة يتعدى ما فوق العنف وتتجاوز الرحمة إلى اللارحمة.

ذلك أن أبا عنان في الوقت الذي يتحدثون فيه عن كرمه ودماثة أخلاقه وحبه الصّراحة والصدق، ويتحدثون عن كثرة تدينه، حتى أنه لينسخ المصاحف القرآنية بيديه، ويهبها إلى المساجد الثلاثة المقدسة التي لا تشد الرحال إلا إليها، ويحبس عليه بالغ الأوقاف وطائل النفقات، بما يضمن ويحفظ سلامتها وطول بقائها، إذا بهم يتحدثون عما كان يعتريه أحيانا من قرم لإراقة الدماء، ومن شدة بالغة على خدامه وأوليائه، هذه الشدة التي سجلها صاحب رقم الحلل في منظومته حيث يقول عنها :

وكان جبارا على خدامه
ينالهم بالقسر في أحكامه

مذهبه إلا يقيل عثرة
حتى لأرباب التقي والأثره

فطرة السيف تنافي الندّره
إذ غلبت على المزاج المرة

ثم هذا التناقض قد يكون أحد العوامل التي دفعت بخاصته إلى التفكير في التخلص منه بالاغتيال، وحتى إنه عندما أحس بالوعكة التي انتابته عقب صلاة الأضحى سنة (759 هـ) وعاقته عن الجلوس إلى الناس يوم العيد على العادة، هذه الوعكة التي لم يقم منها أبدا، تسرع وزيره حسن بن عمر الفودودي، لا إلى اغتيال ولي عهده أبي زيان محمد ومبايعة طفل لما يتجاوز الخامسة من أبنائه بولاية هذا العهد، وإنما أضاف إلى جريمتيه تينك الشنيعتين جريمة الإجهاز على أبي عنان نفسه، قال وهو يباشر جريمته ـ حتى لا ترجع إليه قوته.

وكانت مدة ولاية أبي عنان منذ تنحيته أباه إلى وفاته تسعة أعوام وتسعة أشهر : وسنه لما يتجاوز حوالي الثلاثين سنة.

وفي موتة أبي عنان غير العادية تلك تقول منظومة رقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب :

ومـــات فيمـــا قيـــل شرميتـــة
بغيلـــة لنفســـه مقيتـــة
لم يغن عنـــه البـــأس والبســـالـــة
وأصبحت مهجتـــه مســـألـــة

ومن المؤكد أن أهوال الحروب التي اكتنفت حياة أبي عنان السياسية من لدن استئثاره بالسلطة دون أبيه إلى ما بعد تمكنه التام من أزمة الأمور بالداخل وإلى حين مرضه الذي وضع نهاية لهذه الحياة، قد خلفت في أعماقه آثارا مختلفة الأبعاد والمعطيات، وكونت لديه فكرة صحيحة عن تقلبات أهواء الناس والحياة مما جعله يعيش أبدا متوتر الأعصاب وعلى أهبة لمواجهة كل التحديات.

ومن المؤكد كذلك أن تلك الحياة المتقلقلة التي كان يصاقبها أبو عنان، ما كانت لتتيح له أن يحس أو يستشعر لذة الاستقرار النفسي أو ينعم إلى أقصى حد بالهدوء الفكري اللازم لإنتاج آثار أدبية تتسم بالعمق والدقة المتناهيتين، أو تبرز عملا ذا كثافة فنية مما نقف عليه لدى الشعراء المحترفين من شعراء عصره أمثال ابن المرحل والجزنائي، أو نعثر عليه عند الشعراء الحقيقيين من مختلف العصور والأجناس أولئك الذين سجلوا خالد الأعمال التي تجعلنا نسبح في أجواء ساحرة شهية.

ولهذا فنحن حين نسلط أضواء مجاهرنا الكشافة على آثار أبي عنان الأدبية، يحجبها هذا الواقع الجهم الكالح الذي يؤكد سطحية تلك الآثار القليلة الكمية الضحلة القيمة، ولكن ما هي أولا هذه الآثار شكلا ومضمونا ؟.

نظريا وتبعا للنعوت العلمية المزجاة من مؤرخي التراجم ومؤلفي الطبقات لأبي عنان يمكن أن تنقسم آثاره إلى آثار نثرية، وأخرى شعرية.

ولكنا إذا ذهبنا نتقصى آثاره النثرية، فلن نعثر واقعيا على أي أثر نثري للرجل، سوى ما أشار إليه ابن الخطيب في الإحاطة فيما يخص قيمة رسالة أبي عنان التي أرفقها بالمصاحف التي حبرها بيده وأهداها إلى المساجد الثلاثة كما أشرنا سابقا، قال ابن الخطيب يصف رسالة أبي عنان (...أنها تعلن في الخفاء ببعد شأوه، ورسوخ قدم علمه، وعراقة البلاغة في نسب خصله).

وقال صاحب كشف الظنون يصف هذه الرسالة نفسها : (أنها الدرة السنية).

ويستفاد من تعاليق المؤرخين على هذه الرسالة المنوه بها، أنها ظلت تقرأ في المدينة المنورة إلى ما بعد سنة (800 هـ).

ولكن لا أحد من هؤلاء الذين تحدثوا عن هذه الرسالة - فيما بين أيدينا من مراجع - أورد شيئا مّا منها، كما لم يوردوا شيئا من القصيدة التي قيل أنها ذيلت بها هذه الرسالة، فهل ضاعت أم أنها ما تزال مخبوءة في الخزائن الخاصة تنتظر النور والأيدي الحانية ؟

وأشرنا كذلك إلى تحدث المؤرخين عن التوقيعات القوية الرائعة التي اشتهرت عنه، ولكن لم يرد هؤلاء المتحدثون كذلك شيئا من هذه التوقيعات.

وحتى عندما تحدث ابن القاضي صاحب الجذوة مشيدا بهذه التوقيعات لم يزد على إزجاء جميل النعوت... ثم قال ومن توقيعاته... ثم سكت، وكان هناك بياض في النسخة الموجودة في الخزانة العامة للقرويين، قيل... لم يتمكن صاحب الجذوة فيما كان يرجوه أن يثبته ؟ أم أن الناسخ والطبيع معاشيا هذه التوقيعات ؟

وعلى كل حال فأمام هذا الوضع ننتهي نحن إلى الاعتراف بأننا لم نتمكن من تقويم الإنتاج النثري لأبي عنان، نظرا لانعدام شيء ما منه ؟

وأما آثاره الشعرية التي عثرنا عليها بين دفات المراجع المتوفر لدينا فهي لا تتجاوز في مجموعها العشرين بيتا، ويمكن تصنيفها مضمونيا على الشكل الآتي :

في الغزل والتشبيب نعثر له على ثمانية عشر بيتا

وفي الحكمة على بيت واحد :

وفي انتقاد المجتمع على بيت آخر يمكن اعتباره نقدا لبعض المظاهر الاجتماعية التي كانت منتشرة في تلك العهود حيث انساق الناس إلى الإيمان السلبي بالغيبيات والتظاهر بالزهد الكاذب والتصوف الزائف.

وقطعه الغزلية في عمومها تتسم بالسطحية والضحالة، وتنقصها الكثافة وعمق التجربة وحرارة الشوق اللازمة، في مثل هذه الموضوعات الذاتية، بل وتبدو بالإضافة إلى ذلك كمجرد ألهية صبيان الشعراء عندما يأخذون في تسلق جدار القمة، أو كرسم زيتي بدائي من رسوم الأطفال، وهو في نفس الوقت ذو ظلال باهتة معتمة عادية، وألوان صارخة لا يجمعها تنسيق ولا يربط بينها وحدة موضوع.

وحتى في التجربة المعيشة والذاتية الوحيدة التي عثرنا عليها والتي حاول فيها ـ كما أشرنا قبل وصف حركات وانفعالات محبوبته، وهي تقضم بأسنانها الثلجية البياض تفاحة أهداها إليها، لم يأت بشيء سوى ترديد ألفاظ، حوول في تهافت تحميلها زخارف بديع تقاعس عما أريد به.

أما البيت اليتيم الذي حاول فيه تكثيف ما استنتجه كحكمة من تجاربه في حياته المتقلقلة المهزوزة، بسبب ما صاحب تكوين دولته من رجات، فقد بدا مهلهلا ينوء بما حمله، وليس فيه من الجرس الشعري سوى الوزن والقافية، وهذا هو ذلكم البيت :

وإذا تصدر للرياسة خامل
جرت الأمور على الطريق الأعوج

وبيته المنفرد اليتيم الآخر، يشكو هو بدوره عسر الهضم، إذ هو حاول أن يعرض فيه ـ وفي ابتسار فاضح ـ حالة أولئك الذين يتظاهرون بالإصلاح ـ ويا ما أكثرهم في كل زمان ومكان ـ وهم في أعماقهم أخبث من الشيطان، وأشد قماءة من إبليس، ولكن البيت عجز أن يحمل الرعشات الإنسانية التي أريد تحميلها أياه، فبدا لاهث الأنفاس، يتعثر في خطاه، وعليه أثر الصنعة المتكلفة، يقول فيه أبو عنان :

تراهم في ظواهرهم كراما
ويخفون المكيدة والخداعا

على أن بداية هذا البيت وضمير الغيبة فيه قد يشعر أنه اقتطع من أبيات أخرى أو على الأقل من بيت سبقه أو حديث جرى، فأراد أبو عنان أن يلخصه في هذا البيت، على أنه من الممكن تمثل به.

أما أبياته الغزلية فإنك إذا حاولت استنشاق ما وراءها من عاطفة مشبوبة أو زفرة مكبوتة أو روعة مثيرة أو جيشان متوثب فياض مما اعتيد وجدانه في كل شعر رومانسي وكل أثر أدبي، إذا حاولت ذلك فإنك لن تعثر ولن تشعر إلا بموسيقى عادية جدا يمكن تفسيرها بأنها انكفاء على النفس الحبيسة، ولن تجد غير اجترار ما عودنا الشعر الغزلي الممجوج الذي شهدته عهود الانحطاط الأدبي في العالم العربي من أخيلة متقوقعة منغلقة في المحسنات البديعية الجامدة، فلا أثر للأخيلة المجنة الشائقة، ولا للجرس الموسيقي الأخاذ، ولا وجود للمعاني المكثفة العميقة، وإنما وشوشات هفهافة في محاولات بدائية، الشيء الذي يجعلنا مضطرين لتقسيم آثار الرجل بمقياس بعيدة عن المقاييس التي تخضع لها آثار فطاحل الشعراء وعباقرتهم :

وبعد فهذه هي الأبيات الغزلية التي عثرنا عليها لأبي عنان فارس بن الحسن عقد الدولة المرينية الذي وصفه معاصروه بالعالم العلم... قال في الشكوى والصد والحنين والفراق :

يا ظبية نفرت عني ففارقني
نومي فرقي على من ليس ينساك

ملكتني ففؤادي هائم دنف
وجرت رميا لما تحويه عيناك

مني علي بما أهوى، فها كبدي
تحن شوقا وأشجانا لذكراك

وفي نفس المعنى والموضوع يقول :

خليلي هذا البين جار فلم يدع
لدي اصطبارا أو فؤادا ولا عقلا

سألتكما : رفقا لحالة وامق
ومهلا على أهل الهوى والنوى مهلا

وفي نفس هذا الموضوع يقول أيضا :

جسمي أضربـــــــه السقــــــــــام
والجفن قـــــد عـــــدم المنـــــام

يـــــا هـــــا جري، مني على
أنـــــوار غرتــــــك الســـــلام

وفي وصف صدة شوقه وفي تأجج لوعته يقول :

ألف الفرار فــــــؤاديـــــــا
ففـــــدا اشتيـــــاقي نـــــاميـــــا

وأطـــــال لهف تشـــــوقي
فبـــــدا اصطبـــــاري نـــــايـــــا

وتـــــوقـــــدت نـــــار الحشـــــا
فـــــأسلت دمعـــــا هـــــاميـــــا

بـــــاللـــــه يـــــا عرب النقـــــا
ردوا علي ســــــلاميـــــــا

(في الرواية الأصلية فطلقت، وارتأيت استبدالها بكلمة أسلت) :

وفي وصف محبوبته ينشد :

يـــــا راميـــــا بـــــالنبـــــال من غنـــج
وصـــــائـــــلا بـــــالتصـــــال من دعـــج

وبـــــاديـــــا كـــــالهـــــلال في سحب
وطـــــافحـــــا من ســـــلافـــــة الفلـــج

وبـــــــــــــاسما عن لآلي نسقت
ونـــــاسما كـــــل عـــــاطر أرج

رفقـــــا بقلبي فـــــإن فيـــــه هـــــوى
ولا تطـــــل في المـــــلال والحرج

ولعله في الملام بالميم في الأخير :

وله في نفس المعنى :

صبـــــاح سعـــــد قربـــــك مني
يـــــا مشيـــــة الغصن في التثني

أشبهت بـــــدرا وفقت حسنـــــا
وزدت في الهجر والتجني

فـــــامنن بـــــوصـــــل ولا تطلبـــــه
فـــــإن البعـــــد زاد حـــــزني

فـــــأنت حـــــور، وأنت بـــــدر
وأنت بـــــدر بـــــدا بغصن

وفي الاستخفاف بالعواذل واللوام نقرأ له :

يـــــا عـــــاذلي في غرامي
دعني وطـــــول المـــــلام

دع مـتـهـــــامـــــا كئيبـــــا
جفـــــاه طيب المنـــــام

وجسمـــــه قـــــد تمـــــادى
عليـــــه فرط السقـــــام

وحبـــــه لن يحـــــولا
مخلـــــدا للقيـــــام

وله يصف معشوقته وهي تقضم تفاحة أهداها لها :

خـــــذهـــــا إليـــــك هـــــديـــــة
من كف ملـــــك مـــــالـــــك

يبـــــدي العطـــــايـــــا دائمـــــا
ويبيـــــد شمـــــل الفـــــاتـــــك

وهذان البيتان الأخيران كما نرى لا يمان المناسبة التي زعم أنهما قيلا فيها، ولا حتى مسا خفيفا، مع تسجيلهما عجزا لغويا فاضحا حين ذكر المؤنث في قوله (خذها) إلا أن يتمحل له بمجاز التنزيل أي أيها الشخص.

وأخيرا فتلك محاولة لوضع لمسات رقيقة على جوانب من حياة أبي عنان المريني وما أمكن العثور عليه من آثاره فيما اقتبسناه من المراجع المختلفة التي بأيدينا، وقد اكتفت كل هذه المراجع بإيراد هذه الآثار كنماذج، مما قد يشعر بأن للرجل ديوانا أو على الأقل آثارا أخرى فعسى أن تكون هذه المحاولة حافزة من يقف عليها لكشف المزيد من آثار الرجل، آملين نحن أيضا أن نعود إن أمكن العثور على شيء جديد من إنتاج الرجل - لدراسته دراسة أعم وأشمل وأكثر عمقا وتركيزا .

العالم الشاعر

أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي

للأستاذ عبد الجواد السقاط

من المعلوم أن عصر المنصور السعدي قد تميز ـ على مستوى الثقافة والفكر ـ بجملة من السمات جعلت منه عصرا مزدهرا، يعرف حركة علمية وأدبية تطبعها الخصوبة والتنوع، ويميزها ما أفرزه علماؤها وأدباؤها من عطاءات وإبداعات لا تزال محط الاهتمام والدراسة إلى اليوم.

ولئن كانت جملة من شخصيات هذه المرحلة قد وردت لها تراجم في مصادر مختلفة، عرفت بها، ونوهت بمكانتها ومساهمتها في الحقل الثقافي بصفة عامة، فإن واحدة من هذه الشخصيات لم تحظ بما تستحقه من عناية ودرس، بالرغم مما كانت تتمتع به من أسباب الظهور والبروز، سواء على المستوى السياسي أو العلمي أو الأدبي، تلكم هي شخصية العالم الكبير والشاعر المتفنن : **«أبي عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي»**، الذي ـ وإن عرضت له بعض المصادر ـ فإنها لم توفه حقه من التعريف وإثبات آثاره العلمية والأدبية، وإنما كان معظمها يكتفي بالإشارة إلى اسمه وتاريخ وفاته، مع بعض النماذج المقتضبة من إنتاجه الشعري بصفة خاصة.

ونحن إذ نحاول الترجمة لهذه الشخصية من خلال النتف الواردة في تلكم المصادر، نحتاج أولا إلى استعراض هذه المصادر، قبل الانتقال إلى الترجمة التي تحاول أن تنظر في الرجل من واجهات متعددة.

فأما المصادر فيمكن تبويبها في صنفين اثنين :

1) مصادر مخطوطة، منها :

• **العوائد المزرية بالموائد :** للشيخ أبي عبد الله محمد بن سعيد المرغيثي[1]، حيث أورد له المؤلف أبياتا جوابية على أخرى كان المؤلف قد خاطبه بها «على شأن مشاجرة كانت بينه وبين... أبي عبد الله بن القاضي المكناسي... في الأدب»[2].

ومطلع أبيات المرغيثي :

سـائـلاه فلم سـلا وسـلاني
كم سقـانيـه من أواني الهـوان[3]

أما جواب المكلاتي فمطلعه :

حـدهـا من إعجـازهـا في البيـان
بلغتـه وهي بنت ثمـان[4]

1) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 285.
2) المصدر نفسه ورقة 10 وجه.
3) المصدر نفسه ورقة 10 وجه.
4) المصدر نفسه ورقة 10 ظهر، ويقصد بثمان أن أبيات المرغيثي عددها ثمانية.

• **الدر المنضد الفاخر، بما لأولاد مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر :** لأبي عبد الله محمد ابن عبد القادر الكلالي الشهير بالكردودي[5]، حيث أورد له أبياتا في مدح المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي مطلعها :

حديث العلى عنكم يسير به الركب
وينقله في صحبه الشرق والغرب[6]

كما أورد له أبياتا كان قد بعث بها إلى قاضي الجماعة بفاس علي بن عمران السلاسي، عندما كان هذا الأخير سجينا، أولها :

أما لهلال غاب عنا سفور
فيجلى به خطب دجاه يثور[7]

• **أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي محمد عبد الرحمن :** لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي[8] حيث ذكره ضمن تلامذة الشيخ المترجم له، مكتفيا بقوله فيه :

«ومنهم[9] الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي المرقع ممن سمع منه وحضر مجالسه، وتوفي سنة إحدى وأربعين وألف»[10].

• **تحفة الفضلاء الأعلام، في التعريف بالشيخ أبي عبد الله البناني ابن عبد السلام :** لمحمد ابن المترجم له[11]، حيث أورد أبياتا من جملة أمداحه للمولى أبي عبد الله محمد العياشي، ذكر فيها غزوة العرائش مطلعها :

ثغر العرائش ضاحك مستبشر
جذلان، عن هذي الوقائع مخبر[12]

• **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية :** لأبي الربيع سليمان الحوات[13]، حيث أورد له المؤلف مقامة، قدم لها بقوله : «وقال في وصفه[14] الشيخ العالم الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي - رحمه الله - مقامة سماها «**المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية**»، وهي في حسن بلاغتها، وعذوب براعتها، تزري ببلاغة سحبان، وبراعة بديع الزمان»[15].

وقد جاء في مستهل هذه المقامة :

«حدثنا بشر بن مسرور، عن سهل بن ميسور، عن الضحاك بن نسام، بسنده عن بسام، قال : تراءت لي من الأماني الوجوه الوسام، وأنا من نشاط الشبيبة وافر الحظوظ والأقسام، لم يفتني من قواعد اللهو إلا الحج، فأقمت من قول القائل وظائف العج والثج :

احجج إلى الروض لتحظى به
وارم جمار الهم مستنفرا

من لم يطف بالروض في زهره
من قبل أن يحلق قد قصرا»[16]

وبعد هذه المقامة، أورد الحوات لشاعرنا أبياتا من قصيدة قالها في مدح محمد بن أبي بكر الدلائي وهي :

جبت الديار على مرور زمان
وسلكت منها ما نأى والداني

وسألت أهل الغرب عن فضلائه
وخبرت أهل الجود من تهلان

وبلوت كل الماجدين فلم أجد
لمحمد في جوده من ثان

---

5) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1584.
6) المصدر نفسه ص 115.
7) المصدر نفسه ص 124.
8) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم د 2074 من ص 1 إلى ص 119.
9) أي تلامذة الشيخ أبي محمد عبد الرحمن الفاسي.
10) أزهار البستان ص 15.

11) يوجد الكتاب في خزانة الأستاذ الكبير محمد المنوني.
12) المصدر نفسه ص 19.
13) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.
14) الضمير يعود على زعيم الزاوية الدلائية محمد بن أبي بكر.
15) البدور الضاوية ص 163.
16) المصدر نفسه ص 163.

إلى أن قال :

يــا ابن الــذين رووا أحــاديث العلى
عن خير خلق اللــه من عــدنـــان
قـــوم إذا دجت الخطـــوب وأظلمت
ودهى البريـــة فـــاجئ الرجفـــان
تركـوا سيـوف الهنـد في أغمـــادهـــا
وتقلـــــدوا سيفـــــا من القرآن[17]

• **ابتهاج القلوب، بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب** : لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي[18]، حيث أثبت بيتين برواية الشاعر العالم محمد العربي بن يوسف الفاسي الذي قال : «أنشدني صاحبنا الأديب الأريب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي بديهة - ونحن ببرج تمنطق بالجوزاء، وناجى أبراج السماء، وله إطلال على النهر، وإشراف على الروض والزهر :

نهر بـدا وسـط الريـــاض تخـالـــه
من صفــوه مثــل الحســـام المرهف
والغصن بين تمـــايـــل وتعـــانـــق
لمـــا رأى نجـل الـولي يـوسف»[19]

كما أثبت له قصيدة أخرى برواية نفس الشاعر حيث جاء بخطه قوله : «وكتب إليّ صاحبنا الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي :

يا غزالا قد تعمم بالصباحة وارتدى
وزها على البدر المنير صنياؤه لما بدا...[20]

• **كراسة من ديوان أحمد الحارثي الدلائي**[21]، حيث أورد جامعها الأبيات النونية التي مدح بها محمد بن أبي بكر الدلائي والتي سبقت الإشارة إليها في البدور الضاوية للحوات، بعدما قدم لها الجامع محلّيا : «وللإمام البارع الأديب مالك أزمة المحاسن، الوارد منها منهلا غير آسن، سيدي محمد المكلاتي مادحا لسيدي محمد ابن أبي بكر رحمه الله :

جبت الـــديـــار على مرور زمـــان
وسلكت منهـا مـا نــأى والــداني...»[22]

2) **مصادر مطبوعة، منها** :

• **فتـح المتعـال في وصف النعـال** : لأحمد المقري التلمساني[23] حيث ذكره المؤلف في معرض حديثه عن كتابه «أزهار الرياض في أخبار عياض» قائلا : «ولما ألفت كتابي الموسوم بأزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض، ورسمت فيه مثال النعل المقدسة، وذكرت بعض ما قيل فيه من القوافي المؤسسة، قال صاحبنا كاتب أسرار الخلافة الشريفة المتفيئ من دوحة عزها صاحب الظلال الوريفة، الأديب البليغ أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي الفاسي - حفظه الله - مشيرا للكتاب والمثال، واصفا ذلك بصفة ضربت بإصابتها الأمثال والأطناب، وقد رقم ذلك المثال بذهب واللاّ زوردي، فجاء في أحسن زي :

أهـــذه أزهـــار هـــذي الريـــاض
أم هــذه غــدرانهـــا والحيـــاض...»[24]

وبعد الانتهاء من هذه الأبيات التي بلغ عددها خمسة عشر بيتا، استأنف المقري كلامه قائلا : «ووصل هذا النظم الرائق بنثر من إنشائه الذي انسجم انسجام الأنهار في الحدائق، ونصه : «المملوك بقبل الأنامل، لا زالت مقبلة على الآمل، ومنذ سمع منك أيها العلم الإشارة، وقامت عنده لعمرك مقام البشارة، انتصب على الاشتغال بوصف النعال من السيادة العلمية كفيله بالتجاوز عن ألفاظها الملفوظة المذاق، وبيوتها الخاوية على عروش الأوراق، وهو معترف بما لكم عليه في ذلك من المنن والمنح، ومشتاق إلى نظرة منكم بعين الإغضاء، اشتياق الشريف لليلة السّفح»[25].

17) المصدر نفسه ص 169.
18) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 326.
19) المصدر نفسه ص 226، ونجل يوسف يقصد به محمد العربي بن يوسف الفاسي.
20) المصدر نفسه ص 227.
21) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 3312.
22) المصدر نفسه ص 9.
23) مطبعة مجلس إدارة المعارف النظامية بالهند، 1334 هـ.
24) المصدر نفسه ص 208.
25) المصدر نفسه ص 209.

كما أورد له المؤلف أبياتا ثلاثة وصفها «بالأبيات الغريبة التوليد، التي أنست ما اخترعه حبيب بن أوس أبو تمام وأبو عبادة الوليد، وهي :

أتى بريــاض في عيــاض وردهــا
مظــالم كــانت قبـل معضلـة الــداء

وفـاضت بنيـل المـاء منـه أصـابع
ومن عجب فيض الأصـابع بـالمـاء

خليلي هـــذي معجـزات لأحمـــد
فــلا تنكرا إن ردعينـــا إلى الراء»[26]

• **مرآة المحـاسن في أخبــار الشيـخ أبي المحاسن :** لأبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي[27]، حيث أورد له بيتا من تذييله على منظومة محمد بن علي الفشتالي[28] إذ قال : «قال صاحبنا الأديب البليغ أبو عبد الله المكلاتي رحمه الله في تذييله لقصيدة صاحبنا الكاتب البليغ أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي رحمه الله :

أبـو زيـد الفـاسي شلـو معظم
رثـاه حـديث المصطفى بمسلـل»[29]

• **نشر المثـاني لأهـل القرن الحـادي عشر والثـاني :** لمحمـد بن الطيب القـادري[30]، حيث ذكره المؤلف ضمن من ماتوا عام واحد وأربعين وألف، قـائلا : «ومنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي المرقع»[31]، ثم أورد له في مكان آخر من الكتاب الأبيات التي سبقت الإشارة إليها في البدور الضاوية، والتي قالها في مدح زعيم الزاوية الدلائية محمد بن أبي بكر الدلائي[32]، كما أورد له في مكان غيره الأبيات التي بعث بها إلى ابن عمران السلاسي، مع إجابة هذا الأخير عليها، والمشار إليها آنفا في الدر المنضد الفاخر[33]، علاوة على إيراده بين الحين والحين لأبيات من تذييله على منظومة الفشتالي[34].

• **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** لمحمد الصغير اليفرني[35]، حيث أثبت له الأبيات التي بعث بها إلى ابن عمران السلاسي وهو في السجن[36].

• **سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس :** لمحمد بن جعفر الكتاني[37]، حيث وصفه «بالشيخ الفقيه الأديب الناظم الناثر الأريب»[38]، مكتفيا بالإشارة إلى تذييله لمنظومة الفشتالي، وإلى أنه كان تلميذا للعارف الفاسي، دون أن يعقب على ذلك بنماذج من إنتاجه.

• **سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل عصر :** لعلي المدني المعروف بابن معصوم[39]، الذي أشار إلى أنه كان «كاتب الدولة المنصورية وأمينها»[40] علاوة على براعته في الأدب والشعر، معقبا ذلك بالأبيات التي قالها في كتاب أزهار الرياض للمقري، والتي سبقت الإشارة إليها في كتاب فتح المتعال[41].

• **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا :** لشهاب الدين محمود الخفاجي[42] حيث ذكره في معرض ترجمته لأحمد المقري التلمساني، وأورد له بعضا من الأبيات التي قالها في كتابه أزهار الرياض في أخبار عياض[43].

---

26) المصدر نفسه ص 209.
27) طبعة حجرية بفاس، 1324 هـ - 1906م.
28) سيرد الحديث عنها في موضع لاحق من هذا البحث.
29) مرآة المحاسن ص 150.
30) نشر سنة 1977 بتحقيق الدكتور محمد حجي والأستاذ أحمد توفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.
31) المصدر نفسه ج 1 ص 305.
32) المصدر نفسه ج 1 ص 342.
33) المصدر نفسه ج 1 ص 149.
34) المصدر نفسه ج 1 ص 135 - 136 - 163.
35) مصورة مكتبة الطالب، الرباط.
36) المصدر نفسه ص 241.
37) طبعة حجرية بفاس، 1316 هـ.
38) المصدر نفسه ج 3 ص 351.
39) طبعة القاهرة، 1324 هـ.
40) المصدر نفسه ص 603.
41) المصدر نفسه ص 604.
42) المطبعة العثمانية بمصر سنة 1306 هـ.
43) المصدر نفسه ص 288.

• **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** للعباس بن إبراهيم السملالي[44] حيث ذكره أثناء ترجمته لمحمد بن علي الفشتالي باعتباره صاحب الذيل على منظومة الفشتالي التاريخية، مكتفيا بذكر واحد من أبيات هذا الذيل، أشار فيه لوفاة الفشتالي وهو :

شكا الدر فقد ناظم وبكى له
بكاء محب بان عن مترحل[45]

• **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى :** لأحمد بن خالد الناصري[46]، حيث أورد له الأبيات التي قالها في مدح العياشي إثر الغزوة التي أوقع فيها بنصارى الجديدة، والتي سبقت الإشارة إليها في كتاب الدر المنضد الفاخر[47].

• النبوغ المغربي في الأدب العربي : لعبد الله جنون، حيث أورد له في باب الوصف من هذا الكتاب الأبيات الثلاثة التي أوردها له المقري في فتح المتعال، والتي أولها :

أتى بريـاض في عيـاض وردها
مظالم كانت قبل معضلة الداء

بعدما قدم لها بقوله : «للأديب أبي عبد الله المكلاتي في كتاب أزهار الرياض مورّيا»[48].

• **تاريخ تطوان :** لمحمد داود، حيث أورد له نقلا عن تحفة الفضلاء الأبيات التي مدح فيها العياشي إثر غزوة العرائش[49] وقد سبقت الإشارة إليها.

• **الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى :** لمحمد بن تاويت، حيث أثبت نموذجين من شعره، الأول موجه إلى القاضي السلاسي المتقدم، والثاني في مدح المجاهد العياشي، كما أشار إلى مقامته في مدح محمد بن أبي بكر الدلائي[50]، غير أن المؤلف جعل وفاة الشاعر بعد 1049 هـ في حين أنها كانت سنة 1041 هـ.

على أننا نستطيع - من خلال هذه المصادر - أن نخرج بتصور - ولو كان مقتضبا - عن ترجمة شاعرنا، فنكون بذلك قد رفعنا عنه بعض صفائح النسيان التي أوهنت كاهله، سواء في عهده أو في العهود اللاحقة. فإذا نحن رجعنا إلى كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا : لعبد العزيز الفشتالي - معاصر شاعرنا -[51] لم نجد للمكلاتي ذكرا مع أنه كان كاتب الدولة المنصورية كما يقول ابن معصوم. وكذلك الأمر إذا رجعنا إلى كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر لمحمد بن الطيب القادري[52] لم نجده مدرجا ضمن هؤلاء الأعيان بالرغم من مكانته وقدره.

وإذا كان هذان المصدران يمثلان التصانيف القديمة فإننا نلمس الظاهرة نفسها في بعض الدراسات الحديثة أو المعاصرة، حيث إننا لا نعثر عليه ضمن الشخصيات التي عرف بها محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي في كتابهما «الأدب المغربي»[53] ولا ضمن الشعراء الذين ذكرهم الدكتور محمد الأخضر في كتابه عن الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية[54]، من عام 962 هـ إلى عام 1074 هـ وإن كان قد تعرض إلى مقامته.

وعموما نقول إنه أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي المرقع الفاسي، من أسرة ذات شهرة وعلم، فقد قال صاحب السلوة : «المكلاتيون بيتهم شهير، كان منهم كتاب وعدول»[55].

---

44) نشرت أجزاؤه العشرة بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ما بين سنتي 1974 و1983، المطبعة الملكية بالرباط.
45) المصدر نفسه ج 5 ص 222.
46) نشر بتحقيق وتعليق ابني المؤلف جعفر ومحمد الناصريين، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.
47) المصدر نفسه ج 6 ص 89.
48) النبوغ المغربي ج 3 ص 134، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
49) تاريخ تطوان ج 3 ص 147، مكتبة الناصر، تطوان، 1959م.
50) الوافي بالأدب العربي ج 3 ص 729 - 730.
51) نشر بتحقيق الأستاذ عبد الله جنون، ثم بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم.
52) نشر بتحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت.
53) مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.
54) طبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977م ص 61 - 63.
55) السلوة ج 3 ص 351.

ويعرف بالمكلاتي الأكبر تمييزا لـه عن المكلاتي الأصغر المتوفى عام 1159 هـ والذي له ذيل هو الآخر على منظومة الفشتالي[56].

ويبدو أنه نشأ بفاس التي ولد بها في تاريخ مجهول[57] وبها درس وتعلم، حيث أخذ ثقافة العصر القائمة على التنوع والتعدد، من فقه وتفسير ولغة وتاريخ وأدب. ويكفيه سعة في العلم أن يكون تلميذا للشيخ العارف عبد الرحمن بن محمد الفاسي الذي تخرج على يده جماعة من العلماء والشعراء أمثال العياشي، وابن ريسون، والزرهوني والوزير الغساني، وغيرهم[58].

ولعل نبوغه وسعة ثقافته مما أهله ليكون كاتبا في دولة المنصور السعدي، وهو المنصب الذي لم يكن يحتله إلا النبهاء من رجال الفترة، مما يدل على أن شاعرنا كان متضلعا في اللغة والأدب، بارعا في الإنشاء والترسل، وإلا لما تمكن من أن يشغل منصبا كالذي كان يشغله، ولا سيما في بلاط خليفة كالمنصور الذي كان يشتغل بالأدب ويقرب رجاله، والذي «وإن كان في سائر العلوم علما تأتم الهداة به، فلا كفنّ الأدب، فهو الروض الذي لا تزال طيور أفكاره صادحة على أريكه، وشموس إحسانه بازغة من فلكه»[59].

وقد نتج عن هذه الثقافة الواسعة التي حظي بها المكلاتي أن صدرت عنه أعمال علمية وأدبية مثلت بعض الاتجاهات التي كانت تتوزع هذه الثقافة. فمن هذه الأعمال :

1) **كتاب «أسرار الخلافة الشريفة»**، وهو كتاب ذكره المقري في فتح المتعال[60]، ولعله جاء نتيجة لمعرفة المكلاتي الدقيقة بالخليفة المنصور، وحبا منه في المساهمة في تخليد شذرات من سيرة هذا الخليفة الذي كان ذا شأن عظيم، سواء داخل المغرب أو خارجه، وبذلك يكون المكلاتي واحدا من مؤرخي الدولة السعدية، يضاف إلى غيره من المؤرخين كأحمد بن القاضي وعبد العزيز الفشتالي وغيرهما.

2) **كتاب «شرح لامية الأفعال لابن مالك»**، وقد ذكره يوسف الزياتي، الذي وضع عليه حاشية[61]، وهو كتاب يبرهن على اهتمام المكلاتي بأصول اللغة العربية ومظان قواعدها وضوابطها.

3 **تذييله لأرجوزة محمد بن علي الفشتالي :** التي نظم فيها وفيات ابن قنفد[62]، وهو تذييل يدل على تمكن المكلاتي من التاريخ، ذلك المضمار الذي تجلى في كتابه **أسرار الخلافة الشريفة** كما تقدم، كما تجلى في هذا التذييل الذي أرخ لوفيات العديد من الشخصيات التي أغفلها ابن قنفذ والفشتالي. ولعل هذا التذييل يكتسي أهمية واضحة، إذ نجد من المؤرخين القدامى من يعتمده كمصدر لتعزيز بعض الحقائق التاريخية كاليفرني في كتابه «نزهة الحادي»، حيث نقتطف من ذلك استشهاده بأحد أبيات هذا التذييل ليؤكد به تاريخ وفاة أبي القاسم الشاطبي التي كانت عام 1002 هـ، يقول :

وأما ابن عبد الله قل شبيهه
فيالك من قاض زكي معدل[63]

وكابن الطيب القادري في كتابه «التقاط الدرر» أو كتابه «نشر المثاني»، حيث نستدل منه بأحد أبيات التذييل في تحديد وفاة أحمد بن أبي المحاسن الفاسي التي كانت عام 1021 هـ، يقول :

ولست أشك في ابن يوسف أحمد
ومسنده قد صح عن خير مرسل[64]

---

56) السلوة ج 3 ص 351.
57) لعل ولادته كانت في العقود الأخيرة من القرن العاشر الهجري.
58) انظر في ذلك أزهار البستان للفاسي ص 15.
59) مناهل الصفا، تحقيق عبد الكريم كريم ص 294.
60) فتح المتعال ص 260.
61) التقاط الدرر ص 66، وتوجد حاشية الزياتي مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 920، على أن كتاب شرح اللامية هذا قد نسب في أحد المصادر إلى يعقوب بن سعيد بن يعقوب المكلاتي، (انظر مجموعا مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم ق 1116 حيث يوجد هذا الشرح من ص 220 إلى ص 272).
62) يوجد التذييل مخطوطا بالخزانة الحسنية رقم 9676.
63) نزهة الحادي ص 171.
64) نشر المثاني ج 1 ص 163.

4) **إنتاجه الأدبي**، سواء ما كان منه نثرا أو شعرا.

فأما النثر، فله فيه تلك المقامة المشار إليها آنفا، والتي قالها في مدح زعيم الزاوية الدلائية محمد بن أبي بكر الدلائي، وهي مقامة تبرهن على تمكن صاحبها من ناصية اللغة، وبراعته في الميدان الأدبي، تلك البراعة التي عبر عنها صاحب السلافة إذ قال : «وأما الأدب فهو حامل رايته وجهبذ روايته ودرايته، إن نثر فلق الدرر وانفصت أسلاكها، أو الدراري نثرتها أفلاكها، وإن نظم فقل في ثغور الخرد النعس، انتظمت ما بين اللثاة الحو والشفاه اللعس»[65].

وتتميز هذه المقامة ـ بالإضافة إلى التزامها السجع ـ بما طعمها به المكلاتي من أشعار تدل على سعة رصيده الأدبي، وغزارة محفوظه من شعر الأقدمين، على غرار قوله فيها :

«...وما زلنا بين تلك المنازل نرمي جمار الفوائد، وترد من ذلك أحلى المصادر وأعذب الموارد، إلى أن ارتقت الشمس درجة العلاء، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فترامينا على تلك الطلال، مستحسنين قول من قال :

نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وقانا لفحة الرمضاء ظل
وقاه مضاف النبت العميم
يراعي الشمس أنى قابلتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
وأسقانا على ظمإ زلالا
ألذ من المدامة والنديم
تروع حصاة حالية الغواني
فتلمس جانب العقد النظيم

فبينما نحن كذلك، إذا برق الجو فسل علينا نصوله المذهبة، وارتفعت للغمام فساطيطه مطنبة، وجعل السحاب يسوق المراكب، وأخذ الرباب يرتب الكتائب، فتصبب عرقا، ونادم الروض فغنى وسقى، فما أغمد سيف ذلك البرق، ولا انقشع ذلك الودق، إلا والماء قد طفل، والروض في ثوب الأصيل قد رفل :

ورب عشية فيها طفقنا
نروض الظل والماء القراحا
وقد ضرب الطريف بها قبابا
على البطحاء أبهجت البطاحا
وكان جنابها يخضر آسا
فأصبح وهو مبيض أقاحا
كأن الخضر جربها يمينا
ومد عليها جبريل جناحا»[66]

على أننا ـ ونحن في مجال الحديث عن نثر المكلاتي ـ لا نستبعد أن تكون له مساهمة في ميدان الرسائل، ولا سيما أنه كان كاتبا للخليفة المنصور، مما يحمل على الاعتقاد بأن ما قد يكون المكلاتي قد أبدعه في هذا المجال ضاع ولم يصل، أو لا يزال رهينَ الإهمال بين رفوف المكتبات الخاصة، وأوراق المخطوطات والمجاميع.

وأما شعره، فإن النظر فيما وصلنا منه ـ وهو قليل ـ ينتهي بنا إلى الملاحظات الآتية.

1 ـ يبدو أن المكلاتي قد سخر شعره لخدمة جانبين اثنين هما : ذاته من جهة، ثم المجتمع الذي وجد فيه من جهة أخرى.

ففيما يتعلق بالذات نجد المكلاتي يفرز عواطفه تجاه بعض معاصريه، من أصدقائه الذين كانت لهم مكانة متميزة في المجتمع، أمثال العالم الشاعر محمد العربي بن يوسف الفاسي، وقاضي الجماعة بفاس ابن عمران السلاسي، والعالم الشاعر محمد بن سعيد المرغيثي السوسي.

وكنموذج من شعره في الأول من هؤلاء الثلاثة قوله مادحا إياه :

يا غزالا قد تعمم بالصباحة وارتدى
وزها على البدر المنير ضياؤه لما بدا

65) سلافة العصر ص 603.

66) البدور الضاوية ص 164.

وتخـــالــــه من لينـــه غصنـــا رطيبـــا أملـــدا
قـــد زارني والليـــل قـــد نشر الرداء الأســودا
وحكى لنـــا من صفـــوه أفــق السمـــاء زمردا
وأرت كـــواكبـــه المنيرة لـــؤلـــؤا متبردا
وتخـــالهـــا تلـــك المجرة للنجـــوم .... دا
وحكت لنـــا منـــه الثريـــا في إشـــارتـــه اليـــدا
وسهيـل مثـل القلب في خفقـــاتـــه طـول المـدى
وكـأن ذاك البـــدر وجـــه محمـــد لمـــا بـــدا
نجـل الـولي يـوسف أس الـولايـــة والهـــدى
رجـل سما وبنى المفـــاخر في السمـــاء وشيـــدا
إن البـلاغـــة في كمـــال واليراع بـــه اهتـــدى
لازال شمـــا للمعـــالي لا تفـــارق أسعـــدا[67]

وكنموذج من شعره في الثاني منهم، قوله مواسيا لـه وهو في السجن :

أمـــا لهـلال غـــاب عنـــا سفـور
فيجلى بـــه خطب دجـــاه يثـور
فصبرا لـــدهر رام يمحصـــك الأسى
فـــأنت عظيم والعظيم صبـــور
سيظهر مـــا عهـدتـــه من جمـــالكم
فللبـــدر من بعـــد الكسوف ظهـور
وتحيـــا رسـوم للمعـــالي تغيرت
فللميت من بعـــد الممـــات نشـور
أبـــا حسن إني على الحب لم أزل
مقيمـــا عليـــه مـــا أقـــام ثبير
ففي الفم مـــاء من بقـــايـــا ودادكم
وذلـــك عنـــدي ســـائـــغ ونمير
عليكم سـلام اللـه مـــا هطـل الحيـا
وغنت بـأغصـــان الريـــاض طيـور[68]

وقد أجابه السلاسي بأبيات من نفس الوزن والروي والعدد وهي :

تفتـــق عن زهر الربيـــع سطـــور
فمـــا هي إلا روضـــة وغـــدير
هـزمت من الصـدر الجريـح همـومـه
فـــأنت على جنـــد الكـــلام أمير
محمـــد هـل في العصر غيرك شـــاعر
لـــه محكم في الخـــافقين ظهـور
بني كـــذا هـــو الـــوداد وإنني
ســـأشـــدو وقلبي بـــالهموم كسير
متى وعسى يثني الـزمـــان عنـــانـــه
لعثرة جـــد والـــزمـــان عثـور
فتـــدرك آمـــال وتقضى مـــآرب
وتحـــدث من بعـــد الأمـور أمـور
عليكم ســـلام اللـــــه مني وإنني
غريب بـــأقصى المغربين أسير[69]

وهي إجابة لا تغفل الإشادة بشاعرية المكلاتي، وتبوأه مكان الصدارة في مجال الإبداع.

وكنموذج من شعره في الشخصية الثالثة، تلك المراسلة الشعرية التي دارت بينه وبين تلميذه المرغيتي، فقد قامت مشاجرة أدبية بين المكلاتي ومعاصره ابن القاضي الذي كان «يدعي فيه ما لم يظهر لـه»[70]، فكتب المرغيتي إلى شيخه المكلاتي يقول :

ســـائـــلاه فلم ســـلا وســـلاني
كم سقـــانيـــه من أواني الهـوان
لا وحـــق الهـوى إخـــال خليلي
طـوع أيـدي الـوشـاة حتى جفـاني
أبطلـوا في هـواه دعـواي قـــالـــوا
مـــا لـــه يـدعي الهوى وهـو وان
مـــا نراه ســـوى أخي من نراه
يـــدعي في الآداب مـــا لا يعـــاني

67) ابتهاج القلوب ص 227.
68) نزهة الحادي ص 241، ونشر المثاني ج 1 ص 149.
69) نشر المثاني ج 1 ص 149.
70) العوائد المزرية بالموائد ورقة 10 ظهر.

ويجـــاري في حمقـــه فـــارس الآ
داب والمعضــــلات شهم الجنـــــان
ليتـــه يـــدري أن شمس الضحى لم
يطفهــا النفـخ من قـــديم الــزمـــان
يـــــالعمري قضيـــــة أذكرتني
نـــافـح البــدر عـــاده الحـــدثـــان
فتسلبت عنـــــدهـــــا عن هـــواه
ســـائـــلاه فلم ســـلا وســـلاني[71]

فرد عليه المكلاتي بقوله :

حـــدهـــا من إعجـــازهـــا في البيـــان
بلغتــــيـــه وهي بنت ثمـــــيـــان
خلصت لي عشيـــــــــة وهي بكر
في حلى اللجين والعقيــــــــــــان
تتغنى حمـــــائم الحلي منهـــــا
هــل شجـــاك الغنـــاء بـــالألحـــان
زفهـــا من بنـــاتـــه خير ملـــك
هـــو أعلى الكتـــاب ذو سلطـــــان
نصرتني أقـــلامـــــه في نـــزال
فيـــــه تحلـــو عـــوالي المران
أيــــــد اللــــــــه أمره من أمير
بـــايعت فكره رعـــايـــا المعـــاني
خفف الـــوجـــد يـــا شقيـــق وهـــون
واشـــد بيتـــا يروى على الأزمـــان
من تحلى عمري بمـــا ليس فيـــه
فضحتـــه شـــواهـــد الامتحـــان
دم فريـــدا وواحـــدا في المعـــالي
مـــا تغنى الحمـــام بـــالأغصـــان[72]

وفي هذا الإطار أيضا يمكن إدراج الأبيات التي قالها في التنويه بكتاب أزهار الرياض للمقري، والتي تعتبر هانا ساطعا على ما يطبع وجدان المكلاتي من عاطفة دينية جياشة، وتعلق بشخصية الرسول ﷺ، يقول في هذه الأبيات :

أهـــذه أزهـــار هـــذي الريـــاض
أم هـــذه غـــدرانهـــا والحيـــاض
ســـالت بمـــاء التبر خلجـــانهـــا
على شـــواذ وران منهـــا البيـــاض
وأزرق الصبـــــح بهـــــا إذ جرى
تخـــالـــه نهرا على الطرس فـــاض
تمثـــال نعـــل المصطفى شكلهـــا
جعلت خـــدي تربهـــا عن تراض
ففـــاخر الترب نجـــوم السمـــا
فـــالشهب من آفـــاقهـــا في انقضـــاض
تحســـده الـــزرقـــاء في لثمـــه
فـــالبرق من احسائهـــا في انتمـــاض
نبـــه كليم الـــوجـــد من شـــوقـــه
فجفنـــه من وجـــده في اغتمـــاض
وقـــل لـــه بـــاللـــه هـــذا طـــوى
فـــاخلـع وكن في ملـــة الشـــوق راض
وانشـــق الأزهـــار من روضهـــا
واستشف منهـــا بـــالعيـــون المراض
كم بـــات معتـــل الصبـــا بينهـــا
يروي أحـــاديث الشفـــا عن ريـــاض
أيـــا إمـــامـــا جـــامعـــا للعلى
ومن غـــدت أبحـــاثـــه في افتيـــاض
أبكـــــار فكري بين أبـــوابكم
تنـــزه الأحـــداق بين الريـــاض
إليكم قـــــد رفعت أمرهـــــا
فـــاقض على الأبكـــار مـــا أنت قـــاض
قـــد بـــايعت بـــالحق سلطـــانكم
تـــوفيـــه للعهـــد دون انتقـــاض[73]

71) المصدر نفسه ورقة 10 وجه.
72) العوائد المزرية بالموائد ورقة 10 ظهر.
73) سلافة العصر ص 604.

أما فيما يتعلق بالمجتمع الذي عاش فيه، فالواضح أن المكلاتي قد خلد في شعره بعض الأحداث الهامة التي ميزت الفترة التي وجد فيها، ولا سيما في المجال السياسي، حيث نجده يتغنى بالنصر الذي حققه المجاهد أبو عبد الله محمد العياشي ضد نصارى الجديدة[74]، والذي به ازداد الإسلام نصرا، وتجلى عن أفقه الشك والريب، يقول في ذلك :

حـديث العـلا عنكم يسير بــه الركب
وينقلــه في صحفــه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كـــل مسلم
تنـال بـه الـزلفى من اللــه والقرب
فـــأنت رفيـع من أصـول رفيعـة
نجـوم الـديـاجي في الأنـام لهـا سرب
سمي رسـول اللـه نـاصر دينـه
تجلى بكم عن أفقـه الشـك والريب
ولم أر بحرا جــاوز البحر قبلكم
تجـود لمستجـد أنـاملـه السحب
ومـا يستـوي البحران عنـدي فـإن ذا
أجـاج لعمري في المـذاق وذا عـذاب[75]

كما نجده يقف عند غزوة العرائش التي قادها العياشي كذلك، متغنيا بما أحرزه هذا المجاهد من نصر، وما بذله من جهود في سبيل تخليص البلاد من الدخيل، يقول في الموضوع :

ثغر العرائش ضــاحـك مستبشر
جـذلان عن هـذي الـوقـائـع مخبر
غـاب الرمـاح تشبكت أغصـانهـا
روض المنـايـا بـالجمـاجم مثمر
هي مجمــع البحرين هــذا أحمر
ومن الحـديـد نسيـج آخر أخضر

جنـد الإلــه وحـزبــه أنصـاره
يقتـادهم يـوم النـزال غضنفر
جـاءت بـه أم الشجـاعـة واحـدا
يفنى بـه ذاك العـديـد الأكثر
فـإذا رآه المـلـوّن تهللـوا
وإذا بـدا جنـح العجـاجـة كبروا
فلـه من النصر العـزيـز قـلادة
مسرودة ومن المـلائـك عسكر
بـالله يـاريـح الصبـا عرج على
أمثـالـه من حيث سـال الكـوثر
واخلـع براويـة المقـدس من طـوى
فهنـاك من حرم الجـلالـة مشعر[76]

ولعل المكلاتي بهذا كان يعرب عن تفاعله مع أحداث عصره، منوها بالذين يساهمون في نشر ألوية الإسلام والسلام في هذه الديار، وفي هذا الإطار يمكن التذكير بالأبيات التي مدح بها محمد بن أبي بكر الدلائي باعتباره واحدا ممن كان لهم الفضل الكبير في بسط أجنحة الرخاء والاستقرار، وكذلك في نشر التعاليم الإسلامية القائمة على الإخاء والتسامح، بعيدا عن ألوان العنف أو المواجهة الحربية، يقول :

يـا ابن الـذين رووا أحـاديث العلى
عن خير خلـق اللـه من عـدنـان
قـوم إذا دجت الخطـوب وأظلمت
ودهى البريـة فـاجئ الرجفـان
تركـوا سيـوف الهنـد في أغمـادهـا
وتقلـدوا سيفـا من القرآن[77]

2 - يتضح أن المكلاتي، وإن كان قد عرض إلى موضوعات كالمدح والوصف وما إليهما، قد أغفل بعض الموضوعات الشعرية التي كانت معروفة إلى عصره، ومنها

74) انظر تفاصيل ذلك في كتاب الاستقصا للناصري ج 6 من ص 86 إلى ص 89.
75) المصدر السابق والجزء ص 89.
76) تاريخ تطوان، ج 3 ص 149.
77) نشر المثاني ج 1 ص 342، والبدور الضاوية ص 169.

الهجاء الذي لا نجد من أخباره ما يشير إلى أنه طرقه، وكالغزل الذي لم يكن يطرقه كموضوع مستقل، وإنما كان أحيانا يتوسل به كمقدمة تقليدية قبل أن ينتقل إلى موضوعه الرئيسي من القصيدة. وفي هذا الإطار نذكر بالأبيات الغزلية التي استهل بها مدحه لمحمد العربي الفاسي حيث يقول في بدايتها :

يا غزالا قد تعمم بالصّباحة وارتدى[78]

3 - من ناحية الخصائص الفنية نستطيع القول بأن شعر المكلاتي كان يميل إلى مستوى الخطاب الشعري الذي عرفه العصر، والذي كان يعتمد على مجموعة من الخصائص والمميزات المستمدة من العصور الماضية، والتي بلورها شعر الفترة في وضوح وأمانة.

فمن ذلك مثلا اعتماد المكلاتي على بعض المحسنات البديعية، حيث نصادف فيما وصلنا من شعره، بعض هذه المحسنات التي يبدو أن الشاعر قد وفق في استعمالها. وكنموذج على ذلك نشير إلى ظاهرة الاقتباس في شعره كما يدل على ذلك البيت الآتي :

إليكم قد رفعت أمرها
فاقض على الأبكار ما أنت قاض[79]

فهو مأخوذ من قوله تعالى من سورة طه : **﴿قالوا لن نوثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**[80].

وكما يدل عليه قوله كذلك من قصيدة :

وما يستوي البحران عندي فإن ذا
أجاج لعمري في المذاق **وذا عذب**[81]

فهو مقتبس من قوله تعالى من سورة فاطر : **﴿وما يستوي البحران، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾**[82].

78) ابتهاج القلوب ص 227.
79) سلافة العصر ص 604.
80) الآية رقم 72.
81) الاستقصا ج 6 ص 89.
82) الآية رقم 12.

وإلى جانب اعتماد المكلاتي على بعض المحسنات البديعية، فإنه كذلك اعتمد بعض الوجوه البلاغية الأخرى، وخاصة منها التشبيه والاستعارة، حيث جاءت صوره الشعرية قائمة على التشبيهات والاستعارات المألوفة كقوله متغزلا :

وتخاله من لينه
غصنا رطيبا أملدا[83]

فإنها صورة تكاد تكون معروفة عند معظم شعراء الغزل، سواء في المشرق أو الأندلس أو المغرب.

ولعل من أجمل صوره قوله مستغلا عنصر المجاز :

نصرتني أقلامه في نزال
فيه تحلو عوالي المران
أيد الله أمره من أمير
بايعت فكره رعايا المعاني[84]

وعلاوة على ما تقدم، فقد مال المكلاتي نحو تطعيم قصائده ببعض الحكم المأثورة، على غرار ما نلمسه في إنتاج بعض الشعراء القدامى كالمتنبي وغيره. ويتضح ذلك من خلال قوله مثلا :

سيظهر ما عهدته من جمالكم
فللبدر من بعد الكسوف ظهور[85]

وإن كانت هذه الحكمة من البديهيات والمسلمات التي لا يجهلها أو يجادل فيها أحد، مما يضفي عليها عند شاعرنا طابع الفتور والبرودة، كما هو الشأن أيضا في قوله :

وتحيا رسوم للمعالي تغيرت
فللميت من بعد الممات نشور[86]

83) ابتهاج القلوب ص 227.
84) العوائد المزرية بالموائد ورقة 10 ظهر.
85) نزهة الحادي ص 241.
86) نزهة الحادي ص 241.

على أن الشاعر أحيانا يرتفع إلى مستوى الإجادة في بعض حكمه، كقوله :

من تحلى عمري بمـــا ليس فيـــه

فضحتـــه شـــواهــــد الامتحـــان[87]

4 ـ البحور التي ركبها الشاعر تـدل هي الأخرى على انسياقه مع ما كان عليه شعراء الفترة، حيث إنه كـان يكثر من استعمال البحور ذات النفس الطويل التي تساعده على اعتماد وحدة البيت من كـامـل وطـويـل وأضرابهمـا،

وقلما نسج على بحر قصير، كـالقصيـدة التي ركب فيهـا مجزوء الكامل، ونهايتها.

لا زال شمســـــــــــــا للمعـــــــــــــا

لي لا تفــــــــارق أسعــــــــدا[88]

☆ ☆ ☆

وعلى كـل فيبقى هـذا البحث شرارة أولى من شأنهـا أن توقـد النور حول هـذه الشخصيـة المغمورة، والتي يعظم الأمل في أن يعرف صاحبهـا، وأعلام غيره كثيرون، مـزيـدا من الـدرس والاهتمام، إحيـاء لتراثنـا الـزاخر، وتـأكيـدا لمسيرتنا الأدبية المتواصلة.

87) الموائد المزرية بالموائد ورقة 10 ظهر.

88) ابتهاج القلوب ص 227.

الفيروسات (1)

ترجمة : أحمد عبدالسلام البقالي

القيروس الغازي جرثوم دقيق للغاية، فهو جزء من ستة عشر ألفا من رأس ابرة. ويتكون أساسا من صدفة ذات طبقتين أو غلاف مليء بالبروتين يحيط بقطعة دقيقة من الحامض الريبونوكلاييك (RNA)، وهو الجزئ المورث (الجين) الوحيد الخيط، وهو غالبا ما يدخل دم ضحيته عن طريق الاتصال الجنسي. أنه قيروس (إيدز).[2] وهو لا يدخل دون أن يثير الانتباه. ذلك لأن كشافة جهاز المناعة بالجسم، وهي خلايا كبيرة تدعى مفترسات المكروبات (المكروفاجات)، تشعر بوجود ذلك الدخيل الدقيق جدا، وتنبه جهاز المناعة، فتبدأ هذه في تجنيد عدد من الخلايا التي تنتج، من بين أشياء أخرى، حيويات مضادة لتواجه الخطر.

ذكاء الفيروس الغريزي

ويتجاهل قيروس (إيدز) بعناد كثيرا من خلايا الدم في طريقه، ويتجنب المدافعين القادمين إليه بسرعة، ويتوجه نحو المنسق الأكبر لجهاز المناعة، وهو الخلية المساعدة المعروفة بـ (ت). وعلى سطح تلك الخلية يجد القيروس محطة لاستقباله تلائم حجم واحد من بروتينات غلافه تماما، وتدخل فيه كمفتاح في قفل. وحين يلتصق القيروس بالخلية، يدخل غلافها، ويفقد صدفته الواقية في طريقه. وخلال نصف ساعة، يصبح خيط الحامض الريبو نوكلاييك، (ر.ن.أ)، صحبة جرثوم يحمله معه، يطفوان في السائل الداخلي للخلية، المعروف بـ (السايتوبلازم).

احتلال الخلية

وعند ذاك، يقع تحول مدهش. فبمساعدة الجرثوم يحول قيروس (إيدز) العاري حامضه (الريبونوكلاييك) إلى خيطين من حامض (الديوكسيريبونوكلاييك) أي ما يعرف بـ : (د.ن.إ) (DNA) الجزيْ الأساسي للحياة. وعند ذلك يخترق الجزيْ نواة الخلية، ويحشر نفسه داخل صبغي، (كروموزوم)، ويستولي على جزء من آلية الخلية، موجها لها لتنتج عددا أكثر من قيروسات (إيدز). وبعد مدة، تنتفخ الخلية مغلوبة على أمرها بهذا المحتل الأجنبي، وتموت، مرسلة سيلا من القيروسات لتهاجم خلايا أخرى، بما في ذلك خلايا (ت) المساعدة، و(المكروفاجات) المفترسة للجراثيم. وحين يحرم جهاز المناعة من عدد كبير من خلايا (ت) الحيوية يصبح غير قادر على شن حملاته على الالتهاب. وحين يحرم الجسم من جهاز مناعة قوي يصبح

1) عن مجلة (تايم) الأميركية عدد 3 نونبر 1986.
2) السيدا بالفرنسية : وهو فقدان المناعة المكتسب.

عرضة لعدد من الأمراض التي تستغل الموقف. ويضعف ضحية فيروس (إيدز) تدريجيا، ويموت، أحيانا خلال أشهر، أو خلال بضع سنوات من ظهور أول الأعراض. وفي الأسبوع الفارط يكون الستار قد أسدل على النهاية القاتلة لهذه التمثيلية الفظيعة في حوالي 15000 مواطن أميركي. كما أن 11.500 كانوا يتعرضون للهجوم، وبدأت تظهر عليهم أعراض المرض، ومن مليون إلى مليونين آخرين من حملة الفيروس أصبحوا معرضين في أي وقت للهجوم الكبير والنهائي.

الفيروسات

أصل الكلمة لا تيني، وتعني السائل المتعفن، أو النتن، أو السم ـ وهو معنى مناسب، ليس فقط بالنسبة لفيروس (إيدز)، ولكن للعدد الكبير من أنواع الفيروسات الأخرى التي ظلت تهاجم الحيوان والنبات قبل ظهور الإنسان على الأرض. وقد يكون وباء (إيدز) الحالي منبها رهيبا إلى أن هذه المخلوقات الدقيقة جدا، والغريبة المظهر، ربما كانت ألد أعداء الإنسان. وينذر العلماء بأن الخطر الجرثومي القائم طوال السنة قد يجعل موسم الزكام القادم أشد خطورة من ذي قبل ـ وهذا دليل آخر على أن هذا العدو الصغير الحجم مسؤول عن جزء كبير من معاناة الإنسان.

ضحايا الفيروس

وبالإضافة إلى أن الفيروسات تسبب (إيدز) والزكام، فهي التي كانت السبب في كوارث الجدري، والحمى الصفراء، وشلل الأطفال. وهي المسؤولة عن العديد من أمراض الجلد المعروفة بين الشباب ـ مثل الجديري، والحصبة، والحصبة الألمانية ـ وكذلك الاضطرابات المختلفة، مثل الزكام العادي، واضطراب المعدة، والقوباء (الهيربيز)، والقوباء المنطقية، والثآليل، ووحيد النواة. وقد عرف عن الفيروسات أنها مسؤولة، على الأقل، على نوع من السرطان الذي يصيب الإنسان، وأنها الظنين الأول في الإصابة بعدد من الأمراض الخبيثة. وفي الأسبوع الماضي، فقط، أعلن الدكتور (روبيرت غالو) من (معهد السرطان الوطني في باثيسدا ـ بولاية ماريلاند)، أنه وفريقه عزلوا فيروسا جديدا قد يسبب بعض أنواع (الليمفوما) وهو سرطان خلية المناعة الذي يصيب الأطفال بالدرجة الأولى، وقد يلعب دورا في في مرض الإرهاق المزمن الذي يصيب البالغين. ويقول عالم الفيروسات المعروف، الدكتور (ويليام هاسلتاين) من (معهد السرطان «دانا ـ ڤارْبَرْ» بجامعة هارڤارد) أن : «25 في المائة من السرطان الذي يصيب الإنسان تسببه الفيروسات» وقد تسبب الفيروسات ما يدعى بأمراض المناعة الذاتية، بحيث تخدع جهاز المناعة وتجعله يهاجم نسيج جسده بنفسه.

دورها النافع

ورغم شرها وأذاها، فإن الفيروسات قد تكون لعبت دورا أساسيا في التطور. والآن، ومع تقدم التكنولوجية الموحدة لـ (د.ن.أ) فإن علماء البيولوجية الجزئية يهندسون أنواعا من الفيروسات التي قد تبدأ قريبا في نفع الإنسان بدل تخريبه.

فالفيروسات إذا نزعت منها مورثاتها الضارة تصبح موادا صالحة لصنع لقاحات قوية وسليمة. وخلال السنوات القليلة القادمة، يأمل العلماء (الأميريكيون) في الحصول على موافقة الحكومة الفيديرالية للعلاج بالمورثات. وهدفهم هو استعمال الفيروسات «كحاملات» ينقلن المورثات السليمة إلى الكروموزوم ـ قلب نواة الخلية حين تنقسم ـ في أجسام المصابين بأمراض وراثية، وهي مورثات قد تشفيهم شفاء كاملا.

في التاريخ

وقد عرف الإنسان من قديم الكوارث التي تسببها الفيروسات، إذا لم يكن عرف الفيروسات نفسها. وتشهد بثرة يابسة على وجه (رمسيس الخامس) المحنّط، أن الجذري كان يقتل حتى العظماء في (مصر) منذ ثلاثة آلاف

سنة. وفي القرن السادس عشر قد يكون الغزاة الإسبان استعملوا الڤيروسات، دون علم، في نوع بدائي من حرب الجراثيم: فمن الظاهر أنهم كانوا يوزعون على ضحاياهم من (الأزتيك) و(الانكا) أغطية يأخذونها من منازل المرضى بالجذري في أوروبا وساعدت الڤيروسات على وقوع أزمة مالية في هولاندا في القرن السابع عشر حيث أنتج التهاب قلوب الزنابق أنواعا جديدة من تلك الزهرة ذات ألوان وأشكال مدهشة، ولم تستطع الحكومة الهولندية أن تتحكم فيما نتج عن ذلك من مضاربات هددت اقتصاد البلاد، قبل أن يتلاشى ما عرف، فيما بعد، بجنون الزنابق.

أول لقاح ضده

ورغم أن مسببات جميع هذه الالتهابات بقيت سرا غامضا، فإن أول لقاح سليم ضد مرض ڤيروسي تم ابتكاره في القرن الثامن عشر، على يد (أدوارد جينير)، وهو طبيب قروي بإنجلترا. فقد لاحظ أن الفلاحين الذين يصابون بالجذري البقري، وهو مرض خفيف بالمقارنة إلى الجذري، لا يصابون بذلك المرض القاتل. ففي سنة 1798 لقح ولدا بمادة أخرجها من قرحة جذري البقر أخذه من فلاحة، مبرهنا على أن الفتى قد تكونت لديه مناعة ضد الجذري.

الشك في وجوده

ولم يحدث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، «عصر علم البكتيريا الذهبي» أن بدأ العلماء يُشكّون في وجود مسببات للالتهاب، أصغر حتى من البكتيريا، كانت تظهر بوضوح من خلال مجاهرهم. فقد كانت السوائل الملوثة التي مرت عبر مصافي الخزف الصيني المصممة لتطهير السوائل المخبرية، والكفيلة بمنع تسرب أصغر بكتيريا معروفة ـ هذه السوائل كانت ما تزال قادرة على إصابة النباتات وحيوانات التجارب بالالتهابات. ومع ذلك، فشل الفحص المجهري الدقيق للسوائل المصفاة، في العثور على «العناصر المتسربة» المسببة للأمراض. وعلى عكس البكتيريا، فإن هذه العناصر، لم يكن في الإمكان استنباتها في أطباق المختبرات حيث كان العلماء يأملون في أن تتكون مستعمرات كبيرة بما يكفي لرؤيتها بالعين المجردة. وقد بقي مصدر أمراض مثل النكاف ـ التهاب الغدة النكفية ـ والجذري، والحمى الصفراء، والسعار، والحمى الضنكية ـ أبو الرُكب ـ سرا غامضا. ومع ذلك، وكما كتب العالم البكتيري، (ويليام هنري ويلتش) سنة 1849 معبرا عن أحباطه : «هذه هي أشد الأمراض عدوى. الأمر الذي يفترض أن يكون أول كاشف لأسرارها !».

علامات نشاطه

وقد ظهرت إحدى علامات نشاط الڤيروسات أثناء الحرب العالمية الأولى، حين لاحظ عالمان أحدهما فرنسي والثاني إنجليزي، كل على حدة، ظهور بقع دائرية صافية في مستنبتات مخبرية نبتت مع البكتيريا. وحين نقلت مادة من بقعة صافية إلى مكان آخر من مستنبت البكتيريا، ظهرت في الحال منطقة دائرية أخرى خالية من البكتيريا وقد ظن العالم البكتيري الفرنسي (فيليكيس ديريل) أنه عرف السبب، إذ كتب «السبب في ظهور البقع الصافية هو ميكروب لا يرى بالعين، ڤيروس لا تحبسه المصفاة، ولكنه طفيلي على البكتيريا». وقد سمى (ديريل) الجرثوم الخفي بـ (البكتيريوفاج) ـ من الكلمة الإغريقية (فاج) أي افترس.

المجهر الإليكتروني

وبينما بدأت خصائص الڤيروسات تظهر سنة 1920، لم يكن أحد قد رأى واحدا منها بعد. ويعرف العلماء الآن، أن حجم الڤيروسات في المتوسط أصغر من مكروب البكتيريا العادي بعشر إلى مائة مرة، بل هو في الحقيقة أصغر من موجة الضوء الذي نراه. وذلك يجعلها أدق كثيرا من أن ترى بأقوى مجهر بصري. ولكن اختراع المجهر الإليكتروني سنة 1931 الذي نال عنه الفيزيائي الألماني (أرنست روسكا) جائزة نوبل هذه السنة ـ كسر حاجز الضوء. فالجهاز الجديد ـ ومعه التقنية المعروفة بالتصوير البلوري لأشعة «س» (حيث تحيّد أشعة «س» من خلال أجزاء

الڤيروس المتبلورة لتكشف عن بنائها الجزيئي). جعلتنا ننظر أخيرا إلى العالم الغريب الرهيب لهذه المخلوقات الدقيقة.

أشكال الڤيروس

بعض الڤيروسات، مثل التي تسبب الزكام العادي، تبدو نوعا ما مثل كرات القدم، مكورة ولها سطح ذو نتوء مثلثة. وأخرى، وخصوصا طفيليات البكتيريا الأكبر حجما، تشبه المركبة التي حطت على القمر. ويشبه ڤيروس الانفلونزا الصوالجان الروماني بأشواكه البارزة من جميع الجهات. وڤيروس القوباء دائري مثل ڤيروس (أيدز). وكيفما كان شكلها فجميع الڤيروسات لها شيء مشترك. فهي نماذج للدقة البيولوجية بحيث تتكون ببساطة من لب من مادة مورثة ـ من (د.ن.أ) أو (ر.ن.أ) وغلاف واق من البروتين (وأغلب الأنواع لها غلافان : ويتكون الخارجي أما من صدفة بروتينية أخرى، أو من البروتين ونوع من الشحم شبيه بشحم غشاء الخلية. ويقول الدكتور (ستيفي ستراوس) من (المعهد الوطني الأميريكي للصحة) : «ليس في الڤيروس تبذير. كل قطعة فيه توجد لسبب. إنه مبني مدهش !».

مخلوق غريب

وبخلاف أي مخلوق معروف، فإن الڤيروس يحتل عالما غريبا في مكان ما بين الأحياء والجمادات. فرغم أنه يتكون من البروتين والمادة المورثة، فإنه يفتقر إلى بناء الخلايا المشترك بين الأحياء. وخلافا لجميع أشكال الحياة الحقيقة فهو لا يحتاج، ولا يستطيع تمثيل الغذاء، ولا ينمو، ولا يتسطيع التكاثر بدون مساعدة مضيفة. يقول الدكتور (ديفيد بولتمور) رئيس (معهد وايتهيد بكامبريدج) بماساتشوستس : «الڤيروسات هي أكثر أشكال الطفيليات تطرفا» ويؤكد (انتوني فرس)، مدير (معهد المورثات البشرية بجامعة مينيسوتا)، اعتماد الڤيروس الكامل على مضيفه، فيقول : «ضع ڤيروسا في أنبوب اختبار، فلا يستطيع عمل أي شيء ! لا يتسطيع حتى أن يصنع نسخا من نفسه».

مصدر قوّته

وليتخطى الڤيروس نقط ضعفه لابد من استيلائه على الأجهزة التي تصنع البروتين، ومصانع طاقة الخلايا في مضيفه. ويفعل ذلك بالقيام بانقلاب مورثي، سواء بإدخال مورثاته داخل (د.ن.أ) الخلية المضيفة كما يفعل ڤيروس (إيدز)، أو بتكوين مركز قيادة عائم سواء داخل نواة أو حشو الخلية (البروتو بلازم). وحالما تنشط المورثات الڤيروسية، تأمر الخلية ببدء إنتاج ڤيروسات أخرى تكون نسخا طبق الأصل من الغازي الأصلي.

ضيف ثقيل

وعلى العموم، فالڤيروسات تهتم اهتماما خاصا باختيار مضيفيها. ورغم أن بعضها، بما فيه ڤيروس السعار والزكام، قادر على إصابة الإنسان والحيوان على السواء، فأغلبها تفضل نوعا واحدا فقط، بل وتختار عددا محدودا من أصناف الخلايا داخل ذلك النوع. ويقول الدكتور (بيرنارد فيلدز) رئيس (قسم المورثات الجزئية وعلم الميكروبات) بجامعة هارفارد : «إذا كان الڤيروس ڤيروس (أيدز)، فهو عادة يذهب إلى خلية (ت). وإذا كان ڤيروس شلل الأطفال، فهو يذهب إلى خلايا عصبية تحتية في العمود الفقري، أما إذا كان ڤيروس التهاب الكبد، فهو يذهب إلى الكبد. «وإلى عهد قريب، كانت قدرة الڤيروس على التمييز تدهش الباحثين. إذ كيف يعرف ڤيروس السعار الذي يدخل نسيج العضل عن طريق عضة كلب بالساق، طريقه عبر الأعصاب إلى خلايا معيّنة بالمخ ؟ الجواب في تكوين الإثنين معا :

محطات الالتحام

الڤيروس الداخل، والخلية المقصودة وڤيروس السعار يحمل بروتينا على غلافه له شكل يجعله يتشابك بطريقة دقيقة مع بروتين آخر أو «مستقبل» يوجد على سطح بعض

خلايا المخ، تماما كما تتشابك بروتينات سطح ڤيروس (أيدز) مع مستقبلي خلية (ت).

ولم تخلق الطبيعة محطات الالتحام هذه لصالح الڤيروسات، فهي تعمل كمستقبلات لهرمونات وبعض المواد الضرورية لعمل الخلية. إنها عبقرية الڤيروسات التي مكنتها من تطوير وتشكيل أشكال من البروتين تمكنها من استعمال هذه المستقبلات كموانئ للإرساء. وحالما ينزل الڤيروس يعتبر كزائر مهم. ويقول (ستيفان هاريسون) أحد علماء البيوكيماء بجامعة (هارفارد) : «أنه حدث سعيد» ! يوخذ الڤيروس إلى قلب الخلية، وفجأة تلقى مورثات الڤيروس في حشو الخلية. «وفي حالة الالتهاب الحاد، كما في الزكام، أو الانفلونزا، تشرع تلك المورثات رأسا في العمل منتجة بروتينات تستولي على آليات الخلية وتعيد تشكيلها كأداة لصنع الڤيروسات».

المعركة

والاستجابة للالتهاب الحاد آنية كذلك، كالحال عند اشتعال النار، يطلق الالتهاب صفارات الإنذار التي تنبه جهاز المناعة إلى إخراج أسلحته الدفاعية. وهي أسلحة جبارة. ففي البداية تنطلق الخلايا القاتلة الطبيعية بسرعة لمكان الالتهاب لتلتهم الخلايا المصابة. وبعد أسبوع، إذا فشلت طلائع الدفاع الأولى في تطويق الخطر، يقول (فيلدز) : «تخرج الصواريخ الموجهة». وهذه حيويات مضادة ـ تنتجها خلايا (ب) بأمر من خلايا (ت) المساعدة، والتي هي مصممة خصيصا للانقضاض على بعض مضادات المورثات، وهي بروتينات مشكلة بطريقة خاصة تشبه نوعا معينا من الڤيروسات تحطم العدو أو تجعله عديم المفعول.

لماذا يعود الزكام ؟

ورغم أن الالتهابات الحادة، مثل الانفلونزا، تقتل الآلاف كل سنة، فإن الناس يهزمون هذا المهاجم الدقيق جدا. ولكنهم قد يعانون أثناء خوض المعركة. وفعلا، فإن العديد من الأعراض الملازمة للالتهاب ـ مثل الحمى، والبرد، والالتهابات الجلدية المسببة للحك، والانتفاخ الموضعي ـ لا ترجع إلى الڤيروس بقدر ما ترجع إلى النشاط القوي لجهاز المناعة. وعلى كل حال، فعندما يكون الجسم مجموعة من خلايا (ب) المنتجة للمضادات الحيوية المصممة لمكافحة ڤيروس بعينه، فإن المناعة ضد ذلك الڤيروس تستمر، في الغالب، عشرات السنين، بل وحتى مدى الحياة. إذن، لماذا يعود الزكام العادي مرة بعد مرة ؟ يقول العلماء أن السبب هو أن الزكام يمكن أن يسببه أي واحد من مئات أنواع الجراثيم أغلبها تنتمي إلى مجموعة تدعى (الڤيروس وحيد القرن). فالزكام الجديد قد يكون سببه نوع جديد لم يسبق لجهاز المناعة أن صادفه من قبل.

الڤيروس الكامن

وهناك ڤيروسات أخرى مسؤولة عن المفعول الطويل المدى. ففي ما يدعي بالالتهابات المستترة، تختبئ المورثات الڤيروسية، ولا تنشط إلا من حين لآخر، ولكنها تستمر مدى الحياة فڤيروس القوباء (الهيربيز سيمبليكس 2 ـ HSV) مثلا، يشعر المصاب بحضوره أما في شكل قروح بالأعضاء التناسلية (وغالبا ما يسببها (2 ـ HSV)، أو بقروح حول الفم (يسببها 1 ـ HSV)، وتتعرض هذه الڤيروسات للهجوم رأسا من طرف جهاز المناعة الذي غالبا ما يكسب المعركة.

أسباب ظهوره

ولكنه لا يكسب الحرب. لأن ڤيروسات القوباء الكامنة، تختبئ بين الهجومين داخل مراكز الأعصاب، أو في الجهاز التناسلي. وتبقى كامنة هناك لا تحرك إلا خمسة إلى عشرة من مورثاتها السبعين، لدرجة أن جهاز المناعة لا يكتشفها. وأحيانا، ولأسباب غير مفهومة جيدا، ولكنها غالبا ما يدخل فيها الضغط، والتعب، والنشاط الجنسي، بل وحتى حرقة الشمس، لا يستطيع جهاز المناعة إبقاء الڤيروس النائم تحت سيطرته، فيستيقظ، ويتوالد ويتوجه نحو الجلد. يقول (برنارد رويزمان) أحد الباحثين

الأوائل في القوباء بجامعة (شيكاغو) : «مادام الڤيروس كامنا في الجهاز التناسلي، يبقى محصنا». وكنتيجة لذلك، لا يوجد علاج دائم للقوباء، ولا ينتظر ظهوره في المستقبل القريب.

والاختباء شيمة مشتركة بين جميع أعضاء أسرة القوباء المتعبة. والقوباء المنطقية التي تسبب الجديري، تختبئ أحيانا في خلايا الأعصاب حيث لا يصلها دواء ولا مضاد حيوي. فبعد سنوات من هجوم الجديري، وغالبا ما يكون ذلك في الكهولة أو الشيخوخة، يتسلل الڤيروس ليحدث التهابات مؤلمة من القوباء المنطقية. ويقتفي نفس الطريق ڤيروس (ايبستاين بار)، وهو عضو من أسرة القوباء يسبب التهاب وحيد النواة، رغم أن مخبأه ليس الأعصاب، بل خلايا (ب)، أي نفس الخلايا التي تصنع المضادات الحيوية ضد الڤيروسات.

الڤيروس المستوطن

وخلافا لما يتمتع به ڤيروس القوباء من قدرة على النوم، فإن ڤيروس التهاب الكبد (ب) يبقى داخل الكبد عشرات السنين وهو يلد ويتكاثر. والذين يصابون به وهم صغار، وعددهم يساوي مجموع المواليد الجدد في (الصين) و(جنوب شرق آسيا)، و(إفريقيا)، يصبحون في الغالب حملة لهذا الڤيروس مدى حياتهم. ويقول (جس سمرز) من (مركز فوكس تشيس للسرطان بفيلاديلفيا) :

«لا يحدث الڤيروس ضررا كبيرا لمدة طويلة، ولكن بعد 20 أو 30 سنة تبدأ متاعب الكبد. «ويقيم ڤيروس (الپاپلوما) الذي يسبب البثور، بصفة دائمة في الجسم ينتظر فرصته في خلايا الجلد.

المخبأ المضمون

بعض ڤيروسات (د.ن.أ) يهمد نشاطها، ويصعب على جهاز مناعة المضيف العثور عليها، وذلك بدسّها لمادتها الموروثة في (د.ن.أ) خلايا المضيف. ولابد للڤيروس الرجعي (RETROVIRUS)، أولا، من استعمال أنزيماته المدعوة «بالنسخ المقلوبة» لتحويل (ر.ن.أ) إلى جزيئات (د.ن.أ) حتى تستطيع الدخول إلى (د.ن.أ) الخلية، وتأمر آلية الخلية لتبدأ في إنتاج خلايا رجعية أخرى. وقد تبقى نائمة خفية عن جهاز المناعة في انتظار إشارة لاثارة المتاعب. يقول (ديفيد بولتمور) الذي اقتسم جائزة نوبل عن اكتشاف النسخة المقلوبة ـ REVERSE TRANSCRIPTASE أن الڤيروسات يبقائها مختبئة داخل (د.ن.أ) الخلية، قد «وجدت المخبأ الكامل».

الڤيروس والسرطان

وكثير من هذه الڤيروسات المستوطنة أصبحت تقترن بالسرطان. وقد اكتشف الدكتور (پامربيزلي) في بحث في غاية الأهمية أجراه في (تايوان)، بين 1975 و1978، علاقة متينة بين التهاب الكبد (ب) المستوطن، وسرطان الكبد الذي هو في طليعة الأمراض القاتلة بالعالم الثالث. ويقول (بيزلي) : «إن مصابا بالتهاب الكبد (ب) معرض ٠ ٠ ئة مرة أكثر لخطر الإصابة بسرطان الكبد من غيره. وذلك تقدير محافظ». وقد اقترن ڤيروس (إيبستاين بار) بنوعين من السرطان. وفي (وسط إفريقيا)، و(غينيا الجديدة) اقترن بـ «ليمفوما بوركيت»، وهو سرطان خلية المناعة الذي غالبا ما يصيب الأطفال.

ويلعب هذا الڤيروس في جنوب (الصين) دورا في سرطان الأنف والبلعوم بحيث يصيب أكثر من خمسين ألفا كل سنة. ويسبب الڤيروس الرجعي السرطان لعدد كبير من أنواع الحيوان، من الجرذان إلى الدجاج. وقد برهن، للمرة الأولى، الدكتور (روبيرت غالو)، وفريقه، صحبة فريق من الباحثين اليابانيين، على أن الڤيروس الرجعي مسؤول عن إصابة الإنسان بالسرطان. وهو يدعى اليوم بالڤيروس الليمفاوي لخلية (ت) البشرية، صنف (1) (1 ـ HTLV)، ويسبب نوعا نادرا وقاسيا من سرطان الدم للبالغين في جزر اليابان الجنوبية، وبعض جهات وسط إفريقيا، وجزر الكرايب.

ثبوت العلاقة

وقد أظهر بحث حديث، الصلة بين ڤيروس الورم الحليمي، وسرطان عنق الرحم الذي يصيب سنويا خمس عشرة ألف امرأة في (الولايات المتحدة). وأسرة الڤيروس الحليمي الآدمي كبيرة، وتحتوي على ستة وأربعين نوعا كفيلة بإصابة ضحيتها بكل شيء، ابتداء من ثآليل أخمص القدمين (HPVI - 4)، إلى أورام الحنجرة الخانقة (HPV - 11)، إلى طفح من ثأليل الجلد يوجد عادة على أيدي الجزارين، والعاملين في اللحوم (HPV - 7). وحتى الآن، اقترنت ستة أنواع من (HPV) المسؤولة كلها عن نوع خفيف من التهاب الأعضاء التناسلية، بأورام خبيثة تصيب عنق الرحم. يقول الدكتور (هارالد زور هاوزن) من (مركز بحث السرطان الألماني بها يدلبرج) : «ثمانون في المائة، على الأقل، من أنواع السرطان لها ارتباط بالورم الحليمي».

إهانة لمادة الحياة

الإصابة بالتهابات الڤيروسات لا يؤدي دائما إلى الأورام الخبيثة. وفي الحقيقة نادرا ما يقع ذلك. وتقول (نانسي هوبكنز) أستاذة البيولوجية (بمعهد ماساتشوستس للتيكنولوجيا) : «يأتي السرطان من عدد من الاهانات لـ (د.ن.أ). والڤيروسات واحدة من هذه الإهانات؛ فهي التي تبدأ حركته. «وعادة ما تمر سنوات بين الإصابة بالالتهاب والسرطان المترتب عليه. فحينما يصيب السرطان شخصا يحمل ڤيروس التهاب الكبد، مثلا، فإنه عموما يصيبه بعد 30 أو 50 سنة من إصابته بالالتهاب لأول مرة. ويلاحظ (زور هاوزن) أن : «هذا التأخير الطويل يوحي بأن ثمة حاجة إلى عوامل أخرى، إلى جانب الالتهاب حتى يتحول إلى سرطان».

مشجعات السرطان

وقد اعتبرت عدة عوامل، أو أحداث مساعدة، في حالة ارتباط سرطان عنق الرحم، وڤيروس الورم الحليمي، ويدخل فيها التدخين (الذي يبدو أنه يضاعف خطر الإصابة بالسرطان أربعة أضعاف)، وقلة النظافة، واستمرار الالتهاب من جراء ڤيروس القوباء رقم (2). يقول الدكتور (كارلوس لوبيث) من (مراكز مراقبة الأمراض) : «ربما يكون أحد الڤيروسات هو المحرض، والثاني المطور».

ويوحي عدد متزايد من الأدلة بأنه كلما أدى التهاب ڤيروس إلى سرطان أو مرض مزمن، فإن نوعاً من انهيار جهاز المناعة أو ضعفه، يلعب دور المساهم، فمثلا، المرضى الذين أجريت لهم عمليات نقل الأعضاء، والذين كبتت أجهزة مناعتهم بالعقارات المضادة لرفض الأعضاء، يتعرضون إلى خطر أكبر للإصابة بأورام خبيثة لها علاقة بالفروس.

يقول الدكتور (طوماس ماريغان) : من مدرسة الطب بجامعة (ستانفورد) : «هناك علاقة حميمة بين الڤيروسات والمناعة. فإذا كانت مناعتنا ضعيفة نوعا لسبب أو لآخر، فنحن معرضون أكثر للأمراض.

ڤيروس (أيدز)

وهذا قد يكون صحيحا بالنسبة لڤيروس (أيدز). فمن الأسرار الكبرى التي تحيط بهذا المرض، هو : لماذا يمرض بعض المصابين به. بينما يحمل الآخرون الڤيروس سنوات عديدة، ويبقون أصحاء ؟

ويشير الدكتور (جي ليفي)، وهو باحث في (أيدز) من جامعة (كاليفورنيا بسان فرانسيسكو)، إلى الدور المحتم لالتهابات أخرى، واستعمال المخدرات، وضعف التغذية، والضغط، وقلة النوم وأي واحد من هذه يمكن أن يضعف جهاز المناعة. ويقول : «لو أن جهاز المناعة لم يتعرض لهذه العوامل، لكان في إمكانه صد الڤيروس، وتجنب المرض».

سر وشروح

ولكن باحثين آخرين يشكون في ذلك، فيشيرون إلى أنه، بالرغم من أن جهاز المناعة لأغلب ضحايا (أيدز) يصنع المضادات الحيوية لمكافحة الڤيروس، فلا يبدو أن تلك المضادات توقف تقدم المرض. وهناك شروح ممكنة عدة :

1) يستطيع الڤيروس تفادي العثور عليه بالاختباء داخل خلية (د.ن.أ). ويمكنه كذلك الانتقال من خلية إلى خلية دون الدخول إلى مجرى الدم بالمرة. يفعل ذلك بجعل الخلايا تلتحم فيما بينها. ويقول عالم الميكروبات (آثلي هاش) من جامعة (مينسوتا) : «حتى ولو كانت المضادات الحيوية لذلك الڤيروس تسبح في الدم، فإنها لن تقدر على أطفاء الالتهاب.

2) ڤيروس (أيدز) يوجد في الدم بكميات قليلة جدا، حتى في حالة التهاب كامل، وذلك ما يجعل منه هدفا صعبا. (وقد يساعد وجوده بكميات قليلة في تفسير عدم عدوى (أيدز) إلا عند الاتصال المباشر).

3) ڤيروس (أيدز) يتكاثر ويتطور بسرعة أكثر من أغلب الڤيروسات الأخرى، ويبدل، من ساعة إلى أخرى، شكل المورثات المضادة على سطحه، وهي العلامات البروتينية التي تكسو غلافه. وحينما يكون جهاز المناعة قد أنتج مضادا يتعرف على ڤيروس معين، يكون هذا قد تغير بشكل لا يمكن التعرف عليه.

4) وتلاحظ اختصاصية المناعة الدكتورة (أيلين دي فرايتاس) من معهد (ويستار بفيلاد يلفيا) : «أن سلاح ڤيروس (أيدز) الأكبر هو أنه ينشط داخل خلايا (ت) ومفترسات المكروبات التي هي نفس الخلايا التي ترسل لتحطيمه !».

مسئوليات أخرى

وللڤيروسات دخل حتى في أمراض ذات مناعة ذاتية، مثل مرض السكري المعتمد على الانسولين، والتهاب المفاصل الرثياني (الناتج عن الروماتزم)، وتصلب الأنسجة المتعدد. وفي هذه الأمراض، تختلط الأمور على الجهاز المناعي، وتجعله يهاجم أنسجة الجسم والغازي الأجنبي على السواء. فكيف يمكن لڤيروس أن يستفز جهاز المناعة ويجعله يهاجم جسده بنفسه ؟ قد يكون عالمُ المناعة الڤيروسية. (روبيرت فوجينامي)، من جامعة (كاليفورنيا بسان دييغو)، اكتشف الطريقة :

كان (فوجينامي) يبَحث في مرض ذي مناعة ذاتية يدعى «التهاب الدماغ والنخاع الشوكي» الناتج عن الإصابة بالتهاب حاد، والذي يحدث كتعقيد لدى واحد من ألف طفل يصابون بالحصبة. وهو مرض يؤدي إلى انحلال غشاء النخاع الذي هو طبقة عازلة تحيط بألياف الأعصاب داخل الجهاز العصبي المركزي، وتساعد على مرور إشارات الأعصاب بسرعة. ومن الغريب أن المرض يصيب الضحية بعد عشرة، أو أربعة عشر يوما، من الاختفاء التام لڤيروس الحصبة. وقد وجد (فوجينامي) أن أجزاء من مكونات بروتين ڤيروس الحصبة بداخل ما يسمى بـ «التنكر الجزيئي» MOLECULAR MIMICRY الذي يشبه كثيرا البروتين الأساسي للنخاعين. وبناء على ذلك يقول : «إذا قام الواحد باستجابة مناعية ضد الڤيروس، فربما أمكن لتلك الاستجابة نفسها مهاجمة الجهاز العصبي».

ڤيروسات خفية

ويعتقد بعض العلماء أن بعض «الڤيروسات البطيئة» التي لم تكتشف بعد، هي المسؤولة عن بعض الاضطرابات العصبية مثل (الكورو)، ومرض (كروتزفيلد - جاكوب)، التي قد تظهر بعد عدوى المريض بڤيروسها بعشرات السنين، وربما هي مسؤولة كذلك عن مرض (ألزايمر).[3] ولكن، بما أن هذه الڤيروسات لم يسبق لها أبدا أن عزلت، ونظرا لطبيعة هذه الأمراض، فإن الباحثين يعتقدون أن سببها عنصر غامض معدي ومختلف تماما عن غيره.

جوانب إيجابية

والڤيروسات ليست كلها أخبارا سيئة؛ فرغم الويلات التي جلبت معها، فهي ربما أعطت الإنسانية شيئا أكثر من أنواع غريبة من الزنابق الهولاندية. فبعض العلماء يعتقدون أن هذه المخلوقات ذات الحضور الكلي ربما كان لها أثر هام بل ونافع على التطور. ويشيرون إلى أنها، بإعادتها لتنظيم (د.ن.ا) داخل الصبغيات (الكروموزمات)، وينقلها للمورثات من نوع حي إلى آخر، تستطيع الڤيروسات

3) حالة تدهور متواصل يفقد معه المريض قدراته الجسمية والعقلية.

إعطاء خصائص للنبات والحيوان تساعدهما، ليس فقط على البقاء، بل على التفوق على المنافسين.

البحث عن لقاح

ويأمل الباحثون الطبيون في أن يكون لهم حليف قوي قريبا في حملتهم ضد القيروسات : وهو لقاح مستخرج من قيروسات مهندسة بطريقة مورثية. ويستعمل الدكتور (بيرنارد موص)، من (المعهد الوطني الأميريكي للصحة)، تقنية (د.ن.ا) موحدة لتحويل (الفاكسينيا)، وهي قيروس كبير يسبب الجدري البقري، إلى لقاح يعالج عدة أمراض بحقنة واحدة. ويعتزم أن يدخل، فقط، مورثات شفرةِ مولدِ المضاد لثمانية أو عشرة أنواع من القيروسات الخطيرة داخل (د.ن.ا) قيروس جدري بقر حي ولكن ضعيف. وسيحمل قيروس جدري البقر المعاد التصميم مولدا مضادات القيروس الضار، ولكن دون قدرته على الإصابة بالمرض. وحينما يلقح به الفرد، فإنه سينشّط جهاز المناعة لينتج خلايا تعمل فيما بعد، ضد الالتهاب الناتج عن أي قيروس ضار.

استخراج القيروس

ويحدث الآن تطور مدهش. فهناك عدة فرق من العلماء يطورون تقنية لاستعمال القيروس في «علاج المورثات»، وتطبيق ذلك على المصابين باضطرابات وراثية. فباستعمال تقنيات مزج (د.ن.ا) يعملون لنزع الضرر من القيروس الرجعي بنزع مورثات أساسية، ومنح القيروسات مورثات أخرى - أي التي يفتقر إليها الإنسان أو التي لا تؤثر في المصابين بالأمراض الوراثية. وهذه القيروسات الرجعية التي أعيدت هندستها ستستخدم كفرسان لغزو الخلايا البشرية المناسبة، وإدخال المورثات الصحية بطريقة صحيحة إلى (د.ن.ا) الخلية.

وسيكون المرشحون الأوائل لهذا العلاج المرضي المصابين باضطرابات وراثية ناتجة عن مورث معطوب واحد معروف. ومن بين الأمراض التي يجري التفكير في علاجها بطريقة علاج المورث مرض يدعى «ثالاسيميا الثانية BITA TALASSEMIA، نوع حاد من فقر الدم، وثلاثة اضطرابات نادرة ناتجة، في كل حالة، عن عطب في المورث الذي يعطي الأوامر لإنتاج بروتين حيوي فريد.

تفاؤل

ورغم أن التجارب على الحيوانات المرضعة تسير ببطء، فإن (ريتشارد موليغان)، الذي يطبق علاج المورث على الفيران (بمعهد وايتهيد)، متفائل. فهو يقول : «اننا قريبون جدا.. فعندنا ناقلات قيروس رجعي تنقل بكفاءة. ويبدو أنه في إمكاننا إصابة أنواع الخلايا المناسبة بسلامة معقولة». ولكنه يعترف أنه لم يستطع بعد جعل المورثات «تنشط» وتأمر الخلايا بإنتاج البروتينات المطلوبة.

ويأمل (موليغان) أن يكون الحل في إلصاق مورث البروتين بجزء من الـ (د.ن.ا) التي تعمل كمفتاح تشغيل، أو منشط، قبل زرعه في القيروس الرجعي، ويقول عن تجاربه حتى الآن إن خطته «تعمل بشكل رائع» ويتوقع نتائج مشجعة داخل شهرين أو ثلاثة.

ومع ذلك، فرغم قدرة القيروسات على الخير، فإن قدرتها الأكبر على الشر ظاهرة للعيان، ومنها الجذري، والحمى الصفراء، والسعار، وشلل الأطفال. والآن وباء (أيدز) القاسي. ويختم (ديفيد بولتمور) بقوله : «يمكنك التخلص من جميع القيروسات في الأرض، ولن يشتاق إليها العالم !».

بقلم : كلوديا واليس

عن : كريستين فورمان

من : (بارك سيتي) ومادلين ناش

من : (أطلانطا) وديك طومسون

من : (واشنطن)

آداب الصحبة

شروطها حقوقها فوائدها

للقاضي أبي العباس ابن عرضون (992 هـ)

تقديم وتحقيق الدكتور عمر الجيدي

(1)

عندما كنت أشتغل بتدوين سيرة أبي العباس أحمد ابن عرضون (992 هـ) تبادر إلى ذهني أن أحقق أثرا من آثاره التي لا تزال مخطوطة، لاضيفه إلى التعريف به وبتراثه، غير أني ترددت في الاختيار، وبعد تأمل طال أزيد من سنتين، وقع اختياري على تحقيق رسالته في آداب الصحبة، وهي رسالة صغيرة الحجم لا تزيد صفحاتها على الثلاثين إلا بقليل، ثم اتضح لي فيما بعد، أن الحديث عنه طال، حتى استغرق ثلاثمائة صفحة، فلو أضفت إليها تحقيق الرسالة، لتضخم حجم الكتاب، وغدت الرسالة رسالتين، وفي ذلك من السآمة والملل ما لا يخفى.

ثم ظهر لي بعد ذلك، أن اختيار هذه الرسالة للتحقيق، فيه من التجني على صاحبها، والإجحاف بتراثه ما فيه، ذلك بأن ابن عرضون له مؤلفات أخرى أكبر حجما، وأكثر فائدة وغناء، وذلك ما يجعلها جديرة بالتقديم على غيرها...

وأمام هذا الارتباك، عرضت الأمر على أستاذي الجليل الدكتور سيدي عبد السلام الهراس، (وهو المشرف على البحث)، فكان رأيه : أن أهم خدمة يمكن أن تقدم لابن عرضون، بعد التعريف به، هي جمع فتاويه المبثوثة في كتب الفقه والنوازل وتحقيقها. ومع أن هذا الاقتراح وجيه ومفيد، ورأى صائب وسديد، إلا أن جمع هذه النوازل المشتتة يتطلب المزيد من الوقت، وبذل الكثير من الجهد في تقصي المظان، لبلوغ هذه الغاية، وهو أمر على صعوبته ممكن، لكنه يفوت على الطالب الفرصة لإتمام العمل في الوقت الذي يكون قد حدده لا نهائه، لا سيما إذا كان هذا الطالب عجولا مثلي، فآثرت رسالة «آداب الصحبة» وقر العزم على تحقيقها، ومشيت في العمل خطوات، لكنني قررت في النهاية التخلي عنها ـ ولو مؤقتا ـ والاكتفاء بدراسة شخصية صاحبها، وهي كافية بالنسبة لشخصية لم يكن يعرف عنها أكثر من إسمها، وانشغلت بعد ذلك بأمور أخرى، فطال العهد بيني وبين ابن عرضون، وانقطعت صلتي به وبتراثه، ثم اتفق أن كتب عن هذه الرسالة، خلي وأخي الأستاذ عبد القادر العافية، معرفا بها، ومبرزا أهميتها في مجلة «البحث العلمي» عدد : 27، فزاد ذلك من أعراضي عنها، وإهمالي لها...

وهذه الأيام رجعت إلى ما لدى من جذاذات ومسودات، فإذا بي أجد من ضمنها، ما سبق أن علقت به على هذه الرسالة، فأغرتني بتكميل ما كنت قيدته، نظرا لأهمية هذه الوثيقة من جهة، ولصغر حجمها من جهة ثانية، وإن كان أهم تراث ينبغي أن يدرس ويحقق لابن عرضون،

هو كتاب «مقنع المحتاج في آداب الأزواج»[1] لكن عيب هذا الكتاب، أنه كبير الحجم، وحتى لو حقق، لن يصل إلى أيدي القراء بالتأكيد، وما الفائدة من تحقيق تراث لا يصل إلى أيدي الدارسين ؟.

وهكذا صح العزم على إتمام رسالة آداب الصحبة، تعليقا وتصحيحا، لتقديمها للنشر، ولو على صفحات مجلة دورية، ـ وليس لي من وراء ذلك ـ من مطمح، إلا أن أقدم للناس بعضا من إنتاج هذا العالم الجليل، الذي ظل معظم تراثه محجوبا عنهم لزمن طال أمده، وهو شيء نعتبره دينا في الذمة، لا تبرأ إلا بإظهاره كلا أو جزءا.

الكاتب والرسالة

أما الكاتب، فهو : أحمد بن الحسن بن يوسف بن عمر بن يحيى بن عمر ابن عرضون الزجلي، وما أظن أن من المناسب استعراض ترجمته هنا، فقد سبق لي أن أفردته بتأليف، وجردت منه فصلا نشر بمجلة دار الحديث الحسنية في العدد الأول منها، فالإحالة عليهما أفيد من تكرار الحديث عنه بلا فائدة، ما دام البحث لم يتوصل في شأنه بعد، إلى شيء جديد ـ فاتنا الاطلاع عليه ـ يغير ما استقر عليه الرأي في تدوين سيرته...

وأما الرسالة، فهي تقع في أربعة وثلاثين صفحة، من الحجم المتوسط بمعدل واحد وعشرين سطرا، في كل سطر عشر كلمات (وكلتا الحالتين على التقريب)، محفوظة بالخزانة العامة بتطوان ضمن مجموع رقمه 826، تبتدئ فيه من صفحة 172، وتنتهي بصفحة 205 خطها مقروء، يميل إلى الجودة، وينتمي إلى خطوط القرن العاشر الهجري، ذلك أن ناسخها انتهى من نسخها أواسط جمادى الثانية عام 1007 هـ، وناسخها هو أحمد بن علي بن أحمد الشريف، وبذلك تكون هذه الرسالة كتبت بعد وفاة مؤلفها بسبعة عشر عاما، أي أن النسخ حديث العهد بالمؤلف، ولعل ذلك يكسبها شيئا من الوثوق، والتثبت في النقل ولا يبعد أن يكون ناسخها من تلامذة المؤلف.

ويظهر أن ناسخ الرسالة كان على اطلاع لابأس به، يتجلى ذلك في قلة التصحيف فيها، إلاأشياء يسيرة ترجع إلى رسم بعض الكلمات، وليس ذلك من قبيل التصحيف في الحقيقة.

وقد أصيبت الرسالة ببعض الخروم، نتيجة تعرضها للرطوبة من جهة، ورهافة ورقها من جهة ثانية.

مراجع الرسالة

ليس ابن عرضون أول من خاض القول في آداب الصحبة، وإنما سبقه إلى الكتابة فيها أناس قبله، بل أن الكتابة في هذا الموضوع أمر قديم، فتذكر الروايات الموثوقة، أن الشيخ أبا عبد الرحمن محمد بن حسين بن محمد السلمي صاحب طبقات الصوفية المتوفي عام 412 هـ له كتاب في آداب الصحبة، نص عليه صاحب كشف الظنون في الجزء الأول ص 46، وقد خصص حجة الإسلام الغزالي للحديث عن آداب الصحبة، فصلا ممتعا في كتابه القيم، «إحياء علوم الدين» في الجزء الثاني[2]، وكل من أتى بعده كان يتكئ عليه في ذلك، ومن ثم فإن الكتابين، يعتبران مرجعين لابن عرضون، كما رجع إلى كتاب «البلالي»، ولكنه لم يسم الكتاب، لكن إذا علمنا أن البلالي اختصر إحياء علوم الدين، أيقنا أن ابن عرضون عليه يحيل، كما رجع إلى الحكم لابن عطاء الله، وشرحها للشيخ أحمد زروق، وناظمها ابن عباد، بالإضافة إلى ما كتبه شيخه الهبطي من نظم ونثر، وكذا كتب الحديث والشعر الحكمي خاصة، ولكنه أفرط في النقل عن الغزالي بشكل ملفت، وهكذا تعتبر كتابة ابن عرضون في هذا الموضوع خلاصة لما استقر عليه رأي العلماء الذين سبقوه إلى الكتابة في آداب الصحبة.

ويلاحظ على ابن عرضون أنه في الرسالة لم يخرج الأحاديث التي استدل بها، إلا حديثين : أحدهما لمسلم، والآخر لأبي داود، وأحيانا لا يذكر الحديث بتمامه، وإنما يقتصر على جزء منه، ولا شك أن هذا الصنيع يضع عقبات

---

1) توجد منه نسخة مقابلة على الأصل بالخزانة العامة بالرباط رقم 1026 كما توجد منه نسخ أخرى بالخزانة الحسنية تحت الأرقام الآتية : 449 ـ 4659 ـ 3100.

2) ابتداء من ص : 157.

أمام المحقق، إذ يضطره إلى الكثير من البحث والتنقيب ويلجئه إلى تقصي كتب السنة علـه يظفر بتخريج هـذه الأحاديث، كما أنه في استشهاده بالأبيات الشعرية لا يسمي أصحابها، وهذا أيضا مما يزيد في إرباك المحقق، ويثقل كاهلـه بكثرة البحث عن المظـان، ولا نواخـذه على ذلـك فتلك عقلية العصر، وما كان له أن يشذ عن المألوف...

ويعـاب على ابن عرضـون، أنـه يكثر من جلب النصوص، حتى أنه لينقل أحيانا صفحة بكاملها، بل وأحيانا أكثر، وهي ظاهرة ملاحظة في مؤلفاته كلها، غير أننا إذا قومناه في حدود عصره، وعلمنا أن هذا الصنيع كان هو سمة العصر الذي عاش فيه ابن عرضون، لم يبق لهذه الملاحظة معنى....

ويمتاز ابن عرضون في هذا التأليف كما في غيره من بقية كتبه، بالتواضع الجم، والتأدب المفرط مع العلماء الذين ينقل عنهم، أو يرجع إلى مؤلفاتهم، ويستشهد بـأقوالهم وآرائهم، وحتى إذا ظهر له ضعف ما ينقله عنهم، التمس لهم العذر، وحسن المخرج، وتلك صفة تحمد للرجل، إذ كانت من أوصاف الكرام.

أسلوبه

والأسلوب الذي كتبت به الرسالة أسلوب شيق وممتع وفي غاية السهولة والجودة، لا تكلف فيه ولا تعقيد، وهو أسلوب معهود في تآليفه كلها، ولا غرو، فقد كان أديبا، ينظم وينثر، رغم شهرته بالفقه، وارتباطه به، وقد سبق لأستاذنا الفاضل سيدي سعيد أعراب - وهو الخبير - أن نوه بأسلوبه الأدبي الرصين[3]، وأبرز تمكنه من ناحية اللغة العربية وتحكمه في أساليبها البليغة، رغم أنه عاش في عصر انحطاط اللغة، وهبوط أسلوب علماء عصره، وقد أعطينا بعض الأمثلة على ذلك في مكان آخر...

هيكلة الرسالة

ابن عرضون في تآليفه مرتب الفكر، واضح المنهج، دقيق الملاحظة، يعرب عن مقصوده في طالعة كتبه، ويعطي للقارئ المنهج الذي ينوي السير عليه، وكأنه بذلك يريد أن يضع القارئ في الصورة - كما يقولون - منذ البداية، وإن كان هذا لا ينفرد به ابن عرضون - وهكذا رتب الرسالة على مقدمة، وبابين، وخاتمة.

أما المقدمة : فقد أجمل فيها القول عن الصحبة مع الله تعالى، وأما الباب الأول، فقد تكلم فيه عن فضل الألفة والأخوة في الله، وشروطها وفوائدها، وقد قسمه إلى فصلين : الأول، تناول فيه الحديث عن فضيلة الألفة والأخوة، وفي صحبة الصلحاء والفضلاء، وفي هذا الفصل يكثر من جلب الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وأقوال الحكماء نثرا وشعرا، وأحيانا يأتي بشعره وشعر أبيه...

الفصل الثاني : في فوائد الصحبة وشروطها، وهنا يفرق بين الأصحاب فيقول : أعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، ولا كل من يصلح للصحبة في الحضر يصلح للصحبة في السفر، فلابد للإنسان أن يختار من يصلح للصحبة، وهنا يورد الخلاف الحاصل في الصحبة والعزلة، وأيهما أرجح، واختار الجمع بينهما، إذ بالصحبة يستفاد التعليم والتعلم، والتأديب والتأدب، والنفع والانتفاع كما يرى أن الصحبة تقع إما على جهة الاتفاق، وإما على جهة الاختيار، ويقسم الصحبة إلى أربعة أقسام : أن يكون الإنسان محبوبا لذاته.

2 - أن يحب لغرض دنيوي.

3 - أن يحب لغرض أخروي.

4 - أن يحب لله وفي الله، وهذا أعلى الدرجات...

ويشترط في الصحبة خمسة شروط : العقل، الخلق الحسن، الصلاح، الزهد في الدنيا، الصدق، حتى إذا انتهى إلى الباب الثاني، بحث فيه آداب الصحبة وحقوقها، فتحدث عن هذه الحقوق وحصرها في ثمانية أصول : المال والإيثار، والموافقة على الأقوال، والمساعدة على الأغراض، العفو عن الزلات والهفوات، التخفيف وترك التكلف والتكليف، والدعاء للصديق حيا وميتا، والنصيحة لله في الدين والدنيا بجميع الحوائج...

---

3) انظر ما كتبه عنه في جريدة الميثاق، عدد : 48 - 49 - 50 السنة الثالثة.

وبعد هذا ينتقل إلى الخاتمة، وهي في حقوق سائر الخلق، وآداب المعلم والمتعلم، وآداب الأكل، والحديث والآداب مع الملوك والأمراء. وقد فرغ من تأليف الرسالة في غرة ربيع الثاني عام 983 / 1575 أي قبل وفاته بتسعة أعوام.

قيمة الرسالة

تظهر قيمة هذه الرسالة في أمور :

1) أنها تعطينا نظرة واضحة عن العصر الذي عاش فيه مؤلفها، وممارسات أهله، خاصة الزهاد منهم والصالحين، ودرجة تأثرهم بموضوع التصوف بنوعيه، ومعلوم أن العصر الذي عاش فيه ابن عرضون، ارتفعت فيه الدعوة إلى نبذ الدنيا، والزهد فيها، والإقبال على الآخرة والانقطاع إلى التفكير فيها، وقد كان المؤلف متأثرا ببيئته، وبعدة عوامل جعلته ينهج هذا النهج، ويسير في هذا التيار، كما أن اتصاله بشيخه الهبطي وتعلقه الشديد به، عمل فيه عمله، ونحن نعرف أن الشيخ الهبطي يعتبر من كبار متصوفي العصر وزهاده وصلحائه وفضلائه، إذ ندب نفسه إلى القيام بالدعوة إلى الله، وإرشاد الناس، وإصلاح ما فسد من أوضاعهم، واختل من أمور دينهم، فكان يجوب قبائل جبال غمارة وبلاد الهبط بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يزهدهم في الدنيا، ويرغبهم في الآخرة، يفعل ذلك باللين تارة والشدة تارة أخرى، حتى إنه لقي في سبيل ذلك متاعب جمة، إن على مستوى عامة الناس أو خاصتهم، فعذب وأهين، فما صده ذلك عن الهدف الذي رسمه لنفسه.

وابن عرضون وهو تلميذه ومن المعجبين به، كان يرى فيه المثل الأعلى، ومن ثم رأيناه لا يذكره إلا ويطيل في الثناء عليه، والتنويه بالجهد الذي بذله في سبيل تركيز العقيدة في النفوس، وإرجاع الناس إلى السنة وترك البدعة، وإبراز مكانته بين مصلحي العصر، ولا يرجع ذلك إلى آصرة المصاهرة التي ربطت بينهما كما قد يظن، وإنما ذلك يرجع إلى العمل الذي كان يقوم به هذا الشيخ في سبيل الدعوة والإصلاح، كما أن أثر جده من قبل أمه الشيخ أبي القاسم بن خجو (أبرز فقهاء العصر، ومضرب المثل في الصلاح والخوف من الله والخشية له) كان واضحا فيه، وإن لم يصل درجة الشيخ الهبطي...

ثم إن ابن عرضون كان يعيش في فترة تعتبر في تاريخ المغرب من الفترات القلقة والمضطربة التي مر بها، فالحصون مهددة، والشواطئ واقعة تحت الاحتلال الأجنبي، والصليبية الحاقدة تمد عنقها نحو المغرب للسيطرة عليه، والإجهاز على ما تبقى من أرضه تشوفا إلى تنصيره، وإلحاقه نهائيا بعقيدة الكنيسة متى سمحت لها الظروف بذلك. وقد شاع المنكر والمروق في بلاده، فكثر شرب الخمر جهارا، وشاع اختلاط الرجال بالنساء في الولائم، وبرزت ظاهرة الوشم والزفان وتلك هي البدع التي كان يقاومها أبوه والشيخان ابن خجو والهبطي وأضرابهم في هذه الربوع.

فهذا كله كان له تأثير على مؤلف الرسالة يصح أن يكون سببا لتأليفها، كما يصح أن يكون مظهرا من مظاهر أهميتها.

2) الموازنة بين أقوال العلماء في الموضوع، واختيار الرأي الصواب الذي ترجح لديه...

3) تلك الإشارات العابرة التي تضمنتها الرسالة، والتي تفيد الباحث في معرفة ظروف العصر، والوسط الاجتماعي، إضافة إلى معلومات عابرة عن الأسرة التي ينتمي إليها، وذلك من خلال الاستشهادات بأقوال أبيه وعمه وبعض شيوخ العصر، وإن لم يتوسع في ذلك، كما فعل في كتابه «مقنع المحتاج»، والسبب في ذلك ظاهر، إذ الرسالة بهذا الحجم لا تتسع لذكر الاستطرادات والتوسع فيها، فذاك شيء بمقنع المحتاج أليق...

4) احتفاظها ببعض الوثائق التي قد لا توجد في غيرها...

وبعد، فما أحوجنا اليوم إلى الكتابة في هذا الموضوع، بعد أن ضلت القوافل طريقها، وقل من الناس من يمتثل هذا السلوك، وانعدم التخلق بهذه الآداب التي تضمنتها الرسالة في الكثير منهم، واضطرب حبل المودة والإخاء والتكافل، وأصبح من يخالط الناس إنما يفعل ذلك

على توجس وخيفة سوء المنقلب، فأين هذه الأخلاق والمبادئ التي تحدث عنها صاحبنا في هذه الرسالة ؟ وأين هذه النماذج البشرية التي استشهد بها ؟ إنه شيء أصبح بالنسبة لنا اليوم أندر من لبن الجدي، وهنا تكمن الحاجة إلى نشر مثل هذه الوثائق، عسى أن تجد في الناس من يعمل على وفق ما ورد فيها، والله الموفق...

ولنترك ابن عرضون يحدثنا عما ورد في رسالته، فهو أفصح لسانا وأصدق مقالا :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

قال الشيخ الإمام العالم القاضي العادل أبو العباس سيدي أحمد بن سيدي الحسن بن عرضون الزجلي رحمه الله :

الحمد لله الذي من على عباده بالألفة تطولا وامتنانا، فأصبحوا بنعمته إخوانا، ونزع الحقد والغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء، وفي الآخرة رفقاء وخلانا، والصلاة والسلام على مولانا محمد وعلى آله وأصحابه والذين اتبعوه وتمسكوا بسنته، واقتدوا به قولا وفعلا وعدلا وإحسانا[4].

أما بعد : فلما كان التودد والتحابب[5] في الله تعالى، والأخوة في دينه من أفضل القربات وألطف ما يستفاد من الطاعات، وأن بمراعاة حقوقها وشروطها تصفو الأخوة عن شوائب الكدرات، وبالمحافظة عليها يتقرب إلى الله تعالى وتنال الدرجات، وكان كثير ممن يدعي الأخوة والمحبة في هذه الأزمان، لعدم مراعاتهم للشروط والحقوق ينزغ بينهم الشيطان، فتقع بينهم المنافرة والمقاطعة والمدابرة، والمنازعة، صار تعلم شروطها وأسبابها وحقوقها وآدابها، من أجل ما يستفيد تعلمه ـ من يريد الألفة على الطاعة، والسلوك على منهاج السنة والجماعة.

وقد أردت أن أقيد في ذلك جملة كافية لنفسي، ولمن أرادها من أبناء جنسي، وينحصر الكلام فيها بحسب مقصدنا في مقدمة، وبابين، وخاتمة.

أما المقدمة، ففي الصحبة معه تعالى، وأما الباب الأول، ففي فضل الألفة والأخوة في الله، وشروطها، وفوائدها، وأما الباب الثاني : ففي آداب الصحبة وحقوقها، وأما الخاتمة، ففي آداب وحقوق مع سائر الخلق.

المقدمة :

في الصحبة معه تعالى

اعلم أن الصاحب الذي لا يفارق في السفر والحضر، والنوم واليقظة، هو الله تعالى، الخالق الرازق، فاتخذه صاحبا، وذرهم جانبا بمواصلة الحضور بلا فترة، ومهما فترت، جدد طهرك، وأخل به أبدا، ملازما للآداب وإياك ثم إياك أن تخلي ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه بنفسك مع مولاك، تتلذذ بمناجاته، وتتعرض لنفحات رحمته ومرضاته، وعليك أن تتعلم آداب الصحبة معه تعالى بإطراق الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت وسكون الجوارح، ومبادرة الأمر، واجتناب النهي، والتسليم لقدره تعالى، وملازمة الذكر والفكر، وإيثار الحق، والخضوع تحت الهيبة والانكسار بالحياء، وقلة السعي في الكسب، ثقة بضمانه تعالى، وتوكلا عليه، والمراقبة والاستقامة أبدا، فإنه آداب الصحبة مع من لا يفارقك.

الباب الأول

في فضيلة الألفة والأخوة، وفي فوائدها وشروطها

الكلام في هذا الباب في فصلين : الفصل الأول : في فضيلة الألفة والأخوة : لاخفاء أن صحبة الصلحاء والفضلاء وأخوتهم عون كبير، قال تعالى : ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾[6]، وقال تعالى : ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾[7] وتأمل تأثير الصحبة في كل شيء، هذه

---

4) اقتباس من افتتاحية الغزالي لكتاب الصحبة. انظر الإحياء 157/2.

5) تسمى هذه الرسالة كذلك، برسالة «التودد والتحابب» وهو الإسم الذي تحمله ضمن المجموع الذي أشرنا إليه سابقا.

6) المائدة، آية : 2.

7) الفتح، آية : 29.

الطيور المفترسة بالصحبة رفعت على الملوك وهذا العود بصحبة النجار يعتق من النار، وبصحبة الحطاب (تلتهمه) النار ولله در القائل :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا
مضافا لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط
فتنحط قدرا من علاك وتحقرا

واعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فالخلق الحسن يزين فيوجب التحابب والتوالف، والخلق السيء يشين فيوجب التباغض والتحاسد والتدابر، فحسن الخلق لا تخفى فضيلته، قال تعالى في مدح نبيه ﷺ ﴿وإنك على خلق عظيم﴾،[8] فالخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وضده سموم قاتلة، فاعرف العلة ثم شمر في علاجها، فالخلق قد يكتسب بالتعلم.

قال السيد البلالي[9] وكيف ينكر تغير الأخلاق، والكلب يعلم، والفرس والطير، إذ هي صفة إلى اعتدال، وإفراطها وتفريطها نقص، قال تعالى : ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾[10] ولم يقل، والعادمين، كقوله : ﴿**ولا تسرفوا**﴾،[11] وقوله : ﴿**وكان بين ذلك قواما**﴾،[12] ويحصل الكمال، بحمل نفسه على أفعال تحليه فمن كلفها أفعال الجود ليصير طبعا، صار جوادا، وكذا أفعال التواضع، وكل خلق فإن للعادة أثراً عظيماً بالدوام، فلا يستهين بقليل ذنوبه، أو كسله، فيصير عادة تحرمه الخير، ويكتسب الخلق بالصحبة أيضا، لأن الطبع يسرق من الطبع، لقوله ﷺ : «يحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».[13]

قيل للأحنف بن قيس :[14] ممن تعلمت الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم المنقري،[15] قيل له، وما بلغك من خلقه ؟ قال : كان يوماً قاعداً في مجلسه، إذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء، فسقط السفود من يدها فوقع على ابن له فمات، فدهشت الخادم، فقال لها : لا روعة عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى».

وقيل : من حسنت خلائقه، وجبت محبته، ومالت القلوب إليه، ومن ساءت خلائقه تعينت بغضته، ونفرت النفوس عنه، وأنشدوا :

إذا ساء خلق المرء لم يصف عيشه
وضاقت عليه في الأمور مذاهبه
وذل وإن كان العزيز ولم تنل
مراتب أهل المكرومات مراتبه
وجاهد من أخلاقه ما يمله
على مثلها أصحابه وأقاربه
وما حمد الناس امرءا ساء خلقه
ولكن حسن الخلق يحمد صاحبه

قال الغزالي :[16] «ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن، الألفة وانقطاع الوحشة، ومهما طاب المثمر، طابت الثمرة، فكيف وقد ورد الثناء على نفس الألفة سيما على الدين

---

8) القلم، آية : 4.

9) هو محمد بن علي بن جعفر الشمس العجلوني الشافعي الصوفي يعرف بالبلالي ولد قبل الخمسين وسبعمائة، ولازم النظر في الإحياء حتى حفظه، ثم اختصره اختصارا حسنا، فانتفع به الناس وأقبلوا على تحصيله ولا سيما المغاربة كما اختصر عددا من الكتب، والمؤلف يكثر النقل عنه في كتبه. مات يوم الأربعاء رابع عشر شوال سنة 820 ودفن بمقابر الصوفية، انظر الضوء اللامع للسخاوي : 178/8.

10) سورة آل عمران : 134.

11) سورة الأعراف : 31.

12) سورة الفرقان : 67.

13) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة.

14) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المنقري التميمي يضرب به المثل في الحكم ولد بالبصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره ووفد على عمر وهو الذي طلب من أبي موسى الأشعري أن يستشيره واعتزل الفتنة يوم الجمل وشهد صفين مع علي وجفا معاوية أفردت ترجمته بتأليف ولد عام 3 قبل الهجرة وتوفي 72 هـ. انظر طبقات ابن سعد 66/7 وابن خلكان 23/1، وإعلام الزركلي 262/1.

15) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي أحد أمراء العرب وعقلائهم وصف بالحكم والشجاعة وفد على النبي ﷺ في وفد تميم 9 هـ فأسلم وفيه قال ﷺ هذا سيد أهل الوبر واستعمله على صدقات قومه حوالي 20 هـ / 640م، انظر الإصابة 242/3 ط المكتبة التجارية، مجمع الزوائد 404/9 إعلام الزركلي 57/6.

16) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد الفقيه الأصولي المتصوف المصنف المكثر المولود عام 450 والمتوفي 505 من مؤلفاته الشهيرة المستصفي والمنخول في الأصول والبسيط والوجيز والوسيط في الفقه وإحياء علوم الدين... انظر وفيات الأعيان 463/1 وشذرات الذهب 10/4 مفتاح السعادة 191/2 وإعلام الزركلي 247/7.

والتقوى، قال تعالى : ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**﴾.[17]

وقال : ﴿**فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾[18] أي بالألفة، وقال في ذم الفرقة ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾، إلى قوله : ﴿**لعلكم تهتدون**﴾[19] وقال عليه السلام : «إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»[20].

وقال ﷺ : «المومن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يولف»[21] صح من الأحياء[22].

وقال الراجز :

لا خير فيمن لم يكن ألـــــوفـــــا

ولم يكن لغيره مـــــألـــــوفـــــا

وروى : «مثل الأخوين كاليدين يغسل أحدهما الأخرى»[23].

وروى : «ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه».[24]

قال الغزالي : «وقال أبو ادريس الخولاني[25] لمعاذ :[26] إني أحبك في الله، قال : أبشر ثم أبشر، فإني سمعت النبي ﷺ يقول : «ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش ومنابر من نور تضيء عليها يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس ولا يفزعون، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقيل من هؤلاء يارسول الله، قال : «هو المتحابون في الله»[27] إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وانه يلحق به كما يلحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض، لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة، وقد قال تعالى : ﴿**ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾،[28] وقال ﷺ :«سبعة يظلهم الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[29] قلت : وفي المعنى أنشدنا شيخنا أبو يوسف اليدري[30] بيتين : الأول منهما للأديب أبي زيد عبد الرحمن البردعي[31] أحد أدباء فاس، والثاني للشيخ الإمام

---

17) سورة الأنفال، آية 63.

18) سورة آل عمران : 103.

19) سورة آل عمران : 103.

20) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بن عبد الله، قال فيه زين الدين العراقي ضعيف الإسناد.

21) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد، ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.

22) انظر الجزء الثاني ص : 158 ط دار المعرفة.

23) رواه السلمي في آداب الصحبة والديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفي سنده أحمد بن محمد بن غالب الباهلي قال فيه العراقي كذاب.

24) أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس ويروى بصيغة أخرى تقارب هذه.

25) أبو إدريس الخولاني عائذ بن عبد الله بن عمرو الدمشقي من كبار التابعين فقيه واعظ ولاه عبد الملك القضاء على دمشق، وصفه الذهبي بعالم أهل الشام، توفي عام 80 هـ / 700م . انظر تذكرة الحفاظ 53/1، وتهذيب التهذيب 85/5، والتجريد 146/2، وحلية الأولياء 122/5.

26) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي جليل أعلم الناس بالحلال والحرام وأحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، آخى النبي بينه وبين جعفر بن أبي طالب توفي بالطاعون في الشام سنة 17 هـ كما عند صاحب الإصابة.

انظر الإصابة 406/3 وطبقات ابن سعد 120/3 وأسد الغابة 376/4 وحلية الأولياء 228/1 وغاية النهاية 301/2 ومجمع الزوائد 310/9.

27) أخرجه أحمد والحاكم وقال هو على شرط الصحيحين وأخرجه الترمذي من رواية أبي مسلم عن معاذ بلفظ «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» وقال حديث حسن صحيح.

28) سورة الطور آية 21.

29) أخرجه مالك في الموطأ والبخاري ومسلم في صحيحهما كلهم عن أبي هريرة.

30) أبو يوسف اليدري من علماء القرن 10 هـ ينسب إلى قبيلة بني يدر المجاورة لمدينة تطوان وهو الذي عارضه تلميذه ابن عرضون في مسألة حق المرأة مع زوجها في العمل، وكذا كراء الأرض بما يخرج منها، كان فقيها فرضيا، لا يعرف تاريخ وفاته.

31) هو عبد الرحمن بن علي البردعي الجذامي أندلسي الأصل أحد أدباء فاس أخذ عن ابن غازي توفي عام 920 هـ انظر جذوة الاقتباس 406/2 ودرة الحجال ص : 362.

أبي عبد الله محمد القوري[32] رحمه الله تعالى وهما هذان البيتان :

يظـل اللــــه تحت العرش قــومـــا
وهم سـبـع كمــــا قــــال المصــــدق

إمـــــام شب في حب وجمــــــع
وبكـــــاء ومــــــدعــــو تصـــــدق

فالبيت الثاني تضمن السبعة كلهم فتأمله.[33]

قـال الغـزالي :[34] وقـال علي كرم اللـه وجهـه عليكم بالإخوان فـإنهم عدة في الـدنيـا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم».[35]

وقال عمر رضي الله عنه :[36] إذا أصـاب أحـدكم ودا من أخيـه فليتمســك بــه، فقـل من يصيب ذلــك، وقــال مجاهـد :[37] المتحـابون في اللـه إذا التقوا فتبسم بعضهم[38] إلى بعض تتحـات عنهم الخطـايـا كمـا تتحـات ورق الشجر في يوم عاصف، وقيل كمـا تتحـات ورق الشجر في الشتـاء إذا يبس.[39] وقال الفضيل :[40] نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة».[41]

وقيـل أعجز العجـزة من النـاس من فرط في كسب الإخوان، وأعجز منه من فرط فيما ظفر بـه منهم. قلت : لا سيمـا المفرط في صحبـة الصلحـاء والفضـلاء، فبصحبتهم يستفاد خير الـدنيـا والآخرة قـال البلالي ولابـد من صحبـة كامل تغنى عن مرادك لمراده أبدا، فنقب عنـه مـا خلا قطر من مثله، وبالله لا تعش بـدونـه فـلامتـك مع غيره عزيزة، ووصلك أعز، فعدو عرفـك عيبـا انفع من أخ مـداهن وكـانوا رضي اللـه عنهم يحبون من ينبههم عليّ عيوبهم، وأصل كـل معصيـة وغفلـة وشهوة، رضـاك عن نفسـك وأصل كل طـاعـة ويقظة وعفة عدم رضاك عنها».

---

32) هو محمد بن قاسم اللخمي شهر بالقورى فقيه مفتي مشاور شيخ ابن غـازي والمواسي والزقـاق وآخرين شرح المختصر تـوفي عـام 872 هـ، انظر شجرة النور الزكية 261 والفكر السامي 261/2 وأخبار مكناس 595/3.

33) نظمهم كذلك الإمام أبو شامة فقال :
وقـــال النبي المصطفى أن سـبعــة
يظلهم اللـــــــه العظيم بظلــــــــه
وذيلهما الحافظ ابن حجر ببيتين وهما :
وزد سبعـة إظـلال غـاز وعـونـه
وإنظـــــار ذي عسر وتخفيف حملــــه
وحـــامي غـزاة حين ولـوا وعـون ذي
غرامـــة حـق مـع مكـــاتب أهلـــه
ثم أضاف إلى هـذين البيتين خمسـة عشر بيتـا نظم بهـا البـاقين فأوصلهم إلى سـبعين.

34) علي ابن أبي طالب صاحب رسول الله ﷺ وابن عمه أمير المومنين رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة واحد الخطباء والعلماء وأول النـاس إسلاما بعد خديجة ولد بمكة عام 23 قبل الهجرة وقتلـه غيلـة عبـد الرحمن بن ملجم عـام 40 هـ وهـو أكبر وأشهر من أن يعرف رضي الله عنه وكرم وجهه. انظر الإصابة ترجمة 5690 والطبري 83/6، وحلية الأولياء 61/1 والبدء والتاريخ 73/5 وصفة الصفوة 118/1 ومقـاتل الطـالبيين 14 شرح نهج البلاغة 579/2.

35) سورة الشعراء آية 100 ـ 101.

36) هو أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كبار صحابة رسول الله الله ﷺ ومن المبشرين بالجنة وثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المومنين ضربت بعدله الأمثال وفي عهده تمت الفتوحات الكبرى مثل الشام والعراق والقدس ومصر والجزيرة ولد رضي الله عنه عام 40 قبل الهجرة وقتل غيلة عام 23 هـ على يد أبي لؤلؤة الفارسي، وهو أعظم من أن يعرف رضي الله عنه. انظر ابن الأثير 19/3 والطبري 187/1 والإصابة ترجمة 5738 وحلية الأولياء 38/1.

37) مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم من التابعين فقيـه مفسر وصفه الذهبي بشيخ القراء والمفسرين وهو تلميذ ابن عبـاس والتفسير المنسوب إليه مطبوع في مجلدين ولكن فيه للمفسرين أقوال ولد عام 21 هـ وتوفي 104 هـ. انظر غاية النهاية 41/2 وميزان الاعتدال 9/3 وحلية الأولياء 279/3.

38) في الإحياء 161/2 فكثر.

39) انظر الإحياء 161/2.

40) هو الفضيل بن عياش بن مسعود التميمي اليربوعي من أكابر العباد والصلحاء ثقة في الحديث ولد في سمرقند وسكن مكة وبها توفي عام 187 هـ. انظر طبقات الصوفية 14/6 وتذكرة الحفـاظ 225/1 والتهذيب 294/8 والحلية 184/8 وطبقات الأعيان 415/1.

41) انظر الإحياء 161/2.

الفصل الثاني

في فوائد الصحبة وشروطها

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، ولا كل من يصلح للصحبة في الحضر يصلح للصحبة في السفر، فقد يصلح لصحبة الحضر من لا يصلح لصحبة السفر، وكل من يصلح للصحبة في السفر يصلح في الحضر، فلابد للإنسان أن يختار من يصلح للصحبة، قال ﷺ : «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[42] واعلم أن الصحبة والعزلة اختلف أيهما أرجح، فرجح قوم الصحبة ورجح آخرون العزلة، واختار المحققون الجمع بينهما، فبهما يحصل الكمال، فبالصحبة يستفاد التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والاستيناس ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، ويكتسب الأخلاق الحسنة من الحلم والاحتمال والتواضع والألفة، واستفادة أمور لازمة من التجارب ومشاهدة الأحوال، لما روى «إنما العلم بالتعلم»[43] وبالعزلة يعمل بما علم لأنه بدوام الذكر، أو معرفته بدوام الفكر يثمر حبه تعالى وهي الغاية، وسيلتها قطع علائقه، وإخراج محبة الغير، ودوام المجاهدة، ويقين بلا شك، وتوبة بلا ذنب، وزهد بلا رغبة، وتجريد بلا فترة، مظنتها العزلة بعد صحبة مرشد يرقيه بصدقه وإخلاصه، وفناء مراده، ليبقى بصفات مرشده، ليتم أمره بربه تعالى، فهاك نتاج الموهبة بازدواج الصحبة والعزلة، نعم، ويحتاج إليهما كل مرشد إذ قلبه كالموسى يحلق بخلوته، ويحلق بصحبته، فهذه فوائد الصحبة والعزلة، وقد اقتطفتها من كلام الإمام الغزالي[44] والسيد البلالي رضي الله عنهما واعلم أن في العزلة أيضا فوائد أخرى، منها : التخلص من المعاصي التي يتعرض لها غالباً بالخلطة من الغيبة والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومارقة الطبع من الأخلاق الرديئة.

ومنها : الخلاص من الفتن وصيانة الدين والنفس، والخلاص من شر الناس وأذاهم، لا سيما في هذه الأزمنة التي كثرت فيها الفتن والمعاصي وقد قيل :

إذا ما رأيت الشر يبعث أصله
وقام جناة الشر للشر قاتقد

ذيل هذا البيت الوالد[45] رحمه الله تعالى بقوله :

وبيتك فالزم تنج من كل فتنة
ومن صالح الأعمال دأبا تزود

واعلم أن الصحبة تقع اتفاقية واختيارية، فالاتفاقية كالصحبة بالجوار وسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق، أو على باب ملك أو في الأسفار، أو في شيء من المعاملات التي تقع بسبب الاضطرار، فقد يضطر الإنسان لصحبة العامة، بل ولصحبة السفهاء، وفي صحبة العامة قيل :

صحبناهم لما اضطررتا إليهم
كما اضطر صياد إلى صحبة الكلب

وهل أنا إلا كالمصلي بقفرة
إذا لم يجد ماء تيمم بالترب

وقد يضطر أيضا لصحبة السفهاء ليتقي بهم سفاهة من هو أشر منهم، فقد قيل : ضاع من لا سفيه له، ولما أنشد النابغة[46] بين يدي النبي ﷺ.

---

42) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح.

43) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب العلم قبل القول والعمل ونصه كاملا من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم انظر الصحيح 19/1 بحاشية السندي.

44) انظر الإحياء 170/2.

45) هو أبو علي الحسن بن يوسف بن محمد بن عمر بن يحيى الزجلي صاحب النوازل فقيه أديب زاهد، انظر كتاب ابن عرضون الكبير حياته وآثاره ص : 88.

46) هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة المعروف بالنابغة الجعدي العامري شاعر مفلق صحابي وفد على النبي ﷺ فأسلم سكن الكوفة ومات بأصبهان سنة 50 هـ وعمر وأسن انظر الإصابة 508/3 واللباب 230/1 وطبقات فحول الشعراء 103.

ولا خير في حلم إذا لم يكن[47] لـــــــــــه
بـــوادر تحمي صفـــوه أن يكــــــدرا

ولا خير في جهــــل إذا لم يكن لـــــه
حليم إذا مـــــــا أورد الأمر أصــــــدرا

قال له رسول الله ﷺ لا يفضض الله فاك،[48] فكان من أحسن الناس ثغرا، إذا سقط له سن نبت آخر مكانه، وقال مصعب بن الزبير :[49] «ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا وفي هذا المعنى قال أخونا شقيقنا الفقيه الأديب النبيه أبو عبد الله محمد[50] حفظه الله وهداه :

من لم يكن ذا كـــــــــــــلاب
عـــــدت عليـــــه الـــــذئـــــاب

من لم يــــــــــواخ سفيهـــــــــا
كشـــــــط عنــــــه الاهـــــــاب

وهذا كله مع الاضطرار، ولابد من مراعات حقوق الجميع، وستأتي إن شاء الله في الخاتمة.

وأما الصحبة الاختيارية كمن أراد مصاحبة إنسان لمرافقته في سفر أو في عمل من الأعمال من شركة أو غيرها أو في أمر دين، أو علم، أو غير ذلك من الفوائد المرادة، فقد تستفاد من الصحبة فوائد دينية ودنيوية، أما الدنيوية، فالانتفاع بالمال أو بالجاه أو بالنفس والإعانة باليد، أو مجرد الاستيناس بالمشاهدة والمجاورة، وأما الدينية، فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة، منها : الاستفادة في العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب، ويصد عن العبادة، ومنها : استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها : الاستعانة في المهمات، فيكون عدة في المصائب، وعمدة في الأحوال، ومنها : التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، فقد قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان، فإن لهم الشفاعة، ولكل مومن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك، إلى غير ذلك من الفوائد المرادة عند عقد الأخوة، فالأخوة في الدين واقعة في هذا القسم، ولا ثواب إلا في الأفعال الاختيارية، فلا ترغيب إلا فيها :

واعلم أن الصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمعاشرة، وهذه لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه، والمحبوب إما أن يحب لذاته، أو لغرض فالغرض الذي يقصد، إما أن يكون من أغراض الدنيا، أو يكون متعلقا بالآخرة أو يكن متعلقا بالله، فهي أربعة أقسام :

الأول : أن يكون محبوبا بذاته تتلذذ برؤيته ومشاهدته، لاتصافه بحسن الخلقة، أو حسن الخلق، وسائر الأوصاف المحمودة، أو لمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة، فإن شبيه الشيء ينجذب إليه، وقد قيل : أن الطيور على أشكالها تقع، وقد جاء : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».[51]

---

47) في الإصابة 509/3 يكن بالتحتانية.

48) أخرجه البزار في مسنده وأبو نعيم في تاريخ اصبهان، والشرازي في الألقاب كلهم من رواية يعلى بن الأشدق ـ انظر الإصابة 509/3.

49) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، قاتل جيش عبد الملك بن مروان وولاه أخوه عبد الله البصرة فضبط أمورها وهو أحد الأبطال في المعارك توفي عام 71 هـ. انظر طبقات ابن سعد 135/5 وتاريخ بغداد 105/13 وأعلام الزركلي 149/8.

50) أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن عرضون الزجلي فقيه أديب مؤلف توفي 1012 هـ انظر ترجمته في سلوة الأنفاس 267/2، مرآة المحاسن 169 ونشر المثاني 69 ط فاس، جذوة الاقتباس 265/1 درة الحجال 289 والصفوة 136 التقاط الدرر ص 9 مخطوط خ.ح. رقم 122 شجرة النور الزكية 293 البستان لابن عجيبة 145/1 الفكر السامي 108/4 الأكليل والتاج ورقة 35 م.خ.ح. رقم 1897.

51) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقا في كتاب خلق آدم وذريته في باب الأرواح جنود مجندة من حديث عائشة.

قال الناظم :

أمـــا سمعت عن الأرواح مـــا ذكروا
فيهـا وجـاءت بـه الآثـار والحجـج

إن التنـاكر يكسـوهـا مخـالفـة
ومـا تعـارف منهـا فهـو ممتـزج

وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله، بل هو حب بالطبع، ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً، وإلا فهو مباح، إذ الحب إما محمود، وإما مذموم، وإما مباح.

الثاني : أن يحبه لغرض دنيوي يتوصل به إلى محبوب آخر، كحب الذهب والفضة ليتوصل بهما لقضاء الحاجات والمآرب، كحب أهل الجاه لينتفع بجاههم في الدنيا، أو أهل الصنائع، والحرف، والعلم ليقتبس منهم ما ينتفع به في دنياه وهذا ينقسم إلى مذموم ومباح، ان قصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة فهو حب مذموم، وإلا فهو مباح.

الثالث : أن يحبه لغرض أخروي، كمن يحب أستاذه وشيخه لتحصيل العلم، وتحسين العمل، إن كان قصده الفوز في الآخرة، فهذا من جملة المحبين في الله، وكذلك من يحب تلميذه لينال بواسطته رتبة التعليم، إذ لا يتم التعليم إلا بمتعلم، وكذلك من يحب خدمته ليتفرغ بذلك للعلم والعمل والتفرغ لعبادة الله تعالى، فهو محب في الله، وكذلك من يحب من يواسيه بماله، ويقضي أغراضه بقصد الفراغ للعلم والعمل، والتقرب إلى الله تعالى فهو محب في الله، وكذا من يحب زوجته لكونها حصنته عن الوساوس، وصان بها دينه، وليولد له ولد صالح يدعو له فهو محب في الله.

قال الغزالي : وليس من شرط حب الله ألا يحب في العاجل حظا البتة، إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء فيه جمع بين الدنيا والآخرة، قال : فكل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده، فهو حب لله تعالى، وكل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله تعالى لم تكن تلك الزيادة، فتلك الزيادة من الحب في الله.[52]

الرابع : أن يحب لله وفي الله لا لغرض، وهذا أعلى الدرجات، ويتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله تعالى، والمواساة بالمال هي على قدر المحبة، فمنهم من يسمح بالشطر، ومنهم بأقل من ذلك، فمقادير الأموال بموازين المحبة، والأجر والثواب في المحبة في الله ولله بقدر قوة المحبة.

وأما شروط الصحبة والألفة :

فمنهم من عد خمس[53] شروط تعتبر في الصاحب، وهي : العقل، والخلق الحسن، والصلاح، والزهد في الدنيا، والصدق، وعلى هذه الخمس اقتصر الإمام الغزالي في الإحياء،[54] وبداية الهداية.[55]

ومنهم من انهاها إلى سبعة، فعد فيها أن يكون سليم الصدر، وأن يكون ثابت العهد، وأن يقوم بحقوقك كما تقوم بحقوقه.

ومنهم من انهاها إلى أربعة عشر، فعد فيها أن يكون عالماً وعاملاً وورعاً وشفيقاً ورفيقاً وكريماً وحليماً ونصوحاً وأميناً، ومحباً للفقراء والخير وأهله، وبقية الأربعة عشر، وبقية السبعة قبلها مذكورة في الخمسة الأولى.

52) انظر كتاب المحبة والشوق من كتاب الإحياء 293/4.
53) الصواب خمسة.
54) انظر الإحياء 170/2.
55) بداية الهداية للغزالي : مختصر في الموعظة ذكر فيه ما لابد منه للعامة من المكلفين من العادات والعبادات (طبع).

أما الشرط الأول : وهو العقل، فهو رأس المال، وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأخس أحواله انه يضرك حيث يريد أن ينفعك، والعدو العاقل، خير من الصديق الأحمق قال علي رضي الله عنه :

فــــلا تصحب أخـــــا جهـــل ‏ ‏ وإيـــــــاك وإيـــــــــاه

فكم مــن جـــــاهـــــل أردى ‏ ‏ حليمـــــا حيــن واخــــــاه

يقـــــاس المـــرء بــــــالمـــرء إذا ‏ ‏ مـــــا المـــرء مـــــا شـــــاه

وللشـــيء علـــى الشـــيء ‏ ‏ مـــــقاييـــس وأشبـــــــاه

وللقلـــب علـــى القلـــب ‏ ‏ دليـــــل حيــن يلقـــــاه[56]

ولذلك قيل : مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى، قال الثوري :[57] النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة، ويعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه أما بنفسه، واما إذا فهم وعلم، فقد قيل، الصحبة مع العاقل زيادة في الدين والصحبة مع الأحمق نقصان في الدين، وحسرة وندامة عند الموت، وخسارة في الآخرة.

وقال عمر بن عبد العزيز :[58] إني لألتقي العاقل فأكون عاقلاً أياماً، ومن أسقط ذكر العاقل من الشروط استغنى بالعلم والعمل، إذ العالم العامل، لا يكون إلا عاقلا، والعالم العامل هو العاقل حقيقة، وبصحبته يستفيد الإنسان العلم وينشط في العمل، كما أن صحبة العاقل تزيد في العقل.

وأما حسن الخلق : فلا بد منه، إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه، وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن فهمه صفاته، وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته، وقد جمع علقمة العطاردي[59] في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة قال : يا بني إن عرضت لك صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة، مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى منك سيئة سدها، من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة، واساك، من إذا قلت قولا صدقك، وإن حاولت أمرا أمرك، وإن نازعته آثرك،[60] قال ابن اكثم، قال المامون :[61] فأين هذا ؟ قيل تدري لم أوصاه بذلك ؟ لأنه أراد أن لا يصحب أحداً،[62] وقال بعض الأدباء : «لاتصحب من الناس من لا يكتم سرك ويستر عيبك، ويكون معك في النوائب، ويورثك بالرغائب، وينشر حسنتك، ويطوي

---

56) الأبيات موجودة في الإحياء 171/2.

57) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري الكوفي أحد الأئمة الكبار في الفقه والعلم ولد على أرجح الأقوال عام 97 هـ وكانت وفاته في شعبان سنة 161 هـ أخباره كثيرة وأفردت سيرته بتآليف وآخر من كتب عنه الدكتور محمد البيانوني. انظر كتابه : «الإمام سفيان الثوري».

58) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي الخليفة الصالح ولد بالمدينة وولي خلافة المسلمين سنة 99 هـ وهو الذي منع الناس من سب علي توفي عام 101 هـ انظر تهذيب التهذيب 475/7 وحلية الأولياء 253/5 فوات الوفيات 105/2 وابن الأثير 22/5.

59) هو علقمة بن عمرو بن الحصين العطاردي أبو الفضل الكوفي قال الحافظ في التقريب صدوق له غرائب مات سنة 56 هـ انظر تقريب التهذيب 31/2.

60) في هذه الوصية تغيير مع ما ورد في الإحياء ـ انظر 171/2.

61) المامون : هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي سابع خلفاء بني العباس وأحد أعاظم الملوك ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين، قرب العلماء والمحدثين والفقهاء وأعطى الحرية للباحثين وكان هو نفسه شغوفا بالعلم والبحث ولد عام 170 هـ وتوفي 218 هـ انظر تاريخ بغداد 183/10 وابن الأثير 144/6 فوات الوفيات 239/1.

62) انظر الإحياء 172/2.

سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك» وقال علي رضي الله عنه :

إن أخـــاك الحـق من كـــان معـــك
ومن يضر نفســـــه لينفعـــــــك

ومن إذا ريب الـزمـــان صـــدّعـــك
شتت شمــل نفســـه ليجمعـــــك[63]

وقال يوسف بن الحسين[64] رضي الله عنه :

أحب من الإخـــوان كـــل مـــوات
وفيّ غضيض الطرف عن عثرات

يـــوافقني في كـــل أمر أحبـــه
ويحفظني حيـــا وبعـــد ممـــات

فمن لي بهـــذا ليتني قـــد وجـــدته
فقـــاسمتـــه مـــالي من الحسنـــات

وقال الجنيد :[65] لأن يصحبني فاسق حسن الخلق أحب إلي أن يصحبني قارىء سيء الخلق.

وأما الصلاح : فأمر لا بد منه أيضا، ولا بد في الصالح من وصفين : أن يكون سنيا في اعتقاده، وأن يكون تقيا في دينه، فإنه إن كان بدعيا أو فاسقا ربما جر الناس إلى مذهبه، أو ظن الناس فيه ذلك، فإن المرء على دين خليله[66] كما قيل :

عن المرء لا تســـأل وسـل عن قرينـــه
فكـل قرين بـــالمقـــارن مقتـــدى

فمن خالط العلماء والفضلاء حسب منهم، ومن خالط الأشرار والفجار حسب منهم.

قال يوسف بن اسباط :[67] كان أعمامي قدرية، وأخوالي رافضية، فأنقذني الله تعالى بسفيان الثوري حين صحبته، فهذه فائدة الصحبة، فلا تصحب فاسقا، ولا مصرا على معصية أبدا، فمن لم يخف الله تعالى لا تومن غائلته، ولا يوثق بصداقته، لأنه يتغير لتغير الأغراض، قال تعالى : ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**﴾،[68] ومشاهدة الفاسق المصر تزيل الخوف من القلب، وتهون المعصية، لأن الطبع يسرق وفي صحبة المبتدع أيضا خطر بسراية البدعة، وتعدى شؤمها إليها.

وقال عمر رضي الله عنه : «عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتي يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمورك الذين يخشون الله.

وقال السيد ابن عطاء الله :[69] «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، ربما[70] كنت

63) البيتان أوردهما الغزالي في الإحياء 172/2.

64) لعله يوسف بن الحسين بن علي الرازي الزاهد الصوفي شيخ الري في وقته وهو من أقران ذي النون المصري كان أعلم أهل زمانه بالكلام والتصوف. انظر طبقات الصوفية 185، وطبقات الشعراني 105/1.

65) الجنيد : أبو القاسم بن محمد النهاوندي الأصل البغدادي مقدم الطائفة الصوفية وشيخ طريقتهم تلميذ الحارث المحاسبي ومع الجنيد برز علم الكلام في المعرفة توفي ببغداد عام 297 هـ أطال ابن السبكي في ترجمته. انظر طبقات ابن السبكي 28/2 والشعراني 94/1 - 95 والقشيري 24 وطبقات السلمي ص : 155.

66) سبق تخريجه.

67) يوسف بن أسباط الشيباني واعظ زاهد روى عن سفيان الثوري وثقه ابن معين وقال فيه البخاري كان قد دفن كتبه فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي انظر ميزان الاعتدال 328/2.

68) سورة الكهف، آية 28.

69) أحمد بن محمد بن عبد الكريم الأسكندري فقيه متصوف شاذلي الطريقة أخذ عن أبي العباس المرسي له مؤلفات عديدة اشتهر بالحكم التي كثرت الشروح عليها توفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة 709 هـ. انظر شذرات الذهب 19/6 والدرر الكامنة 273/1 وكشف الظنون 675 ودائرة المعارف الإسلامية 240/1 وشجرة النور 204.

70) في الحكم المطبوعة، ص : 119 بشرح زروق (وربما).

سيئا فأراك الإحسان منك (صحبتك)[71] إلى من[72] هو أسوأ حالا منك،[73] قال ناظمه السيد ابن عباد :[74]

ان التـــواخي فضلـــه لا ينكر
وان خـــلا من شرطـــه لا يشكر
فـالشرط فيـه ان تـواخي العـارفـا
عن الحظـوظ واللحـوظ صـارفـا
مقـالـه وحـالـه سيـان
مـا دعـوا إلا إلى الرحمن
أنـواره دائمـة السرايـة
فيـه وقـد حفت بـك الرعـايـة
فهـذه فـائـدة التـواخي
فـلا يكن منـك بهـا تراخي
وقـاصـد الفـاقـد هـذا الشرطـا
بصحبـة يعقـدهـا قـد أخطـأ
لكـونـه يرى بهـا محـاسنـه
فنفسـه ذات اغترار آمنـة

وأما الزهد في الدنيا، وعدم الحرص عليها : فصحبة الحريص سم قـاتـل، لأن الطبـاع مجبـولـةً على التشبـه والاقتـداء بـالطبـع، لأنـه يسترق من الطبـع من حيث لا يـدري، فمجالسـة الحريص تـزيـد في الحرص لا محـالـة ومجالسة الزاهد، تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا وتـستحب صحبـة الراغبين في الآخرة، الذين يحبون الفقراء ويجالـونهم، إذ لا خفاء في ذم الـدنيـا، فقد جاء بذلك الكتاب والسنة، وكفى أنها «لعب ولهو وزينة»[75] ودار الغرور، وفي الصحيـح «يهرم ابن آدم وتشب منـه خصلتان : الحرص وطول الأمل»،[76] وصح في الترمذي «ما ذيبان جائعان أرسلا في غنم بـأفسـد لهـا من حرص المرء على المـال والشرف لـدينـه،[77] قـال الشعبي :[78] «وجدت البلايا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره، فالقناعة نجاة وحرية وصيانة وعز وراحة وفراغ[79] والحريص لا يدرك ما لم يقدر له.

ومن علامات الزهد، إخفاؤه، وعدم فرحه[80] بموجود، وحزنه على مفقود وطلبه، وبذل ما عدا ضروراته، واستواء مادحه وذامه عنده، وغلبة أنسه بالله تعالى، وحلاوة طاعته، قال البلالي : وله ادخار قوت سنة قال : ولا يضره حالة كما له كثرة مال وجاه ونحوهما، كحال السلف ولا تجتمع محبة الله والدنيا لأحد البتة، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وأما الصدق فلا تصحب كذابا، فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب، يقرب منك البعيد، ويبعد عنك القريب، قال تعالى : ﴿**انما يفتري الكذب الذين لا يومنون بآيات الله**﴾،[81] وفي الحديث «أيكون المومن كذابا، ؟ قال لا ؟،[82] قيل صدق اللسـان، أول سعـادة الإنسان، وقيل من قل صدقه، قل صديقه، ولبعضهم :

ومـا شيء إذا فكرت فيـه
بـأذهب للمروءة والجمـال
من الكـذب الـذي لا خير فيـه
وأبعـد بـالبهـاء من الرجـال

---

71) زيادة من الحكم، ص : 119.

72) في الحكم لمن، ص : 119.

73) انظر الحكم بشرح زروق، ص : 119 مكتبة النجاح.

74) محمد بن إبراهيم الرندي النفزي زاهد سنف في التصوف كتبا عجيبة وشرح الحكم العطائية ونظمها واشتهرت رسائله الكبرى والصغرى مولده سنة 733 هـ وتوفي في رجب سنة 792 هـ وقد أطال المقري في ترجمته انظر النفح 341/5 وشجرة النور 238 جذوة الاقتباس 315/1 ونيل الابتهاج 287 هامش الديباج وسلوة الأنفاس 133/2.

75) سورة محمد آية 36.

76) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي كلهم عن إنس انظر الجامع الصغير 763/2.

77) أخرجه أحمد في المسند والترمذي عن كعب بن مالك انظر الجامع الصغير 496/2.

78) هو عامر بن شراحيل بن ذي كبار الحميري تابعي فقيه محدث حافظ ثقة استقضاه عمر بن عبد العزيز نشا بالكوفة ومات بها عام 103 هـ، انظر تهذيب التهذيب 65/5 وفيات الأعيان 244/1 وحلية الأولياء 310/4 وتاريخ بغداد 227/12.

79) كلمة مطموسة لم نستطع قراءتها.

80) ممحوة في الأصل اثبتناها من فهم السياق.

81) سورة النحل، آية 106.

82) أخرجه مالك في الموطأ من حديث صفوان بن سليم ونصه كاملا «قيل لرسول الله ﷺ أيكون المومن جبانا ؟ فقال نعم، فقيل له : أيكون المومن بخيلا ؟ فقال نعم فقيل له : أيكون المومن كذابا ؟ فقال لا، انظر الموطأ بشرح تنوير الحوالك 152/3. ط الحلبي.

فالكذاب لا يوثق بصحبته، فقد يكذب في ادعاء الصحبة، ويكون ذا[83] وجهين. (وذو الوجهين)[84] لا يكون عند الله وجيها إذ المراد من الصاحب أن يكون ثابت العهد، غير ملول، ولا متلون، وأن يكون سالم الصدر في الحضور والغيبة، لا حسودا ولا حقوداً، فلا يظهر من نفسه المودة ظاهرا وهو منطو على غير ذلك، ولعل شرط الصدق يشمل هذا كله ولهذا اقتصر عليه من عد الشروط خمسة، ولعله يشمل أيضا قولهم وأن يقوم بحقوقك كما تقوم بحقوقه، إذ لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له، لأنه كاذب في ادعاء الصحبة، ولعله يشمل أيضا كونه نصوحا أميناً، فمن لم يكن ناصحاً أمينا بل غاشا خائنا، فليس بصادق في ادعاء الصحبة، وقد تتداخل بعض هذه الشروط فعد الصلاح من الشروط يشمل هذه كلها، إذ الصلاح يستلزمها والله أعلم.

قال السيد البلالي : فالكذوب والأحمق والسيء الخلق الذي لا يملك نفسه في غضب ولا شهوة، والفاسق والبخيل والحريص وصبيان ونساء، فكل منهم لا يومن شره، ولا يرجى خيره غالبا، وسر فساد الخلق، من صحبة الأغيار، اصحب من يزينك ويعينك ولا يشينك، صحبة الأغيار يرجع وحشة وقطيعة، الإخوان ثلاثة : أخ للآخرة، وأخ للدنيا، وأخ للتأنس به، وترعى السلامة من شره، فالأول كالغذاء لا يستغني عنه، والثاني كالدواء يحتاج إليه في وقت، والثالث كالداء، قد تبتلى به، فتجب مداواته إلى الخلاص منه.

فائدة : ما استقبحته منه فاجتنبه، فالسعيد من وعظها بغيره لو اجتنب الناس ما كرهوه كملت آدابهم انتهى كلامه رضي الله عنه.

فائدة : قال بعض العلماء : ومن له قرناء سوء، وأراد أن لايرجع إليهم فليشخصهم وليصل عليهم صلاة الجنازة، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كبر أربعا على قوم لم يغزوا معه».

وأما من لم يضطر لصحبة من لا خلاق له، فليفر من صحبته فراره من الأسد.

ولما تكلم الغزالي على شروط الصحبة قال : «ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمجالس، لكن عليك بأحد أمرين ؛ إما بالعزلة والانفراد ففيه سلامتك، وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم».[85]

وقال بعض العلماء في وصيته لولده : ان أشر ما أنهاك عنه وأعظمه : مخالطة الأقران السوء الأرذال، وانهاك أن تسمع لهم قولا، أو تنظر لهم في أفعال، يا بني هم الغارون في الحال والمغترون في المآل، يابني : من شأنهم قطع الزمان بالفحشاء والمناكر، يابني : بروقهم خلب، وريحهم ضد المسك والعنابر، يابني : مخالطتهم تصد عن الصعود على المنابر، ولذلك قيل :

إذا كنت في قوم فاصحب خيارهم
ولا تصحب الأردا فتردى مع الردا
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن مقتدى

يابني : اجتنب رأيهم وعطله تعطيلاً، واحذر أن تشاورهم في أمر، أو تتخذهم صهراً أو خلية، أولئك خلائق، «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا».[86]

ولذلك قيل :

خليلي كم ثوب وكم من عمامة
على جسد ما فيه علم ولا عقل
وكم لحية طالت على ذقن جاهل
فأزرى بها من بعدما طالت الجهل
وكم راكب بغلا له عقل بغله
تأمل ترى بغلا على ظهره بغل
لعمرك ما زين الرجال لحاؤهم
ولكنما الزين النباهة والعقل

83) في الأصل «ذو» وهو خطأ.

84) ما بين قوسين أثبته استظهارا ليستقيم الكلام وفي الحديث ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار. انظر الجامع الصغير 667/1.

85) انظر شروط الصحبة في الإحياء 170/2.

86) سورة الفرقان، آية : 44.

وقال بعض العلماء الأدباء :(87)

فخف أبنــــاء جنســـك واخش منهم
كمــــا تخشى الضراغم والسبنتــــا(88)

وخـــالطهم وزايلهم(89) حـــذارا
وكن كـــالسـامري إذا لمستــا

وإن جهلـوا عليـــك فقل سلامـــا
لعلــك ســوف تسلم إن فعلتـــا

وقال آخر :

تنح عن الـــدنيـــا وصحبـــة أهلهـــا
وبـــاينهم مـــا دمت في الحي بـــاقيـــا

فمـــا منهم إلا حـــسود وشـــامت
تراه بـــأقـوال النميمـــة غـــاديـــا

إذا نلت خيرا أظهروا لـــك ودهم
وأبـدوا سرور الـوجـه مـا دمت واليـا

وإن نـــالـك الـدهر الخـؤون بصرفـه
بـدأ منهم الشيء الـذي كـان خـافيـا

وصـار الصـديـق المظهر الـود والرضى
يجرد سيفـــا للعـداوة مـــاضيـــا

فمـا في بني الـدنيـا الـدنية صـاحب
يـــدوم على حـــال إذا كنت نـــائيـــا

فشمر إلى التقـوى ودع كـل حـاسـد
وراع حقـوق اللــه إن كنت واعيـــا

فمـــا الخير إلا في الخمـول مـع التقى
ومـــا الغنم إلا أن تقـوم الليـــاليـــا

وأنشدني عمي أبو حفص عمر بن عرضون(90) رحمه الله هذين البيتين :

مـا في زمـانـك هـذا من تصـاحبـه
ولا صـديـق إذا خـان الـزمـان وفي

فعش فريـــدا ولا تركن إلى أحـــد
فقـد نصحتـك نصحـا بـالغـا وكفى

وقد خمسهما الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه فقال :

الجـأ إلى اللـه في كـل الأمـور لـه
الخلـق والرزق والتصريف أجمعـه

وبـاعـد النـاس واحـذر من تصـادقـه
مـا في زمـانـك هـذا من تصـاحبـه
ولا صـديـق إذا خـان الـزمـان وفي

في صحبـة النـاس جلب الهم والنكـد
والمكر والغش والأحـزان والحســد

فـإن أردت صفـاء القلب لـلأبـد
فعش فريـــدا ولا تركن إلى أحـــد
فقـد نصحتـك نصحـا بـالغـا وكفى

وقد قلت في ذلك تصديرا وتعجيزا :

مـا في زمـانـك هـذا من تصـاحبـه
ولا خليـل على خـلاتـه اعتكفـا

مـا في بني الجنس من ترجى مودتـه
ولا صـديـق إذا خـان الـزمـان وفي

فعش فريـــدا ولا تركن إلى أحـــد
ســوى ولي تقي ربـــه عرفـــا

فـالزمـه وابـذ سواه أبـدا يـا فتى
فقـد نصحتـك نصحـا بـالغـا وكفى

وقد حذر النـاس من قرنـاء الـسوء الغـايـة، قديمـا وحديثا نظمـا ونثرا، وفي هذا المقدار كفـايـة، والله ولي التوفيق بفضله.

---

87) الأبيات من قصيدة طويلة لإبراهيم بن مسعود التجيبي الإلبيري المتوفي نحو 460 هـ وقد سبق للأستاذ عبد الله كنون أن نشرها بمجلة المناهل عدد : 5.

88) السبنتا : النمر.

89) زايلهم : فارقهم.

90) هو عمر بن يوسف بن محمد بن عمر بن يحيى بن عمر، عرف به المؤلف في كتابه مقنع المحتاج وأشاد بعلمه وأدبه ولكنه لم يذكر تاريخ وفاته، انظر مقنع المحتاج ص 378 مخطوط. خ.ع. بالرباط رقم 1026.

العَمَلُ الفكريّ والأدبيّ خلْقٌ قبل أن يكون فنّاً

للأستاذ محمد الحاج ناصر

ظاهرة عجيبة تضطرنا إلى الانتباه إليها في هذه الأيام. فما شهدناها ولا بعضا منها فيما عاصرناه، من مدارس ومحافل ومحيطات النشاط الفكري والأدبي والعلمي.

تلكم ظاهرة الانبهار الذي أصيب به من يتحسون طريقهم إلى أن يكونوا ـ إن قدر لهم أن يكونوا ـ ذات يوم شيئا مذكورا.

وأخطر شيء يصاب به الناشئ، فيما يحاول أن يكتشف طريقه إلى محافل الفكر والأدب والفن، هو أن تكبر نفسه في تقديره، وتتضخم في بصيرته وبصره. فتحجب عنه الرؤية فيحسب أن كبرها وضخامتها تجسيد لعظمتها وعبقريتها اللتين جعلتا منها أكبر شيء في الوجود. ويذهل عن أن ذلك الكبر وتلك الضخامة، إن هما إلا ورم خلقي كبعض ما قد يحدث لعين مبصرة من أورام في الأجفان، أو ضباب في الحدقة، فيحجب عنها البصر. ولو كانوا على أساس مكين بصير من التقدير العلمي، أو التذوق الفني، لتبينوا أنهم يقتؤون ـ ليس في أول الطريق بل في بداية البحث عن أول الطريق. وإذن لتحرجوا من أن يحشروا أنفسهم في المقلدين الذين بذلوا قصارى طاقتهم أن يحسنوا التقليد والمحاكاة. ولفكروا وقدروا ألف مرة قبل أن يخالجوا أنفسهم ـ مجرد مخالجة ـ بأنهم يمكن أن يكونوا، في يوم بعيد، ممن يستحق ـ وإن مجازا ـ أن يوصف عمله «بالإبداع». ولكنهم فتنوا «بالورم الخلقي»، الذي أصيبت به أنفسهم. فرأوا في أنفسهم خلاصة العالم، وعصارة الإنسانية، وصفوة الفكر والفن. فانطلقوا يجارون ويتبجحون بأنهم «مبدعون»، وبأن ما يجترونه ويرجعونه من أصداء بعض ناشئة الأدب والفكر والفن، في العالم الغربي وفي سواه من غير العالم العربي «إبداع» لم يسبق إليه، فهم لذلك أهل لأن يتطاولوا على من قبلهم ومن يعاصروهم. وأن يعتصموا عمن بعدهم، لأنهم أصبحوا مصادر «الخلق» و«الإبداع».

ولئن سألت أحدهم : ماذا يريد بالإبداع ؟ وهل يستطيع أن يزعم بأن هذه المقولات التي يرجعها بين الناس، على أنها أدب أو فكر «إبداع» لم يسبق إليها، وليس لها مثيل فيما عرفته الإنسانية ؟ وأدرك منك أنك على بينة من النتاج العالمي في الأدب والفكر والفن، لاضطرب طويلا قبل أن يجيبك، بما لا يحم شيئا من سؤالك. وإنما هو روغان وزوغان.

في بعض الأحيان، يخيل إلي أن هؤلاء «المبدعين» يصدقون أنفسهم ويصدقون الناس إذ يطلقون على مقولاتهم

اسم «الإبداع». إذ أن ما يريدون أن يصارحوا الناس بأنهم «مبطلون»، من : أبدع الحجة إذا أبطلها.

بيد أن لجاجهم في التبجح والجؤار، يصرفني عن هذا الظن الحسن بهم إلى مواجهة الحقيقة من أمرهم. فلا أملك إلا أن أشفق عليهم وعلى الذين يستمعون إليهم أو يقرأون لهم من هذا الخداع الذي يصيبون به أنفسهم والناس. لأنهم به لن يهتدوا إلى طريق تؤدي بهم إلى التقييم الصحيح للعمل الفكري والأدبي والفني. سيفتؤون في متاهة العجب والغرور والادعاء، والتغرير.

☆ ☆ ☆

في بدايات هذا القرن، وبالتحديد في العقد الثاني والثالث، والرابع والخامس، ظهرت مدارس في الفكر والأدب والفن، تعمل جاهدة صادقة في تلقيح النتاج العربي المعاصر، بما يضفي عليه صبغة المعاصرة والخروج به من التقوقع في محيطه والاجترار لنفسه ولآثاره.

والعوامل التي أفرزت هذه المدارس على اختلافها، نشأت عن «التعامل» الاضطراري بين العرب وبين الدول الغالبة المستعمرة لبلادهم مباشرة أو بالهيمنة.

كان الإرهاص الأول لهذه المدارس، هو تكوين «الجامعة المصرية» التي كانت شعبية في بداية أمرها، ثم أصبحت رسمية. ثم اتخذت اسم «جامعة فؤاد الأول»، ثم - بعد ثورة عبد الناصر - «جامعة القاهرة» وقد سبق هذا الإرهاص تمهيد أو إعداد للبعثات التي كانت توجه من مصر في الغالب، ومن بلاد الشام، وخاصة لبنان إلى أوربا في أواخر القرن التاسع عشر. للالتقاح بالثقافة والتقنية الأوربيتين.

وقد تكون أول مدرسة رفعت عقيرتها بالدعوة إلى التجديد، وخاضت في سبيله المعارك العارمة الشرسة أحيانا، مدرسة الأستاذ العميد الدكتور طه حسين - رحمه الله -. ورغم أنها ابتدأت جامحة جانحة، فقد استطاعت أن ترسخ وتتجذر مع مرور الأيام. لأن طه لم يصدع بدعوته حتى استكمل أدوات الزعامة الفكرية : عايش الأزهر حينا، ثم حصل على شهادة عليا من «السربون» واتخذ «الجامعة المصرية» ثم «الإذاعة المصرية» و«جريدة السياسة» و«السياسة الأسبوعية»، منابر يدعو منها إلى ما يراه ضروريا من أنماط التجديد في تقدير التراث الأدبي وفهمه وتمحيصه ونقده، ثم في توجيه ناشئة الأدب العربي خاصة، والفكر العربي عامة، إلى حيث يمكنها أن تتواكب مع غيرها من ناشآت الأمم في موكب عالمي موحد فكرا وأدبا وفنا.

وكان الصراع السياسي بين فرنسا وبريطانيا العظمى يومئذ يقظا أشد ما تكون اليقظة، راصدا أرهف ما يكون الرصد، مستوفزا أعنف ما يكون الاستيفاز، فما لبث أن انعكس على النشاط الثقافي العربي، فبرزت إلى جانب المدرسة الفرنسية الديكارتية التي كان طه حسين عميدا لها، مدرسة إنجليزية وجدت في العقاد والمازني وعبد الرحمان شكري ثالوثا مؤهلا لزعامتها. فما ابتدأ العقد الثالث من هذا القرن حتى كان الميدان الثقافي في الشرق العربي، يشهد صراعا ثلاثيا بين كل من المدرسة الفرنسية الديكارتية، والمدرسة الإنجليزية، والمدرسة العربية الأصيلة التي رفضت أن تفسح صدرها للدخيل أيا كان هذا الدخيل. وكان يتزعمها مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، وطائفة من الأزهريين، وخريجي دار العلوم، وبعض خريجي مدرسة القضاء الشرعي.

واحتدت المعركة واحتدمت، وأفرزت ذخيرة قيمة من المؤلفات الحافلة بالجديد حقا، سواء كانت للمجددين أم للمحافظين. فكتاب الدكتور طه حسين «في الشعر الجاهلي» - وهو الاسم الأصلي لكتابه «في الأدب الجاهلي» المعروف الآن - حفز عددا من أئمة اللغة والأدب والفكر على نقده وتمحيصه وتفنيد بعض ما ارتأوا فيه من أخطاء في كتب ما تزال، ولن تبرح كنوزا من النقد الدقيق الأصيل.

ومعارك العقاد مع خصومه، أو بالأحرى معارك خصومه معه ومع زميليه، أفرزت ذخيرة لا تقدر بثمن من التراث النقدي. منها ما جمع في كتب، ومنها ما لا يزال أوزاعا في المجلات والصحف.

وما كاد العقد الثالث ينتهي، حتى برزت مدرستان أخريان.

إحداهما للمحافظين الذين يمكن أن نصفهم بالفكر الأكثر تفتحا، يختلفون بها عن الرافعي ومن على شاكلته. وكان زعيمها الأستاذ أمين الخولي رحمه الله.

وأما الثانية فهي مدرسة فرنسية ولكنها كانت وسطا بين الإيغال في الفرنسية والالتزام المطلق بالمنهج الديكارتي، وبين التمسك بمناهج المحافظين على اختلافها. كانت لقاحا معتدلا للمناهج العربية في النقد والإنتاج، بخلايا من المناهج الفرنسية بعد شيء من التمحيص والتهذيب، جعلها لا تكون غريبة عن المناهج العربية، غرابة مدرسة طه أو مناهجه في تلك الأيام. ولعل خير مثال، أو خير زعيم لهذه المدرسة هو الدكتور زكي مبارك ـ رحمه الله ـ.

وفي هذه الأثناء، ظهرت محاولات لتقريب التراث العربي الأصيل من أفهام وأذهان الناشئة العربية. فبذل جهد محمود في محاولة تبسيط النحو والصرف، وفي محاولة تبسيط وتلقيح قواعد البيان. لعل كلا من كتاب «إحياء النحو» لإبراهيم مصطفى، و«النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة» لمحمد رفعت و«فن القول» لأمين الخولي و«فن البلاغة» للزيات أمثلة صادقة لهذا الجهد، منهاجا وهدفا، وإن تفاوتت حظوظها من التوفيق.

☆ ☆ ☆

في تلك الأيام كانت دعوات التجديد ودعوات المحافظة جاهرة صاخبة ولكن كل واحدة منها كانت تنطلق من فكر أو أفكار متكملة الأدوات والمؤهلات استكمالا هيأها للقيادة. ومع ذلك، فما من أحد من هؤلاء الأقطاب، ومن يظاهرونهم ممن فرضوا أنفسهم فرضا على التاريخ والخلود، سمى نفسه «مبدعا» أو سمى شيئا من عمله «إبداعا»، كانوا يؤمنون «بالاستمرار» وأنه المؤكد لانتسابهم إلى الأصالة العربية والأصالة الثقافية، المميز لكيانهم وذواتهم وهوياتهم بين الكيانات والذوات والهويات الأخرى، العاصم لهم من الضياع والذوبان في الآخرين. وحتى حين دعا طه حسين إلى أن تولي مصر وجهها شطر أوربا، وأن تنصرف عن العروبة، صدع بدعوته تلك باللغة العربية وبأسلوب عربي كان قد أخذ ينتقل ويتخلص من شوائب الهلهلة الناتجة عن التقليد للأسلوب الأجنبي، ليخلص بعد حين إلى الأسلوب العربي الرصين الأصيل.

صحيح أن «الدكتور زكي مبارك» جمع بعض مقالات له كان قد نشرها في صحف مختلفة، وضمنها كتابا سماه «البدائع» بيد أنه ـ وهو المحافظ المعتدل أو بالتعبير السياسي «وسط اليمين» ـ لم يكن يقصد إلى أنها شيء لم يسبق إليه. وإنما كان يقصد إلى أنها أعاجيب، وأحسبه ـ وهو يومئذ مندفع وراء نزواته ـ كان معجبا بمجلة تصدر يومئذ في بيروت اسمها «البدائع»، وكانت تنشر صورا وكلاما، مما يدغدغ الغرائز، ولا عهد للشرق العربي بمثله مشاعا بين الناس، وإن عرف الأدب العربي ـ وخاصة في العهد العباسي ـ ما يشاكله أو يتجاوزه في بعض ما حفل به من شعر ونثر.

على أن «بيروت» كانت يومئذ، وحتى أواخر العقد الخامس، نشازا في الموكب العربي للفكر والأدب والفن. ويظهر أن طبيعة حياة أبنائها زينت لبعض الكتاب أن يندفعوا في نمط من القول، فيه مسحة من الفن تحفظ له صحة نسبه إلى الأدب. بيد أنه نشاز في الخلق الاجتماعي العربي. وكان مجاله «مجلة البدائع» هذه، و«مجلة المكشوف».

وأحسب أن بعض المؤثرات الأجنبية، كانت توسوس بذلك النشاز، أو تشجعه قاصدة إلى خلخلة المجتمع الإسلامي، والابتعاد به تدريجيا، وفي هدوء، عن القيم الإسلامية المتحرجة. وآية ذلك، أن هذا النشاز واكبته ألوان من النشاز في التعبير والنقد وتحديد القيم الفنية. زخر به نتاج بعض المنتسبين إلى الأدب آنئذ في لبنان. وما تزال منه بقايا حتى الآن.

☆ ☆ ☆

مهما يكن، فإن بيروت لم تكن وما أحسبها ستكون يوما، مؤثرة تأثيرا ذا بال في المسار الفكري والأدبي والفني للعالم العربي. بالرغم من أنها أنتجت عباقرة أصلاء من أمثال الأخطل الصغير، وأمين نخلة ـ ومن العجيب أن

هؤلاء على أصالتهم لم يكن لهم في توجيه الفكر والأدب العربيين ما كان من أثر لمن دونهم براعة وفنية من أبناء مصر.

كذلك لم تؤثر تأثيرا يذكر في مسار الأدب العربي الحديث، مدرسة غربية أخرى قادها «الدكتور محمد مندور» وحاول فيها أن يقحم أساليب من النقد الأدبي الغربي على النقد عند العرب. بل وأن يضفي شيئا من صبغة النقد الغربي على مناهج النقد الأدبي القديم عند العرب. وإن كانت قد جمعت حولها بعض «المريدين» في أول نشأتها وطيلة الحياة «السياسية» لصاحبها، على أنها ما فتئت أن أصبحت في ذمة التاريخ.

بينما برزت مدرسة يمكن أن نسيمها أمريكية نشأت في بداية العقد الثالث من هذا القرن، وأحدثت نشأتها ضجة كبرى، ثم ما لبثت أن هدأت ثم خفتت. ولم تكن هذه المدرسة نقدية بالمعنى الدقيق، وإنما اتجهت إلى تغيير طرائق الصياغة الشعرية أسلوبا ومعنى، وكان رائدها الدكتور «أحمد زكي أبو شادي، ومجالها «مجلة أبولو» كما كان أنصارها يدعون «جماعة أبولو». على أن هذه المدرسة ما لبثت أن تحورت تدريجيا لتتحول إلى نمط من التجديد المتأصل في المجال الشعري معنى وأسلوبا، وبذلك استطاعت أن تضمن لنفسها فترة من الاستمرار اتصلت حوالي خمسة عقود، ومرد استمرارها إلى تراجعها إلى التوفيق بين الأصالة والتجديد، توفيقا أبرز عباقرة، من طراز علي محمود طه والدكتور إبراهيم ناجي، والأستاذ صالح جودت، ولكل منهم تأثير عميق أصيل في مسار الشعر العربي نحو التجديد المستمر.

وما من شك في أن جميع هذه المدارس على اختلافها أضافت إلى الأدب والفكر والفن عند العرب، الكثير من الجديد : صياغة، ومنهج نقد، وطريقة تفكير، وأسلوب أداء. ولكن ما من أحد من أقطاب هذه المدارس، وفيهم عباقرة حقا، أباح لنفسه أن يطلق على نفسه صفة «المبدع»، أو على نتاجه دعوى «الإبداع». ذلك بأنهم على اختلافهم كانوا يؤمنون بالأصالة ويعتزون بها ولا يبتغون بديلا عنها، وما من أحد منهم كان يرضى أن يقال فيه أنه منقطع عن أصله أو غريب في بيئته. كانوا حتى في عنفوان المعارك، يتبارزون في الاعتزاز بالأصالة والانطلاق منها. ولن تجد في آثارهم من كتب أو مقالات نشازا من أحد منهم يجنح عن الاعتزاز بالأصالة والاعتصام بالاستمرار فيها، لذلك بقيت بين آثارهم وبين التراث العربي الوشيجة المكينة التي تثبت نسبتها إليه إثباتا لا سبيل إلى الغمز فيه، وإن اختلف عمقا وصبغة باختلاف مدارسهم، وموقفها من طبيعة التطوير الذي يريدونه للفكر والأدب والفن.

☆ ☆ ☆

ومضت الأيام. وتوالت عقود أصيبت فيها مصر بالعقم. فما يرتفع منها صوت أصيل إلا ما كان ممن ما يزالون أحياء، أمد الله في أعمارهم ـ من أبناء حقبة الازدهار، تلك التي وقفنا عندها من قبل. ولعل أصدق مثال من بينهم، لأصالة الفكر والأدب والفن، في مصر وفي العالم العربي أستاذة الجيل الدكتورة عائشة عبد الرحمان، بارك الله أنفاسها، وأحاطها بأفواف العافية، ومطارف السعادة والهناءة وأبقى لها ما لزمها طيلة عمرها المبارك، من السداد والتوفيق. فليت شعري ماذا سيكون مصير الفكر والأدب والفن في العالم العربي يوم يختارها الله للرفيق الأعلى وما فتئت المشعل الوحيد، الذي سيصل ماضي الأمة العربية بحاضرها ويمدها بالقبس الأخير من الهداية إلى مستقبل موفق بصير أصيل ؟

ذلك، وما سمعنا وما شهدنا طيلة العقود السبعة التي عايشناها من هذا القرن، ولا فيما تقضي فيه حياتنا من التراث العربي والعالمي، نزوات تسمى «إبداعا»، ولا أطفالا يعجزون عن قراءة النصوص الأصيلة فضلا عن فهمها، فكيف بنقدها وتمحيصها، يسمون أنفسهم «مبدعين» ؟ لسنا نشفق على الأدب والفكر والفن. فنحن نؤمن بأنه لن يبقى إلا ما يصلح للبقاء : **«فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»**.

وإنما نشفق على هؤلاء الناس أن يفقدوا أبسط قيم الأخلاق الاجتماعية وهم ناشئة، فيصدهم الواقع المر الذي لا يرحم حين تتقدم بهم السن فيكتشفون أنهم كانوا «مبدعين» حقا، ولكن «الإبداع» الذي يعني البطلان...

عودة ابن تاشفين للمغرب بعد الزلاقة

للدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

في اليوم الثالث والعشرين من اكتوبر تكون تسعة قرون قد مرت على انتصار الزلاقة[1] إذ أنها وقعت في يوم الجمعة 12 رجب 479 هـ / 23 اكتوبر 1086م، وعند ذكر الزلاقة تجيش في النفس أمارات الفخر والاعتزاز، وتعاودنا ذكريات انتصارات المسلمين الأوئل من اليرموك والقادسية وغيرها من المعارك الإسلامية الحاسمة، ونشعر بغصة الألم بحال العرب المسلمين الذين يشبهون أهل الأندلس قبل زلاقة ابن تاشفين.

بعد انتصار يوسف بن تاشفين من الزلاقة يعود سريعا إلى المغرب دون متابعة فلول المنهزمين. وهنا تقفز عدة تساؤلات، لماذا لم ينتهز فرصة انتصاره الساحق ليتتبع ألفونسو المثخن بجراحه وهزيمته ويستعيد طليلطة ؟ ولماذا عودته السريعة إلى المغرب ؟

لا شك أن المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين قد تحملوا عبء مواجهة جيوش ألفونسو بعد ما ظهر ضعف الأندلسيين وانقسامهم، ولا شك أن البطل القائد الذي بلغ التاسعة والسبعين وهو يصول ويجول بين قواته يرى بعين الشيخ المجرب الذي عركته الحروب مبلغ الخسائر والتضحيات التي منى بها الأندلسيون والمرابطون، ويلمس الفرقة المتفشية بين أمراء الأندلس التي لم ينسوها حتى في ساعة المحنة، جعلته يشعر أنه من الحكمة توحيد الصفوف أولا قبل القيام بأي عمل، خصوصا أنه تأكد أن عبء أي معركة قادمة سوف تقع على كاهل جنوده، لذلك رأى ألا يجازف بالاستماع لتحريض المعتمد بن عباد بتتبع فلول المنهزمين قبل الاستعداد وتأمين خطوط إمداداته بالمغرب، فقد ذكر أنه كان يحارب في الأندلس وهو مشغول الفكر لما يجري في المغرب في غيابه، ويشير الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة[2] إلى أن يوسف «تلقى وهو ببطليوس أنباء من المغرب شغلت عقله، واضطرب لها فؤاده، وأنه لولا ذلك لكان في أرض النصارى مدوخا لها».

أقلق الأمير يوسف بن تاشفين أخبار هجوم صاحب قلعة بني حماد على المغرب مستعينا بقبائل الأعراب من بني هلال، منتهزا فرصته غياب الأمير يوسف ومعظم قوات

1) سميت الزلاقة لأنها جرت بمكان يسمى بهذا الاسم، وتسميه المصادر المسيحية ساكرا لياس Sacra Lias ويعرف اليوم باسم ساجرا جاس Sagrajas بالقرب من مدينة بطليوس.
عن معركة الزلاقة انظر.
عبد الله بن بلقين التبيان ص ص 104 : 110، الحلل الموشية ص ص 38 : 66، المراكشي. المعجب ص ص 130 135، الحميري الروض، مادة زلاقة.
ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 144 : 149،
ابن خلدون : العبر، ص 6، ص 383.

2) عبد الله بن بلقين : م. س. ص ص 338، 339.

المرابطين بالأندلس، واشتغالهم بحرب ألفونسو، فلذلك عندما انتهى ابن تاشفين من الزلاقة سارع بالعودة إلى المغرب لمواجهة أحداثه أولا قبل الإقدام على أي عمل خارجه، وأرسل رسالة[3] إلى صاحب القلعة يؤنبه فيها ويوبخه على استعانته «بذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب» باذلا لهم المال الكثير والعطايا، ولولا ما فعله صاحب قلعة بني حماد أثناء جهاد يوسف ابن تاشفين لاستطاع تتبع ألفونسو، والقضاء على ما تبقّى من فلوله، واستعاد ما أخذه من أراضي المسلمين. إذ يقول له : «ونحن أثناء ما فعلت وخلال ما عقدت وحللت، نؤم العدو - قصمه الله - فنجبهه ونكافحه، فنقدعه وتناطحه، ونتحيفه من أقطاره، ونغزوه بدءا وتعقيبا في عقر داره، ولولا ماؤك الذي شمدوه، وشارفوا إلى أن يستنفدوه، ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثا على إبالة بلواك، وإنك لمتداو منهم بسم، ومستريح إلى غم، فبلغت معهم ما بلغت، وأرغتَ بهم ما أرغت، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمحتقه وأضفنا أنشوطة وهن الخزي على عنقه، وأشفى على انقطاع ذمائه ورمقه، ففرجت عنه كربة لم يظنها تنفرج، ونهجت له منها وجه مَخْلَص لم يحسبه يَنتهج، وأخليت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده، وبسطت فيهم يده».

ولقد حمل الأمير يوسف بن تاشفين صاحب قلعة بني حماد مسؤولية ما حدث من انتهاك للحرمات وسفك لدماء المسلمين وتوعده، «وكل ما سفك من دم، وانتهك من محرم، واستهلك من ذمم، فإليك منسوب، وعليك محسوب، وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غدا، وإنه لقريب»[4].

وهناك سبب آخر لعودة الأمير يوسف بن تاشفين ولا يقل أهمية على سابقه وهو وفاة ابنه وولى عهده الأمير أبى بكر، إذ يذكر صاحب الحلل الموشية[5] أن الأمير يوسف بن تاشفين، لما فرغ من موقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورد عليه خطب أوجعه، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبى بكر سير، فتعجل إيابه من العدوة، وصدره، وقد قضى في عدو الملة وطره».

ويؤكد الضبي[6] سبب تعجل يوسف بن تاشفين للعودة هو تلقيه خبر وفاة أكبر بنيه وهو بمدينة بطليوس.

كان الأمير يوسف قد ترك ابنه وولي عهد أبا بكر مريضا بسبتة، لذلك فقد أسرع بالعودة خوفا من اضطراب الأمور في غيابه، ويبدو أنه حدثت بعض الاضطرابات من بعض الأمراء بالمغرب الذين انتهزوا فرصة غيابه وموت ولي العهد، ويتضح ذلك بما ذكره ابن أبي زرع[7] من أن يوسف بن تاشفين خرج في ربيع الآخر عام 480 هـ / 1086م يطوف على بلاد المغرب، ويتفقد أحوال الرعية، وينظر في أمور المسلمين، ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته.

ويرى الدكتور حسن محمود[8] أن عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب إنما كانت بسبب موت الأمير أبى بكر بن عمر، وليس أبا بكر بن يوسف، ولكن موقعة الزلاقة كانت في رجب 478 هـ واستشهاد الأمير أبى بكر بن عمر في شعبان 480 هـ، لذلك نرجح سرعة عودة يوسف إلى المغرب بسبب وفاة ابنه وولي عهده فعلا، وخوف يوسف من تحرك بعض أمراء المرابطين خاصة الأمير أبو بكر بن عمر نفسه، ويدل على ذلك أن يوسف لم يجز إلى الأندلس جوازه الثاني لمواصلة الجهاد إلا في عام 481 هـ / 1088م أي بعد وفاة أبى بكر بن عمر واستتباب الأوضاع له.[9]

كانت أولى المشاكل التي قابلت يوسف بن تاشفين بعد وفاة الأمير أبى بكر بن عمر، تحرك الأمير إبراهيم بن أبى بكر بن عمر إلى الشمال، فقد وصل من الصحراء،

3) من رسالة كتبها أبو الحسن ابن الجد عن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد.
انظر ابن بسام : الذخيرة القسم الثاني، مجلدا، ص 257.
4) ابن بسام : م. س. ص ص 259، 260.
5) الحلل الموشية، ص 66.
6) الضبي بغية الملتمس ، ص 31.

7) ابن أبي زرع : م. س. ص 152.
8) د. حسن محمود : تمام دولة المرابطين، ص 286.
9) عبد الله بن بلقين : م. س. ص 110، الحلل الموشية، ص 66 ابن أبي زرع، م.س. ص 152، ابن أبي دينار : المؤنس من أخبار إفريقية والمغرب، ص 103.

يطلب ملك أبيه، ونزل بخارج أغمات في جموع كبيرة من لمتونة، فلما سمع الأمير يوسف بن تاشفين بذلك بعث إليه الأمير مزولي[10] وكان حسن السياسة، فهدن الأمير إبراهيم بن أبي بكر، ونصحه بقوله : إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلا فاطلب منه (يوسف بن تاشفين) أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك، وإن طلبت غير هذا، أخاف أن يجعل على رجلك قيدا، ويحبسك عنده عبداً، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك.[11]

افتتح الأمير إبراهيم بن أبي بكر بهذه النصيحة التي تتضمن في طياتها التهديد باستعمال القوة، فآثر إبراهيم عدم الدخول في صراع مع الأمير يوسف بن تاشفين، خوفا من قوته، ولذا آثر السلامة والتمس بعض المساعدات المالية، ويدل على هذا حديثه مع الأمير مزولي إذ قال له : «عيسى أن تجتمع معه (يوسف بن تاشفين) مرة أخرى، وتبين له حالي.[12]

مما جعل الأمير مزولي يقتنع أن حركة الأمير إبراهيم بن أبي بكر يمكن حلها بتقديم المال والهدايا إليه، وأنها ليست من القوة بحيث تقف في وجه يوسف بن تاشفين، لذلك طلب منه الانتظار في موضعه، حتى يبلغ الأمير يوسف ويأتيه بما يرضيه، واستطاع الأمير مزولي أن يحصل له على مال وخيل وكسى وغير ذلك من الهدايا، وانصرف الأمير إبراهيم إلى الصحراء، وبقى بها حتى مات دون أن يجتمع بالأمير يوسف.[13]

ويبدو أن الأمير يوسف بن تاشفين كان يدرك عدم خطورة الأمير ابراهيم، فلم يحرص على لقائه، كما فعل مع أبيه الأمير أبى بكر بن عمر من قبل، ورأى أنه من الأوفق استمالته بالمال، والاعتماد عليه في الصحراء.

لم تكن مشكله تحرك الأمير إبراهيم بن أبي بكر هي الوحيدة التي قابلت الأمير يوسف بن تاشفين بعد عودته من الأندلس، فقد انتهزت بلاد السودان فرصة استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر[14] واضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد موت قائدها وترك الأمير إبراهيم الصحراء إلى أغمات، فأعلنت غانة استقلالها، وانفصالها عن الدولة المرابطية، ونقضت تبعيتها لها.[15]

وفي نفس الوقت استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لأمبراطورية غانة[16] أن تنفصل هي الأخرى عنها، وتستقل في حكمها، وكانت أولاها مملكة أنبارة Anbara ثم تبعتها ولايات ديارا Diara وكانياجا Kaniaga، وأصبحت ممالك مستقلة، بينما أصبحت سلطة ملوك سوننكي غانة، لا تتعدى أوكار Aukar، والباسيكوني Bassikunu.[17]

وقد لعب الفلاني المهاجرون من مملكة التكرور دورا كبيرا في تكوين الأسرة الحاكمة في كانياجا المستقلة، إذ استطاع بعض أفراد من قبيلة الصو Su، إحدى قبائل الفولاني، أن تستولي على مقاليد الحكم في كانياجا، وتعلن تكوين مملكة كانياجا التي أخذت تتوسع وتستولي على بعض المناطق المجاورة لها، حتى استطاعت أن تضم إليها ولاية ديارا Diara في نهاية القرن الثاني عشر

10) الأمير مزدلي هو ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين، قدمه على رأس جيش كبير توجه لمدينة تلمسان ففتحها دون قتال، واعتمد عليه يوسف بن تاشفين في كثير من الأعمال في الأندلس وكان مثالا للمحارب الشجاع الذي قضى عمره في معركة دائمة ودفع حياته ثمنا لجرأته وبسالته، وكان حسن السياسة عارفا بخدمة الملوك.
ابن عذاري : م.س. ص 29.

11) ن. م.

12) ن. م. ص 30.

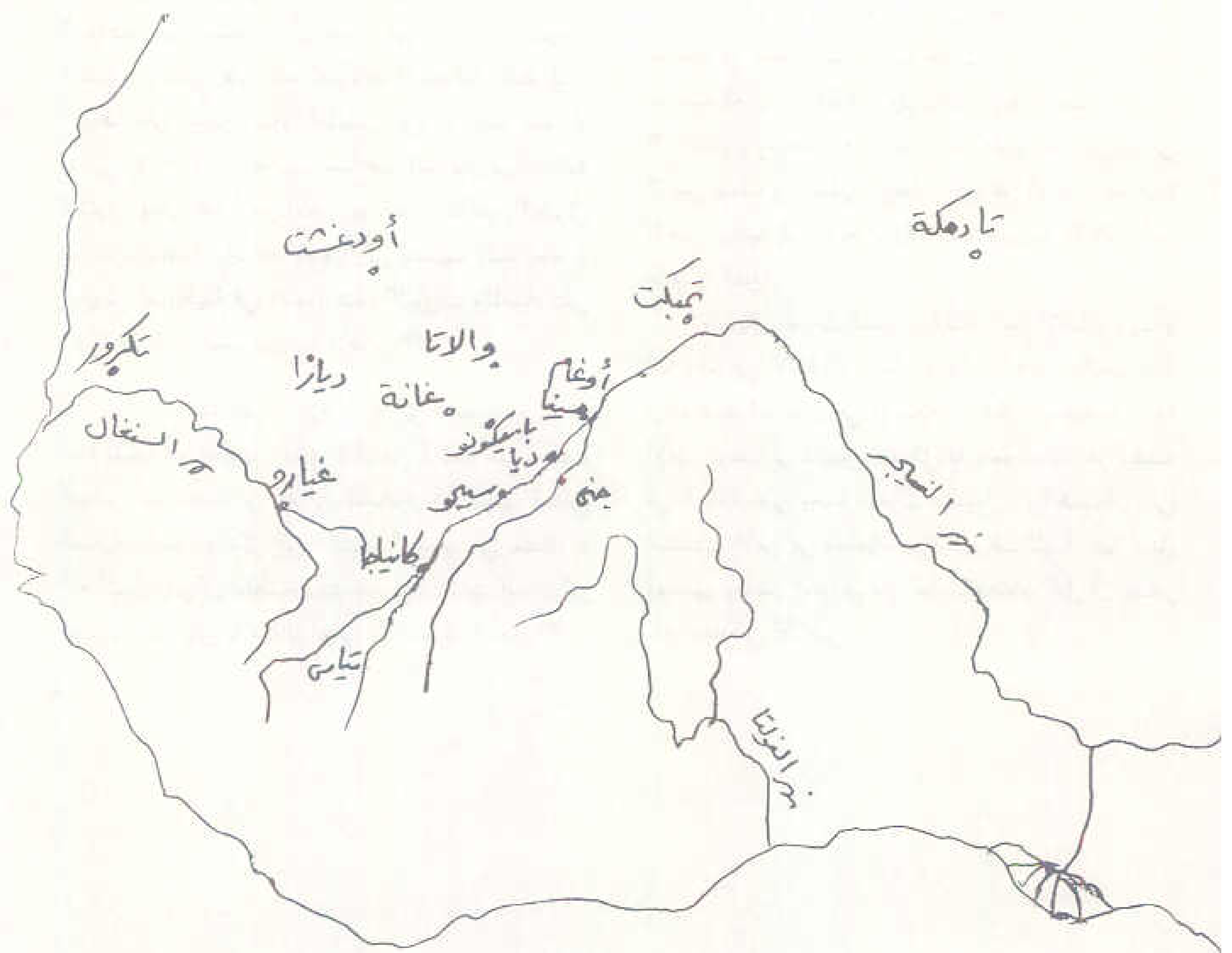
13) ن. م.

14) عن استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر
انظر.
د. عصمت دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص 117، 118.

15) Addison, John, «Ancient Africa, p. 45» Awe, Bolanle, «Empires of Western Sudan, p. 615. Cardot, Véra, Belles pages de l'histoire Africaine, p.24
Fage, J D, «An introduction to the history of West Africa, p. 21 x
Jullien, Ch, André, Histoire de l'Afrique, p.54

16) كان الأمير أبو بكر بن عمر قد سمح لملك غانة أن يستمر في حكمه تابعا للمرابطين انظر د.عصمت دندش : م.س ص 115 وما بعدها.

17) Cornevin, Robert, Histoire de l'afrique d'origines au XVI siécle, Tome 1, p.347 Fage, J.D., of cit. p.27
وانظر الخريطة :



السودان الغربي في عهد يوسف بن تاشفين

الميلادي، وأطلقت على أملاكها هذه اسم أمبراطورية الصوصو Susu[18].

كان لهذه الأحداث في الجنوب أصداؤها في الشمال، فترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أمر الأندلس لبعض الوقت، حتى يستطيع أن يعيد إلى المغرب والسودان استقراره، ويقضي على هذه الحركات الانفصالية، فقد كان حريصا على استمرار تدفق الملثمين، من الجنوب، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الجنوب بما فيه السودان في حالة استقرار، وعلى هذا أرسل الأمير يوسف بن تاشفين الجيوش لتأديب العصاة وإعادة الأمور إلى نصابها وقد نجحت الجيوش المرابطية في إخماد هذه الثورات والقضاء على زعماء الفتنة أو المتمردين من الأهالي.[19]

وبذلك عاد الهدوء مرة أخرى إلى الصحراء، ورجعت غانة لتبعية المرابطين، ويظهر ذلك من الرسالة التي حملها القاضي أبو محمد بن العربي المعافري الأندلسي قاضي اشبيلية، وابنه أبو بكر إلى الخليفة العباسي في بغداد، إذ أنه أشار إلى أن سلطان يوسف بن تاشفين امتد إلى الجنوب» مما يلي بلاد غانة، وهي بلاد معادن الذهب.[20]

وأشار صاحب كتاب الاستبصار[21] إلى أنه وقع في يده كتاب موجه من ملك غانة إلى الأمير يوسف بن تاشفين، ومع أنه لم يشر إلى مضمون هذا الكتاب إلا أنه يدل على استمرار صلة غانة وتبعيتها للمرابطين.

كما أن الأمير يحيى بن أبي بكر بن عمر[22] كان موجودا في منطقة السودان يجاهد بها كما أشار إلى ذلك صاحب الحلل الموشية،[23] ولم ينقصه لإخماد هذه الثورات الا المال والإمداد، وهذا ما حصل عليه أخوه إبراهيم من الأمير يوسف بن تاشفين، ومما يرجح هذا الرأي سرعة عودة الأمير إبراهيم إلى الصحراء واقتناعه السريع بكلام الأمير مزولي بالعودة.

ولم تكن ثورات السودان ارتدادا عن الإسلام ويبدو أنها رغبة في الاستقلال السياسي، بدليل أنه بعد سقوط غانة ازداد عدد الداخلين في الإسلام[24]، فكانت سرعة عودة الأمير يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة وتعجله لها هو رغبته في الحفاظ على وحدة المغرب والسودان، والاطمئنان على استتباب الأمن في الصحراء، واتفاق قبائلها، فهم أصل أعياصهم ومصدر إمدادهم من الجند المجاهد، قبل أن يغامر بأي جهاد في الأندلس.

---

18) Corsrevin, Robert, of cit p.347.
Anta Diob, L'Afrique Noire Pre-colonial, p.69

19) Cornevin, op. cit x fage, op. cit

20) انظر مخطوط رقم د. 1020 بدار الوثائق بالرباط تحت اسم رحلة أبي بكر بن العربي، ابن أبي زرع : م.س، ص، ص 136، 157.

21) الاستبصار، ص 215.

22) كان للأمير أبي بكر بن عمر ولدان : إبراهيم، ويحيى، ويعرف يحيى بأبي زكريا، وابن عايشة كان واليا على سجلماسة، وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين 500 هـ / 1106م سارع بمبايعة الأمير علي بن يوسف الذي عينه واليا على فاس، المصادر بعد ذلك عن أخباره فلا نعرف عنه شيئا. ابن عذاري : م.س، ص،ص 17، 48.

23) في نسخة الحلل الموشية المطبوعة في تونس 1913 نجد أن الأمير أبا زكريا يحيى بن أبي بكر عمر استمر في طرد السودان 449 ولكن في النسخة المحققة من الدكتور سهيل زكار والأستاذ زمامة نجد يحيى هو أخو الأمير أبي بكر بن عمر وهذا خطأ لأن الأمير يحيى بن عمر توفي آخر عام 447 أو أواخر 449 هـ انظر : الحلل الموشية ط تونس ص 7، ط الدار البيضاء 1972 ص 17 أما عن سنة وفاة يحيى بن عمر انظر : ابن أبي زرع، ص 128، والحلل الموشية ص 23 وابن عذاري م. س. ص 14.

24) د. عصمت دندش : م. س. ص 115 وما بعدها.

عثرات الأقلام والألسنة

(1)

للأستاذ المنتصر الريسوني

مدخل :

ولعت أكبر الولع منذ فتاء العمر وطَرَاءة السّن بعلوم اللغة - بجانب علوم الشريعة وفنون الأدب طبعاً - ودفعني هذا الولع إلى توخي الصحيح من الأساليب العربية والإعراض عن السقيم منها بعد الوقوف على مناط السقم فيها.

ودفعني هذا الولع أيضا - وهو عندي نتيجة طيبة من نتائج النشأة العلمية - إلى الاتصال بما ألف في هذا المجال من طرف علمائنا أمثال ابن قتيبة (ت عام 276 هـ) في كتابه (أدب الكاتب) والحريري صاحب المقامات (ت عام 516هـ) في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) وابن الجوزي (ت عام 597 هـ) في كتابه (تقويم اللسان) وأضرابهم.

وكنت أثناء مطالعاتي الكثيرة لأنماط من الفكر مما احتوته الكتب والجرائد والمجلات أحاول تتبع ما يرد فيها من عثرات، كما كنت أثناء سماعي لأحاديث المتحدثين والمذيعين أتتبع ما تلوكه الألسن من غلطات - وللألسنة غلطات لا يظهر البعض منها في الكتابة كحركة عين الماضي والمضارع والأمر - مما كان يملي علي بإلحاح تجنب ذلك في الكتابة والنطق.

وتجمعت لديّ مزالق لغوية شائعة، فقررت التنبيه عليها، وصادف أن كنت أكتب بصحيفة (العلم) عام 1381 هـ موافق 1961م مذكرات بعنوان (أشتات مجموعة)، فخطر لي أن أخصص لهذه مكاناً في هذه المذكرات؛ لذلك جعلتها خاتمة لكل مذكرة بعنوان (في اللغة)[1].

وهذا يعني - بالجزم - أن بداية نَشْري لهذه المزالق والتنبيه عليها سابقٌ زمانَ ما كان ينشره الأُستاذ محمد العدناني في مجلة «الأديب» البيروتية عن الأخطاء الشائعة[2] وسابقٌ جمعهُ بعد ذلك هذه الأخطاء في كتاب تحت عنوان : (معجم الأخطاء الشائعة) وإخراجه إياه في سنة 1393 موافق 1973م، وإعادة طبعه ثانية مع التنقيح سنة 1400 هـ موافق 1980.

1) انظر مثلا ص 4 رقم 4377 - الأربعاء 3 ربيع الأول 1381 موافق 16 غشت 1961.

2) انظر مثلا رقم 62 السنة 31 يونيو 1972.

ولم أكن أكتفي بذلك، بل كنت كلما قرأت كتاباً وعثرت فيه على نبوة لغوية نبهت عليها في هامشه، على طريقة علمائنا الأقدمين في كتابة طرر ما يقرءون[3]، مثال ذلك الطرة التي عندي في صفحة 57 من كتاب (داعي السماء بلال بن رباح) للأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله طبعة 1945 ـ دار سعد للطباعة والنشر، والذي اقتنيته منذ عام 1378 موافق 1958، وفيها علقت على قول الكاتب «ففي هذه السنة التي نحن فيها (1945)، انعقد مؤتمر الجماعات التي تشتغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديد أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق الخ» بما يلي :

الصواب استعمال (التنصير) بدل (التبشير)، إذ لا يسوغ التبشير بما يذم إلا إذا كان ذلك على سبيل الاستعارة التهكمية كما في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[4]، استعيرت البشارة للإنذار هزؤا وسخرية.

ولا ريب عندي أن هذه الطرة أملاها علي ما كنا نتلقاه من دروس مختلفة عن السيد الوالد رحمه الله، عام 1375 هـ موافق 1955 وما بعدها، من بينها دروس في منظومة (الجوهر المكنون في الثلاثة فنون) في البلاغة للشيخ الأخضري بشرح الشيخ الدمنهوري (حلية الأب المصون على الجوهر المكنون) وعن الاستعارة التهكمية تقول المنظومة :

ثم العنادية تمليحيّة تلفي كما تلفي تَهَكُّمِيَّة

وهذا يعزز ما أشرنا إليه سابقاً من أن الولع باللغة كان نتيجة طيبة من نتائج النشأة العلمية. وما قررناه في هذا منذ أكثر من ربع قرن دعت إليه رابطة العالم الإسلامي اليوم، إذ نصّت في قراراتها باستعمال التنصير بدل التبشير والحمد لله على هذا التوفيق.

هكذا كانت بداية العناية بهذا الجانب اللغوي، ثم استمرت العناية تشق طريقها في همة، لا تعرف الوهن، إلى الآن لا تكف عن تصيد المزالق والتنبيه عليها في هوامش ما نقرؤه من كتب أو في بطاقة خاصة، إذا كانت المزالق مما نقرؤه في الصحف والمجلات أو كانت المزالق لسانية مما لا يبدو في الكتابة.

ومنهجنا في هذه الدراسة اللغوية يتلخص في عرض الخطإ ـ وقد نشير إلى مظانه الوارد فيه وقد لا نشير وذلك حسب الإمكان ـ مشفوعا بصوابه، وقد نفصل أحيانا الحديث عنه لغويا أو نحويا، وقد لا نفصل الحديث في ذلك، فالأمر لدي يرجع إلى طبيعة الكلمة في التركيب العربي، وما يمكن أن تفرضه عليّ من شرح مسهب.

وارتأيت بعد أن تجمع لدي حشد من المزالق أن أعرضها مترتبة على حروف المعجم امتثالا لطبيعة ما تحت يدي من هذه المزالق، وتسهيلا في الوقت نفسه لطرائق البحث عن العثرة اللغوية.

وقد اعتمدت في هذه المباحث على مصادر لغوية موثوقة، في مقدمتها القرآن الكريم وهو الحجة القاطعة على اللغة، كما أنه الحجة القاطعة على البشر في جميع ميادين الحياة، ثم الحديث الشريف الصحيح، ثم الشعر العربي من جاهليته وصدر الإسلام إلى عصور الاحتجاج وهي نهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة لفصحاء الحضر إلى أواسط الرابع بالنسبة لفصحاء البادية، وقد نستأنس بشعر في غير هذه العصور.

واعتمدت كذلك على معاجم لغوية موثقة، في مقدمتها جمهرة اللغة لابن دريد، والمخصص لابن سيده،

---

4) سورة آل عمران 21.

3) الطرة طرف كل شيء وبالنسبة لكتاب هامشه وتجمع على طرر.

ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروزابادي، وتاج العروس للزبيدي، والصحاح للجوهري، والمصباح المنير للفيومي، وأساس البلاغة للزمخشري، وفقه اللغة للثعالبي، وأدب الكاتب لابن قتيبة.

وكتب في النحو في مقدمتها شروح الألفية، وما قررته المجالس العربية لا ما قرره فرد واحد، لأن إجماع أهل الاختصاص في هذا المصدر أمر ضروري لتفادي أي زلل، وتفادي الاجتهادات الفردية التي قد تمليها على صاحبها أهواء خاصة من بينها الجهل باللغة نفسها.

وقد يتساءل البعض عن أسباب ذيوع الخطإ في كتاباتنا حتى من الذين أتيحت لهم فرص تعلمها ومعرفة قواعدها والتعمق في أسرارها، والاطلاع على جمال بيانها حتى أصبحوا أقطابها، وعندي - والله أعلم - أن الأسباب تتلخص فيما يلي :

1) طغيان اللهجة الدارجة على حياتنا اليومية، إذ أننا نصبح ونمسي عليها بجانب ما تسهم به أساليب اللغة الأجنبية من تأثير في إبعاد العربية عن روحنا وسليقتنا، ولو أننا حاولنا الاقتراب من لغتنا شيئا فشيئا وذلك باستعمالها في البيت والشارع والمعمل وفي كل مجال من مجالات حياتنا لاستطعنا أن نخالط روحها وتخالط هي روحنا، ولأمست حينذاك اللهجات المحلية تعيش في هامش الحياة.

والحق أن اللحن ظهر مبكرا في العربية، إذ يعود إلى عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ففي هذه الفترة أخذ اللحن يفشو وهو ما دعا أبا الأسود الدؤلي (ت 68 أو 69 هـ) إلى رسم معالم النحو للناس أخذا عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وذلك عندما سمع لحناً، ومما يحكى أن أبا الأسود سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ بكسر لام (رسوله)[5] عطفا على المشركين، فهاله الأمر ففكر في الموضوع ووضع المبادئ الأولى للنحو[6].

ولما كثرت الفتوحات الإسلامية ازداد اللحن فشوا، وظهر ما يسمى بالدخيل[7]، وكل ذلك جعل علماءنا فيما بعد يؤلفون في لحن العامة ولحن الخاصة وقد سبقت الإشارة إلى هذا في صدر هذا المدخل.

2) شيوع السماعي في اللغة خاصة في الصرف والاشتقاق مما يسهم في الوقوع في الغلط حينما لا يحاول الباحث الرجوع إلى المعاجم التي يمكن أن تمده بما يروم، وليس هذا عيبا في لغتنا، بل العيب فينا، نحن الناطقين بها، الذين نهملها بالانصراف عن اكتناه أسرارها ومعرفة مزاياها المتفردة.

3) الجهل باللغة العربية وذلك بالرغبة عنها والاكتفاء بالاطلاع الضئيل على قواعدها، الأمر الذي لا يكفي معه التعامل المستمر معها، ويتجلى هذا بوضوح تام في ضعف الناشئة في لغتهم، وضعف كذلك بعض من يلقنونهم العربية، ومما أثار انتباهي حقا أنني استمعت يوما إلى حديث تلفزيوني لأحد المنتمين لمجمع من المجامع العربية اللغوية، وأحد المتصدرين لمسؤولية ملحوظة فيه ينصب فيه الإسم في غير محل النصب، ويرفع الإسم في غير محل الرفع، ويجره في غير محل الجر، فحزنت أكبر الحزن لهذه الظاهرة الشاذة.

---

5) رسوله يقرأ بالرفع، وفي إعرابه أوجه ثلاثة، الوجه الأول أنه معطوف على ضمير في (برئ)، والوجه الثاني أنه مبتدأ محذوف خبره والتقدير (ورسوله بريء)، والوجه الثالث معطوف على موضع الابتداء وهو غير مسلم به عند المحققين، وقرئ بالنصب عطفا على اسم (ان)، وأما العطف على (المشركين) فإنه يفضي إلى الكفر، لأن المعنى يفسد بهذا العطف كما هو جلي.

6) راجع الحلبي (عبد الواحد) مراتب النحويين ص 8 تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم - طبعة مكتبة نهضة مصر.

7) يراد بالدخيل ما دخل لغة الضاد سواء ما استعمله الفصحاء في الجاهلية والإسلام، وما استعمله بعدهم المولدون، ويطلق على ما استعمله الفصحاء (المعرب) وما استعمله المولدون (المولد).

ولست أزعم لنفسي بعد هذا أن ما قمت به هو ما تضلّ فيه الأفهام في دروبه. وتزلّ الأقلامُ في مسالكه، وتتنكب فيه الألسن الصواب، لأن ذلك غير ممكن حصره، ولاسيما أننا نلفي علماءنا المختصين في اللغة وممن عرفوا بطول الباع في الكتابة قديما وحديثا لم ينْجُ الجلُّ منهم من الوقوع في الكبوات، ومن ينجو من الخطإ، والعصمة ليست من طبيعة البشر ؟ وليس أدل على ذلك من وجود ملاحقات كثيرة ومتابعات ليست بالقليلة لعلماء - على مر العصور - يصححون بها أوهام أندادهم من العلماء، من ذلك ما يقوله الفيروزبادي في مقدمة قاموسه منتقدا الجوهري : «ثم إني نبهت فيه على أشياء ركب فيها الجوهري رحمه الله خلاف الصواب»، ثم يقول : «واختصصت كتاب الجوهري من بين الكتب اللغوية مع ما في غالبها من الأوهام الواضحة والأغلاط الفاضحة لتداوله واشتهاره بخصوصه واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه»[8].

وهذه الأوهام التي يصرح بها الفيروزبادي ويحاول تصحيحها، لم ينج من أمثالها هو نفسه. ومن يرجع إلى (تاج العروس) يجد ذلك جليا واضحا، ولا نحتاج إلى إيراد أمثلة عن ذلك، فالكتاب في متناول كل واحد.

وحسبنا أننا سنقدم ما يخدم لغتنا الشريفة، ويصحح المقولة الخاطئة التي تقول : خطأ مشهور خير من صواب مهجور[9]، والتي تدعو إلى هدم اللغة من أساسها، والتي لا تختلف عما يزعمه في المجال الفقهي المقلدون من الفقهاء، من أن العرف المشهور مقدم على النص ولو كان صحيحا، مع أن العرف فيه الفاسد وهو ما يخالف روح الشرع، وفيه الصالح وهو الذي لا يخالف روحه، لكن التقليد يعمي، فلا يعود الإنسان يميز بين الغث والسمين.

وكل ما أرجوه من الله تعالى هو أن يعم النفع بهذا العمل، والله حسبي وكفى.

(أ)

1 - أثّر

بتشديد الثاء المثلثة، يتعدى بحرف الجر (في) أو بحرف (الباء) فيقال أثّر فيه أو به تأثيراً إذا ترك فيه أثراً، وبتعديته بحرف الجر جاء قول عنترة بن شداد العبسي (... نحو 22 قبـ=... نحو 600م)

أشكو من الهجر في سروفي عن

شكوى تؤثّر في صلد من الحجر

أما تعديته بحرف الجر (على) كما هو مستعمل اليوم في قولهم «أثّر عليه فخطأ بين، وهو من عثرات الصحف خاصة.

2 - آخذ

تصادفنا هذه الجملة في قراءاتنا «آخذه على ذنبه» غير أن الاستعمال الصحيح غير هذا، إذ لم يرد في اللغة استعمال (آخذ) مع حرف الجر (على)، بل الصواب هو أن يجيء بعده حرف الجر (الباء) وبذلك جاء التنزيل الحكيم، ففي سورة البقرة يقول تعالى : ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم**﴾[10]، وفي سورة المائدة يقول تبارك وتعالى : ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان**﴾[11] وفي سورة النحل يقول سبحانه : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما**

---

8) ص 4 - طبع المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

9) هذه المقولة يستهدي بها كثير من الكتاب وحين تبحث عن سبب ذلك تجد أن أولئك يتمسكون بها ليسوغوا ضعفهم في اللغة ليس إلا، والحق أن المهجور بالاستعمال المستمر تعود له نضرته وجماله ويصبح طبعا في اللسان حبيبا إلى القلب إلا إذا كانت اللفظة في بنيتها حوشية تنفر منها النفس ولا تستأنس بها.

10) آية 225.

11) آية 89.

ترك عليها من دابة﴾[12] وفي سورة الكهف يقول عز من قائل : ﴿**لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب**﴾[13] وفي سورة الكهف أيضا يقول جلّ وعلا : ﴿**قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا**﴾[14]، وفي سورة فاطر يقول تعالى : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**﴾[15].

وقد عضد الخطأ المشهور هذا (المنجد) وذلك حين قال في مادة «أخذ، آخذه مواخذة لامَه وعاتبهُ و-على ذنبه وبذنبه عاقبه عليه».

ولو أنه أشار إلى ما يفيد أن ذلك غير معروف في اللغة كما يفعل مع بعض الكلمات الداخلية لفعل خيرا وأنقذ قراء من الوقوع في مصايد الغلط، ولكن هذا ليس غريبا عن (المنجد) فكم فيه من غلطات في اللغة، والأعلام ومع ذلك يلقى إقبالا لا تلقاه المعاجم الأخرى الموثقة.

3 ـ أذن

من باب طرب وهو يجيء بمعنى علم، وبمعنى أباح الشيء، وبمعنى استمع، غير أن الأقلام تخلط هذا بذلك وذاك بهذا، والألسنة لا تميز بين استعمال واستعمال، فهم يقولون أذن له بالعمل والصحيح أذن له في العمل يعني أباحه له، واستعمال الباء الجارة بعد (أذن) تجعله يفيد معنى علم به، وهذا لا يصح كما هو بين، ولاحِظ أن الفعل يتغير مفهومه بسبب نوع حرف الجر الذي جاء بعده.

أما أذن بمعنى علم فقد جاء بها التنزيل في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾[16] وبمعنى استمع جاء في سورة الانشقاق في قوله جل اسمه : ﴿**وأذنت لربها وحقت**﴾[17] والمقصود بذلك أن السماء استمعت لربها وانقادت له، وقد حق عليها ذلك بدون شك، وقد ورد هذا المعنى في قول الشاعر قعنب بن ضمرة المعروف بابن أم صاحب (... ـنحو 95 هـ = ... ـنحو 714م) :

أن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا
عني ما أذنوا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به
وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

(يتبع)

12) آية 61.
13) آية 58.
14) آية 73.
15) آية 45.

16) آية 279.
17) آية 2.
18) ص 8 ط 1 عام 1979 ـ دار العلم للملايين، بيروت.

حول كتاب المستفاد

للأستاذ بنعلي محمد بن بوزيان

يحدثنا الأستاذ محمد المنوني في كتابه عن مصادر تاريخ المغرب[1]، عن مؤلف اعتبره الآن في حكم المفقود بعدما استمر معروفا حتى نهاية القرن الهجري الحادي عشر، عند كل من ابن القاضي الذي نقل عنه بإسناد وبغير إسناد في أكثر من ثلاثين موضعا من جذوته[2]، وابن عيشون وقد استأنس به أيضا في سبع تراجم من روضه العاطر الأنفاس[3]، ويحمل الكتاب عنوان **«المستفاد في مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد»**.

ومن غريب الاتفاق أن يكون الذي نعى إلينا الكتاب هو نفسه الذي استطاع بعد مقارنات وتحريات أن يكتشف قطعة منه مبتورة الطرفين، شاركت بها في المعرض الذي أقيم بكلية الآداب بوجدة طيلة أيام الندوة المخصصة لموضوع **«المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر»**.

ومن جهتنا سعينا لإثبات هذا الاكتشاف وإقرار نسبته إلى صاحبه، فتبينا دليلين لا يرقى الشك إلى أولهما على الأقل، وهما :

1 ـ إشارته إلى مصنف آخر وضعه قبل المستفاد ونسبه إليه صاحب الذيل والتكملة، قال بعدما أورد جزءا من حديث للرسول عليه السلام «...الحديث بكماله، فمن أراد الوقوف عليه وعلى أمثاله من الأخبار في ذلك فليطلبه في كتابنا المسمى بكتاب أدب المريد السالك والطريق إلى الواحد المالك»[4].

2 ـ إشارته إلى اسمه «محمد» في غير ما موضع، ثم تصريحه مرة واحدة بأن محمدا هذا هو مؤلف الكتاب : «قال محمد المؤلف...»[5].

---

1) الإشارة إلى كتابه المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ص : 55 ترجمة 104 طبعة بتنيد.

2) ينظر على سبيل المثال الصفحات : 101 ـ 102 ـ 107 ـ 108 ـ 154 ـ 180 ـ ...الخ (طبعة دار المنصور ـ 1974).

3) هو محمد بن محمد ابن طاهر ابن عيشون الشراط توفي 1109 هـ : الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس.

4) المستفاد ص 70. مخطوطة خاصة (وانظر الذيل والتكملة : السفر الثامن القسم الثاني ص : 356 مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. المعارف الجديدة. الرباط.

5) المصدر السابق ص 82.

واسمه الكامل هو : أبو عبد الله : محمد بن قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمي الفاسي، أخذ ببلده عن شيوخ جلة، ثم رحل إلى المشرق رحلة حافلة أقام فيها خمسة عشر عاما ولقي نحوا من مائة شيخ أكثر من الرواية عنهم[6]، وضمن ذكرهم برنامجا أسماه «**بالنجوم المشرقة في ذكر من أخذنا عنه من كل ثبت وثقة**».

أما تلامذته فكثيرون جدا، نذكر منهم على سبيل المثال فقط ابن فرتون، ومحي الدين ابن عربي الذي سلم بمشيخته في الفتوحات المكية، بل **وصرح أنه سمع عليه كتاب المستفاد بقراءته**، وأبا مروان عبد الملك بن أبي القاسم التوزري ابن الكردبوس صاحب كتاب **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**[7].

ولقد رماه ابن الأبار بعدم الضبط لأنه وقف بخطه على أوهام وأغلاط، ووافقه على ذلك صاحب الذيل والتكملة إذ قال : «**وكان محدثا حافظا، ذاكرا للحديث ورجاله وتواريخهم وطبقاتهم، ولم يكن في ضبطه بذلك، وحدث بالمشرق والمغرب**».[8]

ثم إنه نسب إليه أربعة عشر مصنفا، ألمح بعدها بما يوحي بأن مؤلفاته تفوق العدد المذكور.

وقد توفي صاحب الترجمة بفاس آخر سنة ثلاث أو أربع وستمائة هجرية.

ونبادر بعد هذا التعريف الموجز؛ الملتقط من كتب التراجم والأعلام؛ إلى عرض الكتاب فنذكر أن صاحبه ترجم فيه لأزيد من ثمانين علما، فيهم من لا يحتاج إلى إقامة الحجة على نبوغه وشهرته، وفيهم من لا نعرفه إلا بواسطته، وهم بين زاهد منقطع بكاء... وفقيه مدرس أو إمام... وواعظ ناصح أمين.. ومولع بالسياحة وطلب الرجال..

وتاجر صدوق.. ومحترف عامل... فمسلم الحبشي[9] كان إذا صلى بكى وإذا تكلم بكى، وعلي بن هراوة[10] كان إماما ومعلما لكتاب الله، وكان ابن هران[11] مولعا بالسياحة وطلب الرجال... على حين كان عبد الرحمان الحاج الملاح[12] يبيع الملح بالقرب من منزل سكناه، بالأرض دون حانوت، وأبو زيد عبد الرحمان الخراز[13] مقبلا على حرفته؛ فإذا جاء الصيف خرج للحصاد يحصد بيده عند من يرضى حاله، ولا يأخذ زائدا على إجارته المعلومة.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف البين في الشواغل والاهتمامات الدنيوية، فإن القاسم المشترك الذي جمعهم على الهدى يتمثل في إسلام النفس لله، وتحكيم دستوره عز وجل في سلوكهم العملي، يتفرع عنهما ما شئت من خلال حميدة : تقلل من الدنيا.. وتواضع.. واحتمال وصبر.. وكرم وإيثار.. وورع متين.. ونزاهة.. ومحاسبة نفس... وبعض هؤلاء بلغ درجة في الولاية واليقين قصر عنهما الآخرون، ومن ثم نسب لهم ضروباً من الكرامات والخوارق التي تخرج عن العادات والطبائع السائرة. وقد كان في طوقه أن يزيد لولا أنه تنبه إلى وجود منكرين لكرامات أهل اليقين، فلم يشأ أن يكون لهم عونا على الوقوع في أولياء الله تعالى[14].

واستنادا إلى حرفية العنوان من جانب، وإلى ما ورد في المخطوط من جانب ثان، يكون أغلب المترجمين من سكان مدينة فاس قبلة العلم وكعبة القصاد، وقليل أولائك الذين استوطنوا أحوازها كرباط تازا.. والكندريين.. وصفروي ـ أي صفرو ـ على نحو اثني عشر ميلا من فاس حسب تحديده[15]، ولا نعدم فيهم غرباء نزحوا هم أو آباؤهم من الأندلس. ومما يحمد لجل هؤلاء أن تميزت حياتهم

---

6) ابن الأبار : تكملة الصلة. ترجمة رقم 1720 من طبعة عزت العطار.

7) محمد ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة السفر الثامن القسم الأول ص 355. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

8) الذيل والتكملة السفر الثامن القسم الأول ص : 355.

9) المستفاد ص : (4 ـ 5).

10) المصدر السابق ص : (105 ـ 108) وله ترجمة في جذوة الاقتباس رقمها 514 ـ ص 468.

11) المصدر نفسه ص : (3 ـ 4).

12) المصدر نفسه ص : (109 ـ 111).

13) المصدر نفسه ص : (70) وترجمة قصيرة جدا.

14) المصدر نفسه ص : 99.

15) المصدر نفسه ص : 29.

بالحركة الدائبة بحيث لم يخرجوا عن الناس أو ينقطعوا عنهم بالخلوة والانفراد على عادة الزهاد حتى إن منهم من أدركته الوفاة خارج وطنه بالمشرق.

وفيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعه المؤلف، يبدو من خلال الكتاب المفقودة ديباجته أنه لم يرسم في ذهنه أية خطة واضحة وهو يتأهب لجمع مادته. فهو لم يصنف مترجميه - مثلا - بحسب النسق الأبجدي أو التدرج الزمني لحيواتهم، بل إنه لم يفرد شيوخه الذين اجتمع بهم واستفاد من علمهم بأية خاصية كأن يصدر بهم تأليفه... وفي المقابل أورد أخبارهم بتلقائية تغلب عليها الفوضى التي تسود بعض المؤلفات القديمة والمعاصرة له.

وكل ما يمكن الإشارة إليه في صدد المنهج أنه كان يذكرنا بين الفينة والفينة بوعده في المقدمة؛ أن يجعل من الإيجاز والاختصار غايته الأساسية. فبعد كلامه عن أبي الحسن علي بن السكاك قال ما يلي : «..قال محمد : وشهرة الشيخ وكراماته معروفة، فلهذا لم أشبع القول في ذلك ولشرطنا المقدم في الاختصار[16]».

هذا، إلى أنه كان يورد شواهده الشعرية خاصة بغير نسبة في معظم الأحيان، ففي كل القطعة التي تحت أيدينا لم يسند إلا مرة واحدة حينما قال عن الشيخ أبي الحسن علي بن حسون اللواتي : «ولقد كان يذكرني بحاله قول ابن شبرمة :

لو شئت كنت ككرز في تعبده
أو كابن طارق حول البيت والحرم

قد حال دون لذيذ العيش خوفهما
وسارعا في طلاب الفوز والكرم

ثم علق على البيتين بما يلي : «وكان كرز بن وبرة لا يرى في ساعة قط إلا مصليا، وكان محمد بن طارق يطوف في اليوم والليلة سبعين أسبوعا فكّاً تعدل بعشرة فراسخ[17].

وما من شك في أن القارئ الكريم سيدرك معي أن هذه الشواهد ليست شواهد باحث دارس أو ناقد مميز، يقدمها للاستدلال وقطع الشك بسيف اليقين، وإنما هي من قبيل الاستطراد المقصود الذي لا يخلو من فائدة، والذي نراه ظاهرة تكاد تكون متواترة في الكتابات ذات الطابع الصوفي الزهدي كالمدهش لابن الجوزي والتشوف لابن الزيات.

والذي يوحي به الكتاب بشكل قوي أن مادته أصل لا مصدر له غير رواته ومعاينة المؤلف نفسه. فعن الرواة نقل أخبار أولائك الذين لم يدركهم، أو أدركهم وهو صغير حدث، أو أدركهم ولم يسعد بمخالطتهم، وكانوا إما جيرانا للمؤلف أو من أصحابه المبرزين. ومنهم أيضا من ارتبط بالمترجم بعلاقة حميمة : قرابة (حفيد - ابن اخ)، صداقة، خدمة... ولقد ظفر معظم الذين خالطهم المؤلف بعناية خاصة منه، ونقل إلينا صورا مختلفة عن حياتهم اليومية العادية وشواغلهم العلمية والصوفية. فهناك من خرج معه لجنان دعاه إليه صاحبه، وثمة من سافر معه «أو مشى إليه زائرا» أو بات عنده ليلة في بعض شهور رمضان. بل وفيهم من سمعه في بعض مجالس وعظه «أو وجده على غاية من الاجتهاد، أو في الكتاب مع الصبيان».

أما من روى عنهم أخبار مترجميه فهم يزينون لنا الحكم بكونه ثبتا ثقة، أحاديثه تشي بالنزاهة والموضوعية والتجرد كما في هذه الرواية : «**أخبرني الشيخ أبو**

16) المستفاد ص : 90.

17) المصدر السابق ص : 29.

محمد قاسم بن محمد بن الشيخ أبي عمران عرف بابن تاندلست، وكان من الصالحين. أدركته وصحبته ولم أسمع هذا منه»[18] أوفي إشارته إلى مواقفه الصريحة مما يرتاب فيه : «**...قال محمد - أي المؤلف - وسمعته - يعني ابن الرمامة - في بعض مجالسه يقول إما عن نفسه أو عن من حدثه، الشك معي (؟) أنه...»**[19] ونادرا ما كان يسند إلى نكرة. ففي كل القطعة التي نحن بصدد دراستها ورد ما يلي :

- أُخْبِرْتَ : في ثلاثة مواضع.
- أخبرني بذلك من حضره وشاهده : مرة واحدة.
- ذُكِرَ عنه أنه : مرة واحدة أيضا.
- سمعت غير واحد من أصحابنا يقول : مرة واحدة.
- أخبرني بعض الإخوان : مرة واحدة.
- أخبرني غير واحد من جيراني : مرة واحدة.
- أخبرني غير واحد من أصحابنا : مرة واحدة.

على حين وقع الإسناد إلى أزيد من خمسين علما من جملتهم : والده وأبو الحسن علي بن عتيق وقاسم بن محمد القضاعي وابن الطويل وقاسم بن محمد القيسي وإبراهيم بن أبي بكر العجمي وسواهم. ينضاف إليهم أعلام آخرون ذكروا عرضا في تدخلات المؤلف واستطرداته المفيدة القيمة التي تؤكد أنه كان فعلا من المحدثين الكبار والعلماء الأثبات، فحينما أشاد بقراءة الأستاذ أبي العباس أحمد بن محمد المرادي المعروف بالدراج قال : **ولقد ذكرني بقراءته ما روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري : شوّقنا إلى ربنا : أو خوفنا ربنا. قال : فيقرأ، لما كان عليه من تحسن القراءة وتحسينها...**[20].

ولتتميم معلوماتنا عن هذا المصنف؛ تشير إلى أن القطعة التي تحت أبصارنا لا تحتل إلا حيزا ما في الجزء الثاني من المستفاد. ولعله من المفيد أن أقدم هنا الترجمة المختتم بها، وهي للشيخ الفقيه «**أبو الحسن علي بن أحمد الكتاني**» رحمه الله تعالى : كان شيخا فاضلا مقرئا روى الحديث بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، فالتقى بالإمام أبي حامد الغزالي بمكة، سمعته يذكر ذلك. ولقي بمكة وبيت المقدس علماء منقطعين. وكان يعلم القرآن بالمسجد المعروف بابن حنين، له عبادة واجتهاد. أخبرني الفقيه أبو محمد قاسم بن محمد القضاعي، قال : أخبرني الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن يبقى[21] عن الفقيه أبي الحسن الكتاني : إنه يختم القرآن في اليوم والليلة دائما نفعه الله تعالى بذلك. ثم إنه قال : **آخر الجزء الثاني، يتلوه الثالث**[22].

وهو مبدوء - بعد البسملة والتصلية - بالفتى الزاهد العابد : **مَنْغُفاد فتى حديث السن** : وتلك ترجمة ساعدت كثيرا على ضبط هوية الكتاب، إذ بها حصلت المقارنة بما ورد عند ابن القاضي[23] الذي اتكأ كلية على الكتاني، واتفق معه بذلك في ألفاظ الترجمة خلا بعض المفردات، وتصحيفا في قوله عن الفتى «..فإذا بصبي نظيف عليه دراعة زرقاء مرقعة بخز وصوف[24] خلافا لما جاء في الأصل «..خرق صوف» وهو الصحيح بلا ريب.

18) **المستفاد ص : 91. وفي ص : 103 قال : أخبرني غير واحد من جيراني عن الشيخ أبي الحسن علي بن ملولة الفارسي جارنا، وادركته أنا ولم أسمع منه ذلك لصغر سني في ذلك الوقت.**

19) **المصدر السابق ص : 14.**

20) **المصدر نفسه ص : 8.**

21) **له ترجمة في المستفاد ص : 02.**

22) المستفاد ص 114. وهذا دليل على أن الكتاب يقع في ثلاثة اجزاء على الأقل. وهو سفران عند صاحب الذيل والتكملة

23) جذوة الاقتباس. القسم الأول : ص 335، ترجمة : 353. دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط/1973.

24) المصدر السابق ص 336 - المستفاد ص 115.

ولم يبق من هذا الجزء الثالث غير خمس تراجم للاعلام الآتية :

1 ـ منفغاد فتى حديث السن : ص (114 ـ 116).

2 ـ الشيخ أبو محمد عبد الله بن معلاّ : ص (116 ـ 121).

3 ـ الشيخ الحاج أبو الحسن علي بن حسون اللواتي : ص (122 ـ 127).

4 ـ أبو العباس أحمد بن طوال : ص (127 ـ 128).

5 ـ الشيخ أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن إسماعيل عرف بالفنكي أصله من قرطبة واستوطن بمدينة فاس مع أبيه وهو إذ ذاك صغير : ص (128...

زد على ما سبق تراجم لا نعلم مواقعها الصحيحة في الكتاب، وأغلبها لشخصيات لها قدم راسخة في التصوف كأبي يعزى وابن حرزهم وأبي مدين وغيرهم.

ولا نودع الحديث عن هذا المصنف النادر دون أن نشير إلى أن لغته سليمة على العموم «وأحيانا» أحيانا كانت تتدنى لتقترب من الأحاديث الشعبية أو تلامسها، وحتى نكون على بينة من ذلك نقرأ ما يلي من ترجمة الشيخ حجاج بن يوسف الكندري وقد كان ساكنا رحمه الله تعالى بالكندريين من أحواز مدينة فاس : **...قال أبو يعقوب الحاج البستاني، وكان حجاج رباه، قال : كان يزبر العنب في جنانه، فخطرنا عليه أنا وولده يحيى فقال لنا : ادخلوا عاونوني في الزبير. فقال له : لو كان العنب إلا ودخلنا. قال : ادخلوا تاكل العنب إن شاء الله تعالى. فقلت لولده : ادخل نزبروا معه. فدخلنا فزبرنا**[25]**...الخ.**

والمقول في آخر المطاف : أن تحقيق هذه القطعة النادرة من المستفاد سيسد بعض النقص الذي سببه ضياعه. وسيكون حافزاً للبحث عن أوليته وبقيته.

25) المستفاد ص 50.

اجتماع المجالس العلمية

عقد معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري عشية يوم الثلاثاء 13 شهر ربيع الأول 1407 (1986/12/16) جلسة عمل مع السادة العلماء رؤساء المجالس العلمية تناول فيها معهم بالدرس والتحليل سير المجالس وآفاق عملها وإسهامها في إنجاز المهام التي نيطت بها.

وقد تناول معالي الوزير الكلمة فأبرز المكانة الفريدة التي تتبوأها المجالس العلمية التي تحظى برئاسة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الذي أراد من خلال المجالس العلمية أن يمارس العلماء مهامهم في الحفاظ على سلامة العقيدة والمذهب ووحدة الأمة وأصالتها، وذلك ما يفرض أن ننهج خطة محكمة لبلوغ هذه الأهداف.

وخطتنا - يقول معالي الوزير ما هي إلا قبس من توجيهات أمير المؤمنين صاحب الجلالة الذي هو رئيسنا وملكنا وعالمنا وأمير المؤمنين، وصاحب التوجيه والتسديد، فينبغي أن تستند هذه الخطة على التأصيل في جميع الواجبات، وذلك ما يقتضي :

1 - ألا نسند أي دور في الدعوة الإسلامية إلا للعلماء الكفاة.

2 - التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

3 - إحياء العلوم الشرعية وإنعاشها بالمدارسة.

والوزارة تعمل على تعزيز هذا الخط، وذلك بإحياء الكراسي العلمية، وإنعاش المدارس العتيقة، وطبع كتب المذهب المالكي وتشجيع تحفيظ القرآن الكريم، وتدارس علومه، وقد تم تدشين مدرسة القراءات بتارودانت، وكرسي للقراءات بمكناس، وعن قريب سيتم تدشين كرسي للقراءات بالراشدية في ضريح المولى علي الشريف، كما ستنظم الوزارة جائزة الحسن الثاني لحفظ القرآن الكريم.

وتطرق معالي الوزير بعد ذلك إلى الجهود المباركة التي تبذلها الوزارة في التأطير، وتحدث عن المعهد الإسلامي لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء والذي خرج فوجه الأول المتكون من عشرين طالبا، والذين التحقوا بالأزهر الشريف في دورة تدريبية.

ثم تناول وضعية الجالية المغربية في الخارج والتي توليها الوزارة بالغ العناية، ولذلك فقد تم إيفاد مئة من المعلمين الوعاظ، كما ترأس السيد الكاتب العام بعثة إلى أوربا تفقدت أحوال جاليتنا وتدارست أوضاعها.

وختم السيد الوزير كلمته بتوجيه الشكر للسادة العلماء رؤساء المجالس العلمية الذين لا يدخرون جهدا في تحقيق ما تطمح إليه الوزارة من عمل مجد ومفيد.

وبعد ذلك تناول السادة العلماء رؤساء المجالس العلمية الكلمة فأثنوا على الجهود المشكورة، والإنجازات المهمة التي تحققت في السنين الأخيرة، وأعربوا عن استعدادهم الدائم للنهوض بالمهام الملقاة على عاتقهم.

قضايا و أخبار

زيارة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
لدولة الإمارات العربية

توثيقا لعرى الأخوة والتضامن، قام معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بزيارة لدولة الإمارات العربية في الفترة الممتدة بين 7 ـ 12 يناير 1987، استقبل خلالها من طرف سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية، والدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة وعضو المجلس الأعلى للإمارات العربية، والشيخ حمدان بن محمد نائب رئيس الوزراء، والشيخ محمد حسن الخزرجي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف، والشيخ نهيان بن مبارك الرئيس الأعلى لجامعة الإمارات.

وأدى معالي الوزير صلاة الجمعة في مسجد البطين بمدينة أبو ظبي نقلتها وسائل الإعلام مباشرة في دولة الإمارات.

وقد كانت زيارة السيد الوزير مناسبة لإبراز الدور الرائد الذي تضطلع به المملكة المغربية في الحفاظ على الإسلام وتراثه، وبث إشعاعه، والحرص على التعاون مع جميع الأشقاء في المجالات المشتركة.

ومعلوم أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية تقوم بتحقيق وطبع ذخائر التراث بجهودها الخاصة، كما تقوم بنفس المهمة في إطار الصندوق المشترك لإحياء التراث الذي يربط بين المملكة المغربية ودولة الإمارات في اتفاقية ثنائية موقعة منذ مارس 1975.

وتدخل زيارة السيد الوزير في إطار التأكيد على الطابع الحيوي الذي يجسده استمرار التعاون المغربي الإماراتي المثمر في مجال هذا الصندوق، وتوسيع التعاون ليشمل ميادين أخرى.

رافق السيد الوزير خلال زيارته لدولة الإمارات وفد هام يتكون من السادة الأساتذة :

- مولاي مصطفى بن أحمد العلوي مستشار بالوزارة.
- الكبير العلوي مدير الشؤون الإسلامية.
- محمد أبو الفضل رئيس قسم الدراسات الإسلامية.
- عبد العزيز السلاوي مدير ديوان السيد الوزير.

قضايا و أخبار

زيارة وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية للسينغال

قام معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بزيارة للسنغال في الفترة الممتدة بين 25 دجنبر 1986، و2 يناير 1987.

رافقه خلالها وفد يتكون من العلماء الأساتذة السادة :

- الأستاذ مصطفى بن أحمد العلوي رئيس رابطة علماء المغرب والسنغال.

- الدكتور عباس الجراري عضو أكاديمية المملكة.

- الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله عضو أكاديمية المملكة.

- الأستاذ عبد السلام جبران رئيس المجلس العلمي الإقليمي لمراكش.

- الأستاذ الكبير العلوي مدير الشؤون الإسلامية.

- الدكتور محمد فائق، من ديوان السيد الوزير.

وتدخل هذه الزيارة في إطار إحياء الأيام الإسلامية الثقافية السادسة المنظمة من طرف اتحاد الدوائر التجانية تحت الرئاسة الشرفية السامية لأمير المؤمنين صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده.

وقد تقابل معالي الوزير أثناء هذه الزيارة مع فخامة رئيس الجمهورية السنغالية السيد عبدو ضيوف وعدد من الوزراء السنغاليين والشخصيات العلمية والدينية.

وقد أدلى معالي الوزير لدى وصوله بتصريح، أشاد فيه بعمق الروابط التي تجمع بين أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني وفخامة الرئيس عبدو ضيوف مبرزا أصالة الأخوة المغربية السنغالية التي يعززها المذهب الواحد والتاريخ المشترك، وشكر الحكومة السنغالية والمشايخ والشعب السنغالي على مالقيه من حفاوة الاستقبال الذي يترجم مشاعر الأخوة والثقة المتبادلة، وأبرز العناية الخاصة التي يوليها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني لرابطة علماء المغرب والسنغال التي تضطلع بدور هام في ترسيخ أواصر القربى بين العلماء والجماهير في البلدين.

قضايا و أخبار

وقد ساهم وفد علماء المغرب المرافق لسيادة الوزير في إنعاش الأيام الثقافية بالمحاضرات والدروس التي شارك بها الأساتذة :

- الدكتور عباس الجراري في موضوع «التربية الإسلامية».

- الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في موضوع : «الطريقة التجانية وركائزها السنية».

- الأستاذ مولاي مصطفى العلوي في موضوع : «السنة العملية».

- الأستاذ عبد السلام جبران في موضوع : «التصوف والسنة».

وقد قام السيد الوزير والوفد المرافق له بزيارات للمدن الروحية : تيواون، كولخ، طوبة، وألقيت بها عدة دروس ومحاضرات وعقدت لقاءات مع كبار مشايخ التصوف، وأعيان الطريقة التجانية والمريدية.

وأسفرت هذه الزيارة عن نتائج جد هامة، تتجلى في توطيد الصلة بين جناحي التجانية في المغرب والسنغال، بما قرره فخامة الرئيس عبد وضيوف من تخصيص مقرر سمي قار لرابطة علماء المغرب والسنغال بدكار، وانضمام علماء الطريقة المريدية إلى هذه الرابطة، إلى جانب توطيد الصلة بالجمعيات الدينية والثقافية السنغالية، وترسيخ جذور التعاون بين حكومتي المغرب والسنغال في مجال الشؤون الإسلامية.

الاجتماع السنوي لنظار المملكة

ترأس معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، بمقر الوزارة، يومي 12 ـ 13 جمادي الثانية 1407 (11 ـ 12 فبراير 1987) الاجتماع السنوي لنظار المملكة.

وألقى في السادة النظار كلمة قيمة أبرز فيها مظاهر التطور الذي شهدته الوزارة خلال السنة المنصرمة، والذي يتجلى في ارتفاع المداخيل، وإنجاز المشاريع المبرمجة، وإتمام عمليات التأطير، وتحسين أوضاع القيمين الدينيين الذين ارتفعت رواتبهم بنسب تتراوح بين 100/30 ٪، بفضل التفاتة سامية خاصة من أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره.

وأثنى على عمل السادة النظار، وشكرهم على ما حققوه، وحثهم على مضاعفة الجهود.

وتناول بالتحليل والدرس آفاق العمل في مجال الشؤون الإسلامية، فأشاد بالمستوى الرفيع الذي تعرفه المحاضرات التي تنظمها الوزارة، وخاصة في عيد المولد النبوي الشريف، ولفت انتباه النظار إلى وجوب العناية بالمساجد، والسهر على سلامتها من البدع والانحرافات، وضرورة التنسيق مع المجالس العلمية، والعمل على إنجاح الكراسي العلمية، وإنعاش المدارس العتيقة التي يرجى لها أن تواصل دورها في الحفاظ على كتاب الله وسنة رسوله، وتخريج أفواج من الأئمة الذي يتزايد احتياجنا إليهم باستمرار، وفي هذا الإطار نوه بالدور الرائد الذي يضطلع به المعهد العالي الإسلامي لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء والذي أعطى أولى ثمراته بتخريج عشرين عالما تم إيفادهم إلى الأزهر الشريف لاستكمال تكوينهم في دورة تدريبية تستغرق ثلاثة أشهر.

واختتم معاليه كلمته بالإعراب عن ارتياحه للنتائج التي تم التوصل إليها، وحثهم على مضاعفة الجهود حتى يتحقق ما يأمله أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه ونصره.

وبعد ذلك فتح باب الحوار والمناقشة.

وفي نهاية هذا الاجتماع رفع معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالأصالة عن نفسه ونيابة عن كافة النظار وأطر الوزارة برقية إلى المقام العالي أسماه الله عبر فيها عن الولاء والإخلاص للعرش العلوي المجيد معربين عن تجندهم الدائم، وعزمهم الأكيد على التعبئة الدائمة والمستمرة وراء أمير المؤمنين لخدمة الدين والوطن والعرش، داعين لجلالته بدوام النصر والتأييد، قرير العين بسمو ولي العهد الأمير الممجد سيدي محمد، وصنوه السعيد مولاي رشيد، وأن يحفظه في كافة أفراد الأسرة الشريفة، واختتم الجمع كما ابتدأ بآيات بينات من كتاب الله عز وجل.

توصيات الأيام الدراسية لعلوم الفلك

التوصيات المقدمة من طرف السادة المشاركين في الحلقة الدراسية لعلوم الفلك التي استمرت يومي الإثنين والثلاثاء العاشر والحادي عشر من جمادى الثانية 1407 هـ (تاسع وعاشر يبراير 1987م).

1) تحديد العرض والطول والارتفاع عن سطح البحر لكل مدينة ومركز بمختلف الأقاليم المغربية وبكل دقة تقنية، حيث إن هذه من أهم الوسائل الكفيلة بتحقيق وتدقيق الأعمال الفلكية.

2) إصدار الأمر لسائر المؤذنين بمنارات المدينة الواحدة؛ بأن يتبعوا علامة موقتها المسؤول إداريا وشرعيا عن موافقة كل أذان بها إلى ميقاته الشرعي.

3) تنظيم حلقتين دراسيتين عن علوم الفلك كل سنة بمقر الوزارة يحضرهما علماء التوقيت بالمملكة المغربية، وتكون إحداهما في شهر شعبان المبارك، وثانيتهما قبل طبع التقويم الهجري المغربي للمصادقة عليه.

4) أن يشمل التقويم الهجري المغربي حصص الأوقات والمهمات الفلكية لكبريات المدن المغربية، لتعم الفائدة، ولا يكفي بيان الفرق الإداري بها.

5) نصب المزاول البسيطة والقائمة والمنحرفة في مختلف المساجد بالمدن والقرى المغربية، ليسهل على الناس تحقيق المواقيت النهارية.

6) تكوين لجنة من علماء التوقيت لتسطير آلة الأسطر بأجزائه بصفائحه المتنوعة، ونجومه الثابتة.

7) إحداث مؤسسة على مستوى معهد للتعمق والتخصص في دراسة علوم الفلك بالطرق الأصيلة والآلة العصرية، ويكون هذا المعهد مجهزا بمختلف الآلات المتطلبة لتحقق هذا التخصص، ويكون بكبريات المدن المغربية حتى يتسنى لعلماء الفلك فيها الإسهام بالعمل البناء من جهة، ولتقريبها من هواة هذه العلوم من جهة أخرى.

8) إحداث غرف ميقاتية بمختلف المدن المغربية تكون مجهزة بالآلات الميقاتية.

9) تعيين موقتين بالمدن الخالية منهم، مثل ورزازات، والداخلة، والناضور، وأكادير.

قضايا و أخبار

10) إحداث مجلة فلكية تعنى بعروض وأبحاث حول الفلك الأصيل والشريعة الإسلامية، وتنشر بها حصص الأوقات والمهمات الفلكية لمختلف المدن المغربية.

11) تنظيم ندوة كبرى تضم علماء التوقيت وفقهاء الشريعة الإسلامية.

12) إحداث مختبر فلكي تابع للوزارة، يضم خزانة فلكية ومرصدا فلكيا وآلات حيسوبية معربة، لها علاقة بعلم الفلك.

13) إقامة ذكرى تكريمية لشيخ المؤقتين «سيدي محمد العلمي بمدينة فاس» و «شيخه الفقيه الاغزاوي»، و «لابن البناء الأزدي بمدينة مراكش»، يتعرف منها الناس على آثارهم الفلكية، وتعرض فيها تآليفهم.

14) ندوة تاريخية لمعظم مشاهير الفلكيين بفاس ومكناس والرباط والجنوب بصفة عامة.

15) التأييد الكامل للطريقة التي تتبعها الوزارة فيما يتعلق بثبوت رؤية هلال كل شهر، وأنها طريقة صائبة وفريدة في العالم الإسلامي، ومؤسسة على نصوص الشريعة الإسلامية.

16) طبع مجموعة من الكتب المهمة والمفيدة لهواة علوم الفلك جلها ألفها علماء مغاربة، وهي كما يلي :

1) الربع المجيب والمقنطر والمزولة وبوصلة القبلة والكرة الفلكية (للنتشند ناصر).

2) أرجوزة في عمل التوقيت باللوغاريتم وشرحها للاغزاوي.

3) إرشاد الحائر في تخطيط فضل الدائر لابن المجدي.

4) أزهار المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب للأخضري.

تصويب

وقع إسقاط وتصحيف في الصفحة 16 من السطر التاسع إلى آخر الصفحة من كتاب «علم المواقيت» الذي صدر أخيراً عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. فالرجاء ممن لم تقع في نسخته ورقة التصويب أن يصححها كما يلي :

1) لاستخراج سنة ميلادية توافق سنة هجرية معلومة تجرى العملية الحسابية التالية :

$$\frac{(\text{السنة الهجرية المعلومة} \times 32)}{33} + 622 =$$

2) لاستخراج سنة هجرية توافق سنة ميلادية معلومة تجرى العملية الحسابية التالية :

$$(\text{السنة الميلادية المعلومة} - 622) \times \frac{33}{32} =$$

والمعلوم أن عام 622 م يوافق السنة الأولى للهجرة، وأن 32 سنة شمسية تعادل 33 سنة قمرية.

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

"ألا إنّ هذا الزمانَ قد استدار دورته كهيئته يومَ خلق الله السماواتِ والأرض."

(حديث شريف)

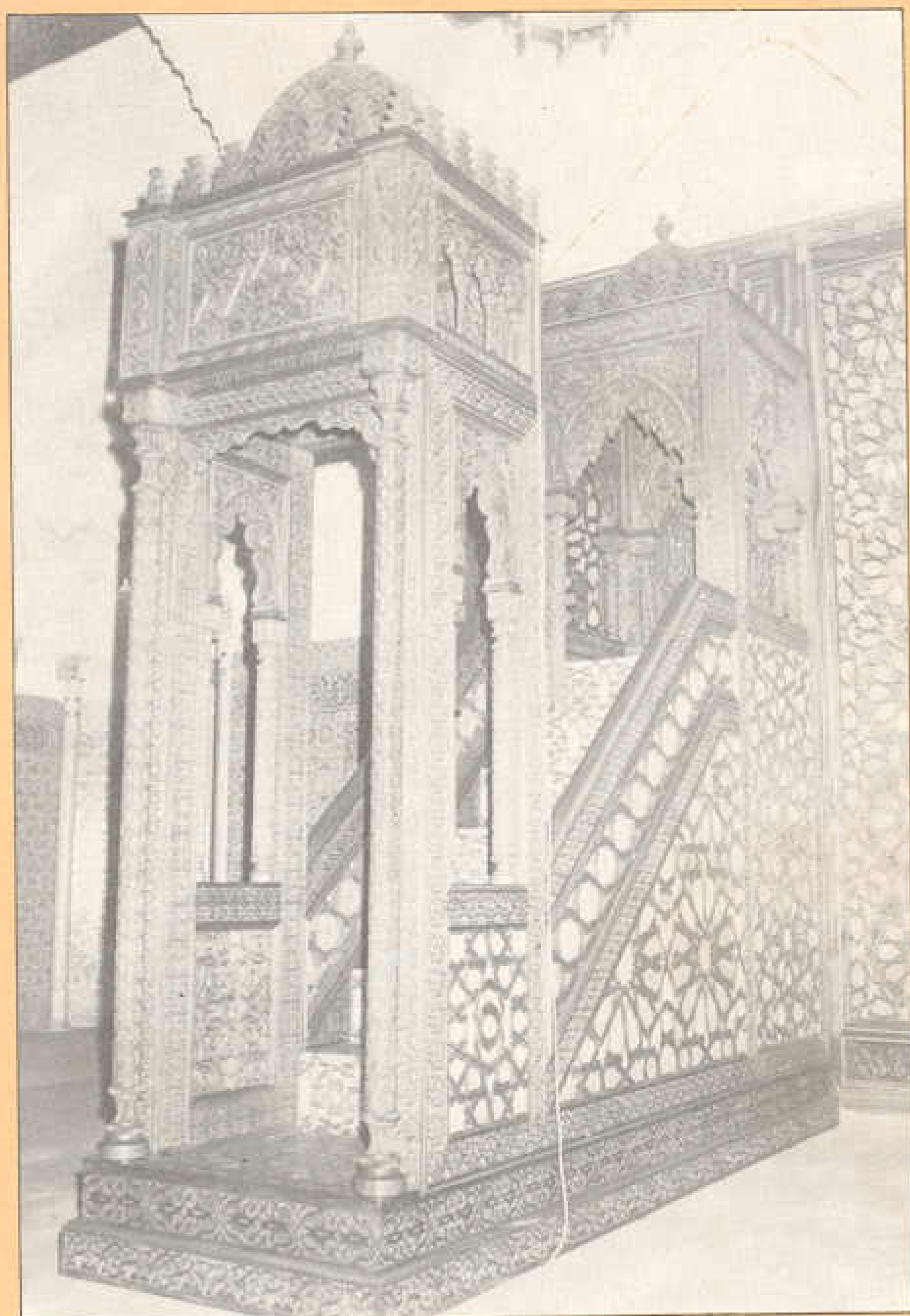
عِلمُ المَواقيت

أصوله ومناهجُه

تقديم وتحقيق

محمّد العربي الخطّابي

1407 هـ - 1986 م



منبر ضريح المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه